سلسلة الظاهر والباطن
الكتاب الخامس

السلوك القويم

على الصراط المستقيم

تأليف

محمود المراكبي

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله واهب النعم، المتفضل على عبادة بصنوف الكرم، سبحانه واحد لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد، خلق الخلق بقدرته، وصوره مشيئته، وقدره فأحسن تقديره، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، سبحانه وتعالى متصف بكل كمال يليق بذاته، وتنزه عن الشبيه والمثيل فليس كمثله شيء، احتارت القلوب في كنه ذاته، وتوقفت العقول عند الفكر في مخلوقاته، فليس للمرء مهما سلك من سبل أن يصل في معرفة ربه إلا بالقدر الذي أنزله على أنبيائه وحدثتنا به رسله، العصمة كل العصمة في اتباع الأنبياء، واجتناب الابتداع، فالرسل تفتح بإذن ربها سبل النجاة، ويغلق الشيطان أمام الإنسان أبواب الرجاء، ويفتح له باب الغواية ويدله على سبل الضياع.

وأصلي وأسلم وأبارك على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله، الصادق الوعد الأمين، جاهد في سبيل دعوته حتى أتاه اليقين، بعثه ربه رحمة للعالمين، فكان لأمته الرءوف الرحيم، ختم الله به الرسالات، وأتم به النعم والكمالات، بعثه ربه للناس كافة، فأخذ بأيدي المؤمنين إلى جنات النعيم، الذين أطاعوه فكانوا لله طائعين، وعَصَاه الجبابرةُ والظالمين، فخابوا وتاهوا وكانوا من الضالين، ما ترك طاعة لله إلا وحثنا عليها، وما رأى خطرا علينا إلا نبهنا، وما ترك معصية لله إلا ونهانا عنها، فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آل بيته الطاهرين والصحابة الأبرار المجاهدين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين، وبعد؛

فبعد أن صدرت سلسلة الظاهر والباطن التي ضمت أربع كتب هي: "موسى والخضر علما الظاهر والباطن"، الذي تناولنا فيه هذه القصة القرآنية بالتأمل والتحليل، والبحث والتحري عن الحقيقة التي فهمها السلف الصالح من هذه القصة الغريبة، وقد توصلنا بعد سرد الأدلة والبراهين من كتاب رب العالمين وسنة رسوله الكريم، وما تركه لنا سلفنا من تراث عظيم، إلى

Upload by : altawhedmag.com

إجابات عديدة لأسئلة شتى: من العبد الصالح؟ أحي هو إلى اليوم؟ وتحقيق ما انتشر بين العامة من لقائه بالنبي ﷺ، وهل الخضر نبي، أم ولي، أم ملك كما يزعم بعض القائلين؟ ثم ما حكمة لقائه موسى؟ وما حققه اللقاء للخضر وما حققه لموسى عليهما السلام؟ ثم تدارسنا القصة لنأخذ منها العبر، ونتعلم منها الدروس والدرر، وفي النهاية ناقشنا قضية العلم اللدني وكنهه والمقصود منه، وبذلك يحقق كتابنا الأول مناقشة أصل قضية الظاهر والباطن التي يعتمد الباطنيون على الخضر عليه السلام في إثبات دعواهم.

ثم أصدرنا "جذور الشيعة وجيش المهدي"، وهو الكتاب الثاني من هذه السلسلة، وهو يتتبع تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية، بدءا من اليهود ومن ورائهم النصارى حتى انحرف بهم عن جادة الطريق؟ ثم تكون المفاجأة أن المسلمون ساروا خلف اليهود والنصارى شبرا بشبر وقذة بقذة، وما تركوا جحر ضب دخلوه إلا دخلوه ورائهم، رغم تحذير نبينا الهادي محمد ﷺ، ويعرض الكتاب التسلسل التاريخي لتسرب الفكر الباطني في الإسلام، ثم يقدم معتقدات أشهر فرق الباطنية من مصادرهم المعتمدة عندهم، وبالتالي لا نزايد على أحد، فنعرض أصول فكر الإمامية وعقيدتهم في القرآن، والسنة، والصحابة، وآل البيت، والأئمة، ثم انتظارهم للمهدي المنتظر، ومتى يظهر؟ وأفعاله من يوم ظهوره، وما ينتظره أهل السنة من سيف المهدي، ودور اليهود في نصرته، وكيف يهدم المسجد الأقصى؟ ويبنى لهم هيكل سليمان وداود، إن القارئ لهذا الكتاب سيفاجأ بخيوط مؤامرة ذات شعب ثلاث، يحركها اليهود، والصهيونية المسيحية التي استولت على البيت الأبيض، مع الشيعة، وليس وراءهم من غاية سوى أهل السنة.

ثم نعرض عقيدة غلاة الشيعة من الإسماعيلية، والفاطميين، والنصيرين العلويين، والدروز، وتلك الفرق هي أشهر وأخطر الفرق الباطنية، ومحاولات إحياء الإسماعيلية في مصر

ثم يأتي الكتاب الثالث "عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة"؛ ليناقش عقيدة الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، ويتعرض لتطور أفكار الصوفية منذ أن كانت جماعة من الزهاد وأرباب السلوك إلى أن أصبحت مدارس فلسفية استوردت كل ما يهدم عقيدة الإسلام، وراحت تروج لبضاعة مزجاة عفا عليها الزمان، فراحوا يروجون لها ويلبسونها ثيابا إسلامية، ثم يوجز الكتاب انحرافات التصوف في نقاط محددة هي: وحدة الوجود، والإلحاد في أسماء الله تعالى، ثم الذكر بالأسماء السريانية التي يوضح الكتاب أنها أسماء لشياطين ومردة من مردة الجن، ولا علاقة لها

Upload by : altawhedmag.com

بالله تعالى، ثم يتعرض الكتاب لآداب الصوفية وظاهرة الغلو في المشايخ، حتى يصل الاعتقاد بهم أنهم أعضاء في الحكومة الباطنية، وأن الله تبارك وتعالى ترك لهم أمور تصريف الكون، حتى إذا تولى مجذوب القطبانية فلت الأمر من يده فتقوم الساعة، وهذا الاعتقاد دعانا إلى دخول مملكة الباطن وتقديمها للقارئ بشكل يغنى عن قراءة آلاف الصفحات التي اسودت من أفكار القوم، ثم يتعرض الكتاب إلى قضية العدوان في الدعاء وانفراد أدعية الصوفية بطلبات ما أنزل الله بها من سلطان، وينفرد هذا الكتاب بين كل ما كتب عن التصوف بدراسة أوراد أكبر عشرين طريقة صوفية في مصر والعالم الإسلامي، ثم يناقش الكتاب كل قضية ضلَّ فيها التصوف من منظور الكتاب والسنة، ونختم الكتاب بتوصيات نقدمها للعالم الإسلامي لتصحيح مفاهيم القوم.

ثم ألحقنا كتاب القول الصريح عن حقيقة الضريح بهذه السلسلة، بعد عقائد الصوفية، لوجود رابطة موضوعية قوية بين الأضرحة، والموالد والصوفية، ويدفعهم إلى ذلك حبهم لآل البيت "ومن الحب ما قتل"، ويتناول هذا الكتاب حقيقة أهم ضريحين في مصر، وهما ضريح رأس الحسين، ومشهد السيدة زينب رضي الله عنهما، وكم يحمل الكتاب مفاجآت؟

وكان لهذه الكتب صدى طيب بعد أن صدرت، فقد تناولت جريدة الأهرام القاهرية إلقاء الضوء عليها، ثم طلبت مجلة التوحيد نشرها في سلسلة مقالات شهرية، وتم لها ذلك بفضل الله وتوفيقه، ثم نشرت مجلة التوحيد نقدا للسلوك الصوفي، تلقفته جريدة عقيدتي، وبدأنا نساهم في الردود التي تنشرها الجريدة لبعض مشايخ الطريق، فقلنا لعله خير أن نسمع رأي المشايخ، فربما نصل بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الحق، وسرعان ما توقفت الجريدة، وأغلقت بابا كان يمكن أن يقرب الفجوة، ثم صدرت الطبعة الثانية المنقحة والمزيدة، وقد تلقيت ردود فعل متباينة أهمها في وجهة نظري، أن هذه الكتب الأربعة تنسف الفكر الباطني من أساسه، وكثير من الصوفية تركوا الطرق التي كانوا فيها بعض اطلاعهم على المآخذ الواردة في هذه السلسلة، وكان السؤال المُلِح هو: ماذا يفعل من ترك سبيل الخطإ ويريد أن يعرف الحق؟ فهل تضيف إلى هذه السلسلة كتابا خامسا يوضح السلوك القويم؟!.

وقد وفقني الله تبارك وتعالى إلى هذا الرأي الرشيد، وقد أسميته "السلوك القويم على الصراط المستقيم"، وهو والحمد لله تعالى بين يدي القارئ الآن، نسأل الله تعالى أن يكون عملا صالحا نافعا لنا في الدنيا، وفي ميزان حسناتنا يوم القيامة، وهو كما سيجد القارئ الكريم يتناول

Upload by : altawhedmag.com

سلوك الفرد المسلم على الطريق المستقيم؛ ولذلك بدأناه بتأملات في الكون والمنهج، توضح للقارئ الأجوبة الشرعية للاستفسارات الأساسية التي لا تترك الإنسان مهما كانت ثقافته، ثم دللنا على صحة الدين، وحتمية وجود رب لهذا الكون، وهذا الجزء من الكتاب مهم جدا، حيث نبدأ السلوك أولا بالفهم، وإثبات حقائق الإيمان بحيث يستطيع المرء أن يناقش بهذا الجزء من لا يؤمن بوجود إله في الكون، ثم تعرضنا لمراتب الوجود والحكمة من خلق البشر، وأوضحنا أعداءه وأعوانه، والهدف من خلقه، ورسالته المرجوة منه، ثم تأملنا رحلة المرء في هذا الكون، وعوالمه الأساسية ومتطلبات كل كيان يندرج بين يدي ابن آدم، ثم أوضحنا كيف يسلك المرء بعوالمه الخمس، وكيف يسلك بكل منها إلى خالقه جل شأنه؟ ثم شرحنا دعائم السلوك على الصراط المستقيم، وألقينا الضوء على حجر الأساس في السلوك إلى الله ﷻ، وهو العلم والفهم النابع من الكتاب والسنة، ثم ركزنا على التقوى، وذكرنا أنها الزاد المصاحب للسالك لمولاه، ومن بعدها لا بد من وجود الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول الخاتم ﷺ، ثم أشرنا إلى نقطة مهمة يغفل عنها كثير من المسلمين وهي ضرورة وجود الرفيق قبل السلوك، وأن على المرء أن يبحث عن أخ صالح، يرافقه في السلوك، يكون كل منهما عون لصاحبه، وأوضحنا أن الذكر الشرعي هو أداة السلوك إلى الله تعالى، وليس الذكر بمعناه الصوفي الضيق، وإنما الذكر بمعناه الشامل كما بينه الكتاب والسنة.

وبعد فراغي من هذا الكتاب، وجدت لزاما علي أن أضيف كتابا سادسا – ولعل الله تبارك وتعالى أن يطيل في العمر ويبارك لنا في العمل حتى نفرغ منه على خير بمشيئة الله تعالى – وهذا الكتاب قد أُلحقه بهذه السلسلة، وقد يصدر خارجها، وموضوعه غاية في الأهمية، وهدفه هو: كيف تسلك الأمة الإسلامية إلى الله تعالى؟ وكيف توحد جهودها؟ وتأخذ بأسباب التقدم العلمي، وتنشر الأخلاق الإسلامية التي تظهر المسلم بصورته الحقيقية، وتنزع عنه صورة الإرهابي تلك الصورة التي نجح الإعلام اليهودي أن يلصقها بالإسلام والمسلمين، ثم راح ينعق بها كل وسائل الإعلام في الغرب، وأيضا في الشرق حيث روسيا وتجمع دول شنغهاي، إن هذا الكتاب لا يحتاج إلا إلى توفيق الله تعالى قبل كل شيء وبعد كل شيء، وأسأله سبحانه أن يتفضل علينا ويمنحنا هذا الشرف العظيم أن نساهم ولو بالفكر في طريق تقدم الأمة الإسلامية، فالناس لا يتحركون إلا وراء الفكر الناضج، والفهم المستنير، والله ولي التوفيق.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الأول

التعرف على المعبود

١. استفسارات أساسية

٢. هل هناك خالق لهذا الكون؟

٣. لِمَ لا يخاطبنا خالقنا مباشرة؟

٤. الآيات في الآفاق

٥. أهناك بعث بعد الموت؟

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

استفسارات أساسية

إن الإنسان – منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها – دائم التأمل والنظر في نفسه وفيمن حوله من المخلوقات، وهذا البحث المتعاقب قد يسميه البعض بحثا عن مجهول، والآخرون يطلقون عليه بحثا عن الحقيقة، ومهما اجتهد الفكر الإنساني في بحثه هذا أخطأ أو أصاب، إلا أن القضايا المطروحة تملأ وجدانه، وتختلج في داخله منذ قدم التاريخ، والدليل على ذلك أن جميع الحفريات التي تبحث في الحضارات الغابرة أثبتت أن الإنسان متدين بطبعه، فلا يخلو مجتمع إنساني مهما كان صغيرا من وجود معبد يتوجه النَّاس إليه ليعبدوا ربهم، هذا المعبد مهما تعددت أشكاله وتنوعت صور المعبود الذي يسجدون له، إلا أن وجوده في حد ذاته يؤكد حقيقة فطرة النَّاس جميعا، وهي البحث الدائم عن السبيل الموصل إلى المعبود.

ويمثل المعبد في حقيقته مدرسة فكرية ومنهجا يقدم لأتباعه الإجابة التي يترقبونها لكل ما يجول في أذهانهم، ويقول الدكتور دراز: "إن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان، هي أنه ليست هناك مجموعة إنسانية – بل أمة كبيرة – ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان وفي مصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه"[١].

ونسوق آراء بعض الفلاسفة، حيث يقولون:

١. "قد نجد في الماضي أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم، أو الفن، أو الفلسفة، ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين"[٢].

٢. "إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات

١ الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٤

٢ هنري برجسون، نقلا عن "الدين"، للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٣

Upload by : altawhedmag.com

العالمية الخالدة الإنسانية، وإن هذه الغريزة الدينية لا تختفي – بل لا تضعف ولا تذبل– إلا في فترات الإسراف في الحضارة، وعند عدد قليل جدا من الأفراد"[١].

٣. "يرجح لدينا أن النَّاس سيظلون يُصلُّون إلى آخر الزمان".

٤. فالإنسان يختلف عن جيرانه من المخلوقات في هذا الكون الفسيح، فحيرته دائمة وقلقه مستمر، وتساؤلاته حاضرة في وجدانه:

- ما مراتب المخلوقات التي نعيش بينها؟
- ومن أنا؟
- ومن أين جئت، وإلى أين المستقر؟
- هل هناك خالق لهذا الكون؟
- كيف أحقق المراد من وجودي في هذا الكون؟

هذه بعض التساؤلات الأساسية التي لا تنفك عن الإنسان ولا تتركه، والنَّاس يعتمدون في أغلب الأحيان على ما يُقدمه لهم المعبد الذي التزم به آبائهم وأجدادهم، فهو إذن ميراث فكري تتناقله الأجيال، ويُعتبر كاهن المعبد الشخصية المحورية التي ترسم لهم المفاهيم، وتحدد لهم الإجابات، ويشرح العلماء نشأة التدين بقولهم: "هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ وما الإنسان؟ ومن أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبر أمرهما؟ ما الهدف منهما؟ كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أيّ مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟... هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة،... وهذا هو التدين"[٢].

١ معجم لاروش للقرن العشرين – "مادة الدين"، نقلا عن" الدين" للدكتور محمد عبد الله دراز ص٨٣

٢ مباريتلمي سانت هيلير، نقلا عن" الدين" للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٣

Upload by : altawhedmag.com

ومن هنا حاول الفلاسفة، وعلماء المنطق والمنهج التحليلي المساهمة في وضع إجابات لهذه التساؤلات وتيسير فهمها للعام والخاص، ولا يخفى قصور هذه الإجابات وتلك التحليلات، فهي تتناسب مع المستوى المعرفي للحقبة الزمانية التي تقع فيها هذه الاجتهادات.

إن المنطق يقرر أن المخلوق عاجز إذا اعتمد على قدراته أن يتعرف على خالقه، أو يفسر الأشياء التي وقعت قبل خلقه وإيجاده في هذا الكون، ومن هنا اختلفت الفلسفات، وتباينت الآراء، وانقسم النَّاس، وازدادت حيرتهم، فلم تزدهم الفلسفة والتأمل إلا اختلافا، والأجدر بنا أن نطرح تساؤلاتنا للتأمل، وليست هذه دعوة لمزيد من الفُرقة والانقسام، وإنما هي دعوة للفهم وربط الأحداث بمُوجدها، ورغبة في الوصول إلى اليقين الذي يبحث عنه كثير من بني جلدتنا، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

النَّاس بين رجلين: مُؤمن مصدق، وكافر مكذب: فالأول: مُؤمن يعتقد بوجود خالق لهذا الكون، ولا يعنيه ما نحن بصدد مناقشته، فهذا بالنسبة له جدل عقيم، والثاني: كافر لا يرى للكون خالقا، وهو يقنع نفسه بأي نظرية، أو فلسفة تؤكد ذلك، ومن يؤمن بالله يرى في ديانته التي يتبعها، أو مذهبه الذي يعتقده أنه المسلك الصحيح، فهو ميراثه عن آبائه وأجداده، وقد يمحص المرء معتقدات آبائه، ويدراسها ويتعمق فيها، وهدفه دائما المزيد من التمسك بموروثه، وبالتالي يزداد لها اعتناقا، وبها تمسكا، ونادرا ما نجد امرءا درس عقيدة غيره بحثا عن الحقيقة، ومن هنا تظهر قضية التعدد والاختلاف، وليس من المنطق أن الحق مع كل هذه المذاهب المتباينة، فأين الحق الذي يبحث عنه الجميع؟ والأعرابي حسم قديما قضية الإيمان والتصديق حين قال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير،.... فالرجل لا يحتاج إلى دراسة ولا فلسفة، وهناك من أثبت الخالق بالتأمل فيما يقع حوله من أمور، مثل الشاعر الذي أجاد حيث يقول:

قل للطبيب تخطفته يد الردى ... يا شافي الأمراض من أرداكا
قل للمريض نجا وعُوفي بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا
قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنايا يا صحيح دهاكا
قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذي أهواكا
بل سائل الأعمى خطى بين الزحام ... بلا اصطدام من يقود خطاكا
قل للجنين يعيش معزولا بلا ... راع ومرعى ما الذي يرعاكا

Upload by : altawhedmag.com

قل للـوليد بكى وأجهش بالبـكاء لدى الولادة ما الـذي أبكاكا
وإذا تـرى الثعبان ينفث سـمه فاسأله من ذا بالسمـوم حشاكا
واسألـه كيف تعيش يا ثعبـان أو تحيا وهـذا السم يمـلأ فاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهدا وقـل للشهد من حلاكا
بل سائل اللبن المصفى كـان بين دم وفرث ما الـذي صفاكا

ولكننا لن نلجأ إلى مخاطبة العواطف وإثارة الوجدان لإثبات قضية الإيمان بخالق هذا الكون، وإنما سنحاول الوصول إليه من خلال التأمل والتفكير المنطقي بعيدا عن نصوص أي دين من الأديان، ونشير هنا إلى أن الخطأ المنطقي الأول الذي أدى إلى المزيد من الانقسام أن الإنسان حاول النظر إلى المخلوق للوصول إلى خالقه، وتعثر هذا الأسلوب؛ لأن البشر اعتمدوا على قدراتهم لبيان ما يخرج عن حدود استطاعتهم وإمكانياتهم.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

هل هناك خالق لهذا الكون؟

والإجابة إما أن تكون: نعم، لهذا الكون خالق، وحيث أن العقل لا يستسيغ أن يُدرك المخلوق كُنه خالقه، ويتعرف من نفسه على سبل الوصول إلى مرضاته، فيكون الاستطراد المنطقي هو: إذن يجب على هذا الخالق أن يُعرفنا بنفسه، ومن هنا يطرأ هذا التساؤل المحوري الذي يفتح لنا باب البحث على مصراعيه وهو: هل خاطب [أو سيُخاطِب] الخالق خلقه ليعرفهم بنفسه؟ فإذا لم يخاطبنا بنفسه، فهل أرسل لنا مبعوثين عنه يخبرونا ويبلغونا عنه؟ فليس من المنطق أن لا يهتم الخالق بخلقه، وأن يكون غير عابئ بهم، ولا يريد منهم شيئا، وغير مهتم بالاتصال بهم وتكليفهم بأي شيء، فهذا منطق يرفضه العقل، فلم نرَ في حياتنا صانعا – مثلا- يصنع دون هدف، ثم إذا صنع أهمل صنعته ولم يهتم بصيانتها، وإذا لم يهتم الخالق بمخلوقاته، فكيف يطالبهم بالاهتمام به؟ ولِمَ يبحثون عنه؟

إن اهتمامنا هذا وعناية كل من كتب عن الأديان عبر التاريخ أكبر دليل على اهتمام الخلق بالوصول إلى خالقهم، وتلك قرينة تؤكد اهتمام الخالق بتعريف خلقه، ودليل قطعي أن الإنسان يملك أدوات البحث وسبل الوصول إلى المعبود، فإذا افترضنا أن الخالق لم يُحدِّث أحدا منذ بِدْء التاريخ إلى اليوم، وفي نفس الوقت لم يزعم أحد من البشر الإنباء عن الخالق. ألا يعد هذا دليلا في حد ذاته على عدم وجود صانع لهذا الكون؟ وأنه صنع نفسه وتطور من ذاته، أو أن الصدفة صنعته.

وربما يُعد ذلك دليلا على أن القضايا التي أثارها، وما زال يثيرها الإنسان هي من باب رفاهية الفكر، وانشغاله بما لا يفيد، وأنها قضايا في حدود طاقة العقل الإنساني، وإجابتها ميسورة، ولو كان الأمر بسيطا لاجتمع النَّاس على إجابة واحدة وصل إليها منطقهم عبر الزمان والمكان. إن طبيعة الحال خلاف ذلك، والواقع يكذب هذا الافتراض، فالاختلاف قائم والتفرق موجود، رغم ظهور أدعياء للنبوة – بل وأدعياء للربوبية أيضا – فما بالك بما يكون عليه الحال إذا لم تصلنا أي محاولة من الخالق ليعرفنا بنفسه؟ بل إن المِلل والنِحل أكثر من الهموم على قلب الحزين!.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

لِمَ لا يخاطبنا خالقنا مباشرة؟

نستطيع أن ندرك بسهولة – خاصة بعد التقدم العلمي والتقني المعاصر – أن البشر لا يتحملون تلقي الخطاب مباشرة عن الخالق، فقدرات الإنسان محدودة فهو لا يتحمل التعرض لشحنة كهربائية، أو لجرعة من الإشعاع الذري، أو لمجال مغناطيسي، أو لموجات صوتية، أو كهرومغناطيسية إلا في حدود معينة، فإذا كانت طبيعة خطاب الخالق فوق تحمل البشر، فمن الطبيعي أن لا يُعَرِّض خلقه للـهلاك حتى يخاطبهم، فلا بد إذن من حجاب يحقق خفضا تدريجيا لآثار الخطاب، حتى يتحمل البشر هذا التلقي.

والواقع يدلنا على أن هناك كثير من البشر – وفي كل زمان ومكان – يزعمون أنهم يتحدثون عن الخالق، وينبئون النَّاس بمراده، بل وإن منهم من زعم أن الله خاطبه وأمره بأمور محددة يبلغها للناس، وبذلك يتحول الاهتمام إلى دراسة هذه الظاهرة والتعمق في فهمها، وطالما وجد من ادعى الحديث – صادقا أو كاذبا – عن الخالق، فالمطلوب إذن هو التحقق من صدق هؤلاء ونبوءاتهم، ولا بد أن تتضمن نبوءته ما يشهد بصدقه أو يثبت كذبه، وأن نجد في منهجه الدليل والبرهان القاطع على صدق نبوءته، وعجز النَّاس على الإتيان بمثله، وأن دعوته تسمو فوق طور القدرات البشرية، كما يجب أن تقدم رسالته الإجابات التي ترد على استفسارات الإنسانية منذ نشأتها، بحيث يتأكد لنا أن المتحدث عن الله يلقى دعما من الخالق، بمثابة شهادة اعتماد منه تقوم مقام قوله: "صدق عبدي فيما أنبأ عني"، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى المعجزة، والآيات الباهرة، والحقائق الثابتة التي قدّمها الصادقون في دعواهم الإخبار عن الخالق، وتتعدد صور الإعجاز لتشمل الآية الكونية، أو المعجزة الحسية [كإحياء الموتى، وعصا موسى]، أو البلاغة التي تفوق قدرات البشر، أو الإثبات المدخر لما سيأتي مع الأيام، وهو ما نعرفه الآن بالإعجاز العلمي، وهو الحديث عن أمور يأتي العلم بعد قرون ليثبت صحتها، ويعرف العلماء الإعجاز العلمي بأنه: "أمر خارق للعادة، مَقْرُون بالتحدي السالم من المعارضة، الذي يتعلق ببحث قضية علمية وصل العلم

Upload by : altawhedmag.com

فيها إلى سقف المعرفة، وكانت دلالة النص عليها ظاهرة، فاتفقت الحقيقة العلمية مع الدلالة الشرعية الظاهرة الواضحة"[١].

١ مقالة افتتاح العدد الثالث من مجلة الإعجاز، وهي مجلة علمية متخصصة تصدرها هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، كتبه الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح أمين الهيئة ورئيس التحرير.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الرابع

الآيات في الآفاق

أما إذا عدنا إلى التأمل والتفكير وإلى السؤال الذي طرحناه آنفا: أليس لهذا الكون من خالق؟ نقول لو كانت الإجابة بالنفي والإنكار لوجود هذا الخالق، لتحول الأمر إلى قضية إثبات وجود الخالق، وإجابة ذلك سهلة ميسورة، ولا تحتاج منا إلا أن نقول: إننا لا نحاول إثبات وجود الخالق، ولكن الخالق عليه أن يُثبت لنا نفسه، ويُعرفنا بصفاته وقدراته، وبهذا نرجع فنلتقي عند نفس النقطة ونفس البداية، ألا وهي دراسة مناهج من زعموا وادعوا الحديث عن الخالق، فمن أثبت لنا أنه نبي من رسالته وشريعته، فسيجيب علينا ببراهين قاطعة عن جميع القضايا المطروحة وعلى رأسها التعريف بالخالق.

ونحن كبشر مطالبون بمهمة ثقيلة تستلزم بحث وتحليل مناهج مُدعي النبوة؛ لذا ينبغي أن نسأل أنفسنا قبل قبول هذا المهمة: هل نستطيع القيام بها؟ وهل أُوتينا الأدوات اللازمة للبحث أم نعدمها؟ فلو كنا مفتقدين للأدوات اللازمة للبحث، فنحن – بالتأكيد – غير مطالبين بالإجابة عن هذه القضايا، ولكان الأمر كله دربا من العبث، إذ كيف تستطيع عقولنا طرح أسئلة، وهي لا تملك القدرة على الإجابة عليها؛ ولذلك كان وجود العقل بملكاته المختلفة جازما على قدرته على مهمة البحث والتحليل وأَهليته وقدرته على التمييز.

وليس من قبيل الصدفة أن نجد رسلا وأنبياء يقدمون العديد من المناهج يناسب كل منها زمانه، وأن يهبنا الخالقُ العقلَ الذي يعد الأداة المهيأة للتمييز بين القَيّم والتافه، والطيب والفاسد، والخير والشر،.... فالعقل يعقل الأمور، ويميز بين الـمُختلق من أصله [وهو الباطل اللجلج]، وبين الصالح القائم على أساسه [وهو الحق الواضح الأبلج]، فالعقل يمتلك القدرة على التحقق بين الحق في نفسه والصالح لزمان محدد، وبين الصالح والقائم مع تعاقب الأيام، والذي لا يزيده كرّ الأيام إلا قوة وصلابة.

إن من أهم الضوابط التي تدعم صحة الأديان أن نراها:

١. تهدف إلى نفس الغايات، وتحدد نفس الأهداف.

Upload by : altawhedmag.com

٢. تضافر الأديان وعدم تضاربها؛ فلا تهدم رسالة صحيحة رسالة أخرى تسبقها، حيث أن مصدرها واحد، فكيف تتناقض تعاليم الخالق لخلقه؟

٣. التدرج وتتابع هذه الرسالات حتى تتكامل في صورتها النهائية.

٤. مواكبة التقدم الحضاري للإنسان على كوكب الأرض، بحيث تصل في النهاية إلى رسالة عالمية تبلغ حد الكمال، فتصلح للبشرية جميعا.

ولا بد لنا أن نختار رسالة من الرسالات ونختبرها حتى نتأكد من صحتها، وأنها فعلا من خطاب الخالق، ولكن كيف نختار هذه الرسالة؟ هل نختار الرسالة الأخيرة؟ أو تلك التي لها أتباع أكثر؟ هل نبحث في الرسالات التي تأكدنا من حدوث انحراف في تعاليمها؟ لقد فحصنا في الأجزاء السابقة من هذه السلسلة التعاليم الحالية للديانة اليهودية والمسيحية، وتأكدنا بعد عرضنا للأفكار المعاصرة أن تعاليم الوحي قد حُرِّفت وبُدِّلت، وبقيت مفاهيم الباطنية، وأفكار بولس وغيره، ويكفي للدلالة على حدوث تحريف أن ترجع إلى نسب عيسى عليه السلام في الأناجيل لترى مدى الاختلاف الكبير، لذلك يجب البحث عن الرسالة التي تعهدت بصورة واضحة بما يلي:

* أنها الحق، وأنها آخر ما نزل من رسالات.

* سلامة الرسالة من الانحراف وحفظها من العبث.

* أنها تضمن اجتياز أي اختبارات، ولديها الإجابة على جميع التساؤلات.

وهذه الشروط لا نجدها إلا في رسالة الإسلام، فهناك تعهد صريح بأنها الدين الحق، والرسالة الخاتمة، وأنها محفوظة من الانحراف والعبث؛ لأن من أرسلها هو الذي تعهد بحفظها، ويبقى أن نبحث عن جوانب الإعجاز في هذه الرسالة الذي يضمن لنا اجتياز أي اختبارات نجريها عليها – وسنتأمل صحة هذا الجانب بعد قليل – فقد ورد في القرآن الآية التالية: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت-٥٣].

وقبل أن نقوم باختبار رسالة الإسلام، نلقي الضوء على معنى كلمة "آفاق": وهي جمع أُفق، والأفق هو ما ينتهي إليه بصر الإنسان، فلو نظر وهو يسير في شارع فغاية أفق بصره هو نهاية ذلك الطريق، فإذا نظر وهو في صحراء، أو على شاطئ بحر فإن أفقه يتسع حسب قوة إبصاره ووضوح مجال النظر، فإذا نظر من طائرة فإن الأفق في هذه الحالة يرى عددا من الكيلومترات، فما بالك لو

Upload by : altawhedmag.com

نظر من مركبة فضاء أو ما شابه ذلك، هذا من حيث أُفق النظر المحسوس، أما الأفق الفكري والعقلي فإن اتساعه يتضاعف حسب المستوى الثقافي والمعرفي للبشر، فالمزارع في حقله، والصانع في مصنعه لهما أفق فكري بسيط، أما العالم، والباحث، والمكتشف، والمبتكر، فلهم آفاق أكثر اتساعا وأبعد عمقا، وتتعهد الآية أن يُقدم القرآن الكريم للناس الآيات تلو الآيات يرونها في آفاقهم وأنفسهم على تباين مستوياتهم، بما يؤكد أن الإسلام هو الدين الحق الخاتم المكمل والمتمم للرسالات والأخلاق، وإذا شك في هذا أحد فما عليه إلا أن يقرأ تتمة الآية حيث تقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت-٥٣]، وشهيد أي يعرف ويشهد كل شيء وعنده القدرة على الوفاء بتعهده وطرحه للمزيد من الآيات.

وسنختار الآيات التي تتناول موضوعا واحدا فقط - حتى لا يخرج كتابنا هذا عن هدفه الأساسي - وهو موضوع الأرض التي نعيش عليها، والتي كان يعرفها البشر جميعا منذ أربعة عشر قرنا من الزمان على أنها مستوية ممتدة إلى حافتها التي تنتهي عند بحر الظلمات، والذي ينتهي بدوره إلى نهاية الأرض، فهل أكد القرآن المفاهيم السائدة في وقته؟ أم أنه أتى بمعارف مختلفة عن الأرض وقدمها للناس بشكل لم يألفه المعاصرون في ذلك الوقت، والعجيب أنهم رغم عدم إدراكهم للمعاني التي يرمي إليها هذا الدين الجديد إلا أنهم وجدوا لها معاني صحيحة تناسب معارفهم في ذلك الوقت.

ونعرض فيما يلي ما قدمه لنا القرآن عن الأرض، وقبل أن نعرض فهمنا اليوم للآيات القرآنية سنعرض أولا فهم علماء السلف، الذين سبقوا العالم أجمع في الوصول إلى معارف كثيرة عن الأرض، وحسم قضايا مهمة، منها: ما يتناول كروية الأرض، وطبيعة السماء وما حوت من كواكب وأجرام، كل ذلك وأوروبا تموج في عصور الجهالة والظلام، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أولا: كروية الأرض

تقرر آيات القرآن الكريم أن الحق تبارك وتعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يَسْبَحُون في أفلاك: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء-٣٣]، ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس-٤٠]، فماذا يفهم العرب من لفظ الفلك؟ والإجابة على ذلك أن:

Upload by : altawhedmag.com

"الفلك في اللغة هو المستدير، ومنه قولهم للشيء تفلك: أي استدار،.. واستدارة الأفلاك هو الذي عليه علماء المسلمين، وقبل سبعة قرون من الآن سُئل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية المتوفى سنة [٧٢٨ هـ] عن رجلين تنازعا في كيفية السماء والأرض، هل هما جسمان كرّيان [أي كرويان]، فقال أحدهما: كرّيان، وأنكر الآخر هذه المقالة، وقال: ليس لها أصل وردّها، فما الصواب؟

فأجاب ابن تيمية بقوله: "السموات مستديرة عند علماء المسلمين، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام، مثل: أبو الحسن بن المنادي، أحد الأعيان الكبار من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد، وله نحو أربعمائة مصنف، وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله... قال ابن عباس وغيره من السلف: في فلكه مثل فلكة المغزل، وهذا صريح بالاستدارة والدوران، وأصل ذلك أن: "الفلك في اللغة هو الشيء المستدير، ويقال للشيء تفلك: أي استدار، ويقال لفلكة المغزل المستديرة فلكة لاستدارتها، فقد اتفق أهل التفسير واللغة على أن الفلك هو المستدير، والمعرفة لمعاني كتاب الله إنما تؤخذ من هذين الطريقين، من أهل التفسير الموثوق بهم من السلف، ومن اللغة التي نزل القرآن بها وهي لغة العرب، وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر-٥].

قالوا: والتكوير: التدوير، يقال: كوّرت العمامة إذا دورتها، ويقال للمستدير: كارة، وأصله كورة"[١].

ونضيف على ما قاله ابن تيمية: "ولما كان الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإن تعبير تكوير الليل على النهار، والنهار على الليل هو أدق وصف لطبيعة الكرة الأرضية، فنصف الكرة الأرضية يكسوه الليل، والنصف الثاني يكسوه النهار، والليل يحل محل النهار من ناحية، ويكور النهار على الليل من الناحية الأخرى، وهكذا يتتابع على الأرض كرّ الأيام كما أشارت الآيات القرآنية أيضا إلى الأرض، وكيف بسطها ربنا سبحانه، ويذكر القرآن في موضعين أن الله ﷻ مدّ

١ الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦: ٥٨٦ – ٥٨٧

Upload by : altawhedmag.com

الأرض، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، وختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [سورة ق-٧]، وفي الموضع الثاني: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر- ١٩]، وقوله ﷻ: ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ يقتضي استمرار المد، والذي لا يتفق مع كونها مسطحة، فلو كانت مسطحة لما كانت ممدودة عند حافتها، والشكل الوحيد الذي يقبل استمرار المد هو الكرة.

ثانيا: الأرض على هيئة البيضة

يصف القرآن الأرض بأوصاف دقيقة حين يقول: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات-٣٠]، وقوله ﷻ: ﴿دَحَاهَا﴾ يبلغ قمة الإعجاز القرآني، وهذا الإعجاز نتعرف عليه بعد أن نعرف ماذا تفهم العرب من كلمة: "دحاها": والتي تعني: بسطها، ودحا الأرض: أي أوسعها، والدّحة: أي البيضة، وما زال المصريون في صعيد مصر يُطلقون على البيضة الدّحة إلى اليوم، والأدحية والأدحوة مبيض النعام في الرمل؛ لأنه يدحوه برجله أي يبسطه ويوسعه ثم يبيض فيه، والعرب تقول للنعامة: "بنت أدحية"، أي بنت بيضة أو بنت المكان الذي صنعته على قدر البيضة لتبيض فيه، والعرب تصف أحد منازل القمر: بالأدحي، وهذا الوصف يخصص شكل الكرة أنها على صورة البيضة، والبيضة كرة غير تامة الاستدارة، بل هي كرة منقوص من أطرافها، وهذا ما أكده القرآن الكريم في آيتين؛ حيث يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد-٤١]، ويقول جل شأنه: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء- ٤٤].

ثالثا: حركة الأرض في الفضاء

إذن فالأرض كروية ليست تامة الاستدارة فهي منقوص من أطرافها، والمثير حقا أن نرجع إلى استخدام العرب للفظة دحاها: فالبساط حين تطويه ثم تُمسكه من طرفه وتقوم بفرده، فإنه سيتحرك حركة دائرية وحركة طولية، تسمي العرب هذا العمل بدحا البساط، بل لقد ورد أن هناك لعبة يلعبها الصبية في عهد النبوة، وكانوا يسمونها المدحاة[1]، ويصفها الأسدي بقوله: "هي

١ ما زالت هذه اللعبة يمارسها الأطفال في مصر.

Upload by : altawhedmag.com

المداحي والمساوي، وهي أحجار أمثال القرصة [أي مستديرة الشكل]، وقد حفروا لها حفيرة بقدر ذلك الحجر، فيفتحون قليلا، ثم يدحون بتلك الأحجار إلى تلك الحفيرة، فإن وقع فيها الحجر، فقد قمر [أي فاز]"[١] وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر- ٦٧]، ويستطرد ابن تيمية بعد أن أورد حديثا يشرح الآية أن قال: "والحديث مروي في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضه بعضا، وفي بعض ألفاظه، أن رسول الله ﷺ قال، وهو على المنبر: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر-٦٧]...، قال [ابن تيمية]: مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة،.... وهذا يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها كما تُدحى الكرة"[٢].

مما سبق نرى العرب - وهو أيضا ما عبَّر به ابن تيمية - تُعبِّر عن الشيء المستدير الذي يتدحرج بالدحي، وبالتالي نستطيع بسهولة اليوم أن نقول: إن القرآن الكريم وصف الأرض أنها تتدحرج في فلكها، أي تدور حول نفسها، وتلك حركة يتولد عنها الليل والنهار، وحركة ثانية تندفع في مسارها طوليا حتى تعبر فلكها المستدير أيضا، والتي ينتج عنها الفصول الأربعة، وما نقوله اليوم هو ما عليه علماء المسلمين الأوائل.

رابعا: مهمة الجبال في اتزان الأرض

تكرر النص على أن الله تعالى ألقى في الأرض رواسي، ومنها الآيات التالية؛ حيث يقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا، أَإِلَهٌ مَعَ الله ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل- ٦١]، وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان-١٠]، وكذا قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات-٣٢].

---

١ تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي المجلد ١٩ صفحة ٤٠٢

٢ الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦: ٥٦١ - ٥٦٣

Upload by : altawhedmag.com

ولبيان أهمية الرواسي على ظهر الأرض، نقول: إن دوران الأجسام بسرعة كبيرة لا يحقق توازن في حركتها إلا إذا كان مركز ثقل الجسم متطابق على مركزه الهندسي حسب شكل الجسم المتحرك، وهذا يعني توزيع الأوزان عليه بطريقة متجانسة، وإلا انتاب الجسم رعشة وارتجاف واضطراب كبير، وهذا يلاحظه سائق السيارة أحيانا حين يجد عجلة من عجلاتها تتحرك وهي فاقدة الاتزان، فيحدث فيها اهتزازات عنيفة تزداد مع السرعة، فيذهب بهذه العجلة إلى الإصلاح، حيث يتم تجربة دوران العجلة، وتحديد الموضع الذي يحتاج إلى لصق قطعة من الرصاص، فيحدث انتقال لمركز ثقل العجلة إلى مركز الدائرة وبالتالي تنتهي هذه الاهتزازات وتزول هذه الاضطرابات.

فما بالك والكرة الأرضية تتحرك بسرعة هائلة في فلكها، وفي نفس الوقت نجد الأوزان موزعة عليها بشكل مختلف وغير مطرد؟!؛ فهنا بحر، وهناك جبل، وهذا وادي ومنخفض، وتلك قمم شامخة، وهكذا، وبالتالي تحتاج الأرض إلى مجموعة من المثاقيل والأوزان يتم توزيعها على الأرض حتى تنتظم الأوزان عليها ويعود مركز ثقلها إلى مركز الكرة الأرضية، فأصبحت الجبال رواسي لتؤدي هذه المهمة، ومن المعلوم بعد الاكتشافات الحديثة أن هناك قشرة يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة كيلومترات فوق سطح البحر تسمى الغلاف الجوي، هذا الغلاف الجوي هو الذي يضم غاز الأوكسجين أحد العناصر المهمة في الهواء، ومن الثابت أن نسبة الأوكسجين تقل مع الارتفاع؛ ولهذا يعتاد من يسكنون الجبال على نسب أقل من الأكسوجين، ويحتاج الطيارون إلى دعم بالأوكسجين إذا زاد ارتفاع الطائرة عن ثلاثة أو أربعة كيلومترات، ولم تغب هذه الحقيقة على القرآن، بل أشار إليها بشكل واضح حين يقول: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّـهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام-١٢٥]، فضيق صدر من يصعد في السماء واقع علمي كان يجهله أهل مكة آنذاك كما أن هذا الغلاف الجوي يحتاج لمن يربطه بالأرض أثناء دورانها بهذه السرعة الفائقة، وإلا تناثر في الفضاء وفقدناه من زمن بعيد، وهنا يشرح لنا القرآن وظيفتين عظيمتين للجبال هما:

١. ربط الغلاف الجوي بسطح الأرض والمحافظة عليه بحيث يدور مع الأرض حيث دارت.

Upload by : altawhedmag.com

٢. نظرا لأن باطن الأرض مجموعة من حمم المعادن المنصهرة، يغلفها القشرة الأرضية، فإن هناك احتمال أن تنزلق القشرة على هذه الحمم، فلابد من الوظيفة الثانية وهي تثبيت القشرة الأرضية بشكل كامل فوق باطن الأرض المنصهر.

ويؤكد القرآن أن الجبال هي التي تتولى هذه المهام، قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ-٧]، والعرب يعرفون أن الوتد هو الذي يثبتون فيه الخيمة في الصحراء، ووجود جزء من الوتد داخل الأرض يمنع طيران الخيمة، وهذا ما تفعله الجبال بواسطة الجزء الظاهر منها؛ فبه يتم إبقاء الغلاف الأرضي ملاصق لسطح الأرض، أما مهمة الجزء الغائر من الجبل في باطن الأرض، فيقوم بتثبيت القشرة الأرضية مع الحمم البركانية والمعادن المنصهرة في جوف الأرض، وبالتالي يمنع انزلاق قشرة الأرض إلى باطنها.

ويبقى أمر مهم ألا وهو ديناميكية الحركة على سطح الأرض، فالإنسان يشق الترع، ويردم البرك، ويزيل الهضاب، ويبني المدن، ويقيم السدود، ومن جهله يجري تفجيرات نووية، وأخرى هيدروجينية، وهو بذلك يغير من مركز ثقل الأرض، وكان من المفروض أن تنتاب الأرض اهتزازات كما يحدث لعجلة السيارة إذا فقدت الاتزان، إلا أن القرآن الكريم يقرر علاج هذه الظاهرة بشكل واضح، ولا تكفي الزلازل لتعيد كل الاتزان المفقود، والمفاجأة التي أثبتها العلم الحديث أخيرا في القرن الحالي أن الجبال تتحرك؛ فقد رصد العلماء الجبال رصدا دقيقا، وعلى مدار سنوات متتالية، وأثبتوا أن الجبال تطفو فوق باطن الأرض المنصهر، وكلما أكلت عوامل التعرية قمم الجبال، فإن الجبل بكامله يطفو إلى أعلى، ويصاحب هذا الطفو تحرك رأسي وأفقي بمعدلات بطيئة جدا لا تدركها العين المجردة، وإنما تشعر بها الأجهزة الدقيقة، وبالرغم من بطء حركة الجبال إلا أن ثقل وزنها، يجعل لهذا التحرك أثره الفعال في إعادة اتزان الأرض، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل-٨٨].

خامسا: الأرض ذات الصدع

عندما نزلت سورة الطارق، وسمع المسلمون قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق-١٢]، كان التفسير المتبادر إلى الأذهان، هو طبيعة الأرض التي تنصدع للبذور

Upload by : altawhedmag.com

وتتعهدها بالرعاية حتى تثمر، أما فهمنا اليوم فقد استنار بعد أن التقدم العلمي والتقني الكبير، حيث وجد العلماء أن الأرض بها صدع من الشمال إلى الجنوب، وبالتحديد في قاع المحيط الأطلنطي، حيث توصل العلماء بعد سنوات من الدراسة وأخذ آلاف العينات من باطن المحيط الأطلنطي من تصوير صدع يبدأ من شمال الأطلنطي بين أمريكا وأوروبا حتى جنوبه بين أمريكا الجنوبية وأفريقيا، بل هناك نظريات جيولوجية تقول أن الأمريكتين كانتا في يوم من الأيام ملاصقتين لأوروبا وأفريقيا وأن ثمة انفطار كبير قد حدث أدى إلى انفصال الأمريكتين عن أوروبا وأفريقيا، وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية تطابق العينات الجيولوجية المأخوذة على نفس الارتفاع من الشاطئ الشرقي والغربي للمحيط الأطلنطي، مما يؤكد حدوث صدع في القشرة الأرضية أظهر المحيط الأطلنطي بشكله الحالي، واحتفظ في قاعه بآثار هذا الصدع، وهذا ما يقرره القرآن بقوله: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق- ١٢].

سادسا: أخفض بقعة على ظهر الأرض

حدث أثناء بعثة النبي ﷺ أن انتصر الفرس [عبدة النار] على الروم [وهم نصارى من أهل الكتاب] ففرح كفار مكة، وحزن المسلمون[1]، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ يبشره بنصر قريب للروم على الفرس، وما يهمنا في هذا الموضوع مكان المعركة، قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم٢: ٤]، والمعركة دارت في منطقة متاخمة للجزيرة العربية وقريبة من بحيرة طبرية إحدى بقاع أغوار الأردن، وفهمت العرب من قوله ﷻ: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾، أي في أقرب الأرض لجزيرة العرب، وهو فهم صحيح يحتمله النص القرآني لغة وحدثا، إلا أن مكتسبات العلم الحديث أعطتنا معنى أكثر دقة في بيان دلالة اللفظ القرآني على موقع الحدث، وهو ما لم يكن للأولين أن يدركوه في ضوء إمكانياتهم ومعارفهم، فقد تبين أن أدنى الأرض أخفضها وأدناها عن مستوى سطح البحر، وقد عرفنا حديثا بعد الدراسات الجيولوجية أن أعلى بقعة على ظهر الأرض عن مستوى البحر هي قمة جبال الهيملايا بالتبت، وأخفض بقعة في العالم تقع في منطقة البحر الميت التي تنخفض [٣٩٥

١ والقصة معروفة وثابتة في أمهات كتب التفسير، والسيرة، والحديث، وغيرها.

Upload by : altawhedmag.com

مترا] عن سطح البحر، وبذلك يخبرنا القرآن الكريم أن المعركة التي وقعت بين الفرس والروم دارت رحاها في بقعة تعد أكثر بقعة على ظهر الأرض انخفاضا[١].

سابعا: دورة الماء في الأرض

للماء صور متعددة في كوكب الأرض فهو: يملأ المحيطات والبحار، ويتحول بحرارة الشمس إلى بخار يتصاعد ليكوّن السحاب، فتدفعه الرياح وتُلقحه بشحنات كهربية استاتيكية، وتسوقه إلى مختلف البلدان، فتنزل الأمطار صيفا وشتاء، وقد تصطدم السحب بقمم الجبال فتتكثف وتغطيها بالجليد، فإذا أتى الربيع وارتفعت درجة حرارة الجو، ذابت تلك الثلوج، وسالت الأودية بالأنهار، والقرآن الكريم يقرر ذلك حيث يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر-٢٢]، ومن المعلوم أن ماء الأمطار والأنهار يتسرب جزء منه إلى باطن الأرض، ثم يظهر في العيون والينابيع، ويقرر العلماء أن حجم الماء بكل صوره ثابت في الأرض، والذي يختلف هو توزيع الماء على صوره المختلفة، ولا يستطيع البشر أن يحجبوا الماء عن هذه الدورة، ولهذا يتحدى القرآن أن يمنع الإنسان الماء بتخزينه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر-٢٢]، وتشير الآية الكريمة إلى دور الجبال في تكوين الجليد، والذي يتحول في الربيع إلى جداول للماء، يقول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ، وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات-٢٧]، فالماء هو أصل الحياة وسرها الأكبر؛ فلا حياة بغير ماء، وفقد الماء هو انعدام الحياة، وتلك حقيقة يؤكدها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء-٣٠]، إن التأمل السريع[٢] في الآيات التي تتناول موضوعا واحدا وهو الأرض التي

---

١ مقالة افتتاح العدد الثالث من مجلة الإعجاز، وهي مجلة علمية متخصصة تصدرها هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، كتبه الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح أمين الهيئة ورئيس التحرير.

٢ من أراد المزيد من المعلومات عن إعجاز القرآن فليطالع ما كتب أبحاث الإعجاز العلمي في مجالات علم الأجنة، وعلم البحار، والفلك، والطب، والآثار التاريخية، منها كتب ومنشورات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وما كتب في الإعجاز الطبي للصيام، وفي الناصية، والبرزخ بين البحرين، ومجلة الإعجاز، وكذلك مؤلفات د. الزنداني، و د. موريس بوكاي التي قارن فيها بين التوراة، والإنجيل، والقرآن في ضوء المعارف الحديثة، وخلص فيها إلى اتفاق القرآن والعلم الحديث، بعكس التوراة والإنجيل، ولا شك أن ما قدمه العلامة الدكتور زغلول النجار يعد أشمل ما ظهر من ثمار هذا الإعجاز،=

Upload by : altawhedmag.com

نعيش عليها، كفانا مئونة الاسترسال في بيان الحقائق، وصور الإعجاز القرآني الذي لا مجال لإنكارها، وأعتقد أن القارئ الكريم قد تأكد معنا من اجتياز الآيات القرآنية لقدرات البشر وعبورها المعجز لبلاغة الناس، وهذا يؤكد أن القرآن الكريم كتاب يفوق طاقة البشر على الإتيان بمثله، فهو من لدن عزيز حكيم، وبالتالي تأكد لدينا أن خالقنا جل شأنه قد خاطبنا من خلال القرآن وعلى لسان رسوله محمد ﷺ، فإذا تعهد الخالق ﷻ بحفظ القرآن الكريم من التحريف، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر-٩]، فهو كتابه الخاتم ورسالته النهائية للبشر، كما أنه ضمن لنا أن لا يتحدث رسوله من نفسه أو برأيه، وإنما ينطق عن وحي ربه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم٣: ٥]، فقد عُرِف النبي ﷺ بين قومه بالصادق الأمين قبل بعثته بسنوات، وثبت أنه كان في بعض الأحيان يمازح أصحابه، ولا يقول إلا حقا وصدقا، فالإسلام دين كل الصادقين من الأنبياء والمرسلين، وهو الدين والشِرْعَة والمنهاج الذي ارتضاه الحق تبارك وتعالى للناس أجمعين، والذي خُتم ببعثة سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وهذا ما يقوله أتباع ملة الإسلام.

=خاصة ما فسر به قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، وإنزال الحديد من السماء، وطبيعة الحجر الأسود، فنسأل الله أن يطيل في عمره وينفع به وبعلمه.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الخامس

أهناك بعث بعد الموت؟

لا بد لنا من الإيمان بالبعث والنشور، ولا بد من الثواب والعقاب، وإلا أصبحت الحياة عبثا لا معنى له، ولن نناقش ما وراء البعث من منظور الكتاب والسنة، وإنما سنحاول أن نثبت لمن لا يصدق بالآخرة بحجة عقلية بسيطة، وليسمح لي القارئ الكريم أن أقص عليه واقعة حدثت معي شخصيا، فقد سألني رجل أمريكي الجنسية، يعيش حياته بالطول والعرض كما يقولون، وغايته القصوى الاستمتاع من الملذات وسع الطاقة، وفوجئت به يقول لي: كيف تصدق بوجود بعث بعد الموت، وجنة ونار؟ ثم يقول عن نفسه: أنا لا أصدق بهذه الآراء، ولو صدقتها لكان مسلكي في حياتي مختلفا، فهل تستطيع أن تجعلني أتصورهما؟

بالطبع لم يكن عندي إجابة، فهذا سؤال غير مطروح في كتب العلم، إلا أنني وجدت الإجابة التالية مباشرة: قلت له: "دعنا نتصور حوارا سنجريه أنا وأنت مع حيوان منوي، حيث سنصف له رحلته من صلب الأب إلى رحم الأم، قائلين له: أتعرف وزنك؟ وحجمك، وسرعة حركتك مع اندفاع القذف؟ إنك ستنتقل إلى مكان حجمك الآن أضعاف حجمه عدة ملايين من المرات، وستلتقي مع بويضة، وتختلط بها، ثم سيحدث لك انقسام بمعدلات كذا وكذا، وستمكث فترة كذا من الزمان حتى تزرع في جدار الرحم، ثم تمر بك مراحل كذا وكذا طوال فترة حمل الأم، ثم تخرج إلى دنيا، حجمها كذا ترليون ترليون... مرة قدر الحجم الذي قد كنت فيه، وستجد في هذه الدنيا ألوان الطيف، وترددات ونغمات، وأصوات، ولغات، وثقافات وحضارات، ثم تتسع مشاعرك فتعرف الخوف، والأمان، والحب، والحنان، والغدر، والوفاء، والصحب والخلان،... أتراه يصدق ما نقوله له، مع أننا جميعا مررنا بتلك المراحل، فأجاب الرجل قائلا: لا يمكن له أن يصدق، قلت له: فكذلك أنت، فأنت حين تدخل القبر فإنك في الحقيقة كالحيوان المنوي حين دخوله إلى رحم الأرض، فهناك ستجري مراحل عديدة، أهمها خلع ثياب الدنيا، ثم التهيؤ لارتداء ثياب الآخرة التي ستبعث فيها في عمر كذا، وحجم كذا، وستعرض أعمالك، ويقاس إيمانك وتصديقك، ويوزن ما قدمت أو أخرت، ثم تنتقل إلى دار الكرامة إن كنت مؤمنا صالحا، فترى فيها القصور تجري من تحتها الجداول والأنهار، ثم جنات

Upload by : altawhedmag.com

فيها صور النعيم، وما لا عين رأت، أو أذن سمعت، أو خطر على قلب بشر،... وإن كنت طالحا كافرا بـ"نعم" من سوالك، فالنار مثوالك، وعذاب الهون في انتظارك، وخلودك فيها جزاء عادل لعدم تصديقك بمن خلقك، وغفلتك عن خدمته لحظة في حياتك".

كم كان الرجل مشدوها للإجابة، متأثرا بها، إلا أن هدى الله هو الهدى، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومن غلبت عليه شقوته، لا ينفعه القول ولو كان حقا، ولن تبدله كلمات ولو كانت هي آخر ما سيسمع، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فالإسلام يقدم شريعته على أنها أكمل وأتم مدرسة فكرية تستنير بهديها العقول، وأعظم شريعة يسعد بها الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، تقوم على أساسها الحضارات، وتحقق التنمية الاقتصادية الإسلامية، والمجتمع يرتع أفراده بين ربوعه، شعاره العدل والمساواة للجميع بين يدي الحاكم والمحكوم، لا فضل لجنس على جنس، ولا يتميز أفراده عنصريا، أو قبليا، أو يطغى فيه الغني بماله، أو القوي بقوته، أو الحاكم بسطوته، أو يضيع فيه الضعيف والفقير بضعفه وحاجته.

فالإسلام يقدم المنهج الواضح الذي يقرر أسلوب التعامل مع الخالق، ويحدد تعامل الفرد مع جماعة المسلمين، وتصرفات المرء في أسرته مع أبويه، وزوجته، وأولاده، وجيرانه، وزملائه، ويقرر تعامل المسلم مع من خالفه في العقيدة، وإلى أسلوب دعوتهم إلى هذا الدين، ولا يترك هذا الدين صغيرة ولا كبيرة من أمور العبادات، والمعاملات، والعادات إلا ويقرر لها ما يصلح النَّاس أفرادا وجماعات.

ولا يهدف كتابنا هذا إلى الحديث عن عظمة الإسلام كدين خاتم، وإنما يهدف إلى اقتباس نور من أنوار هذا الدين الذي ارتضاه لنا رب العالمين للإجابة على ما طرحناه من تساؤلات، حتى يوضح لنا كيف يسلك المرء إلى ربه على هدي هذا المنهج القويم، وبذلك نستكمل سلسلة كتبنا عن الظاهر والباطن، عسى الله تبارك وتعالى أن يجعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة.

وليس أمامنا بعد أن تأكدنا أن الإسلام هو الدين الخاتم إلا أن نبحث عن إجابة كل التساؤلات التي طرحناها في الفصل الأول من هذا الباب في أطروحة هذا الدين الخاتم، ونشرع بتوفيق الله تعالى في الحديث عن بدء هذا الأمر، ومتى كانت بداية هذا الكون؟

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الأول

- هناك بعض التساؤلات الأساسية التي لا تنفك عن الإنسان ولا تتركه؛ مثل: ما العالم؟ وما الإنسان؟ ومن أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ وما الهدف منهما؟ وكيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟
- ومن هنا يثور سؤالا هامًا: هل من خالق لهذا الكون، وما الذي يدفعنا للتفكير في هذا الاتجاه.
- وإن كان هناك خالق لهذا الكون، فهل بإمكاننا تلقي أوامره مباشرة، أم لا بد من تلقي أوامره ونواهيه بواسطة أحد من خلقه، وما السبب في ذلك؟
- النَّاس بين رجلين: مُؤمن مصدق وكافر مكذب: الأول مُؤمن يعتقد بوجود خالق لهذا الكون، والثاني كافر لا يرى للكون خالقا، وهو يقنع نفسه بأي نظرية، أو فلسفة تؤكد ذلك.
- إن آيات الله ﷻ في الآفاق كثيرة لا حصر لها، وقد تناول القرآن الكريم الكثير منها بإيجاز علمي سابق لعلماء العصر الحديث بعدة قرون.
- من هذه الآيات والإشارات التي ذكرها القرآن الكريم والتي يظهر فيها الإعجاز العلمي للقرآن: كروية الأرض، ودحوها كالبيضة، وحركة الأرض في الفضاء، وإشارة القرآن إلى أن أرض الفرس أدنى بقعة على ظهر الأرض، وغير ذلك من أدلة الإعجاز.
- ثم ننتقل إلى نقطة هامة بعد إثباتنا وجود إله لهذا الكون، وهي جدوى وجود البعث والحساب والجزاء واليوم الآخر، وما الداعي لتصديق وجود ذلك، ثم مناقشة ذلك عن طريق الدليل العقلي بواقعة شخصية للمؤلف.
- الإسلام يقدم المنهج الواضح الذي يقرر أسلوب التعامل مع الخالق، ويحدد تعامل الفرد مع جماعة المسلمين، وتصرفات المرء في أسرته مع أبويه، وزوجته، وأولاده، وجيرانه، وزملائه، فهذا الدين لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أمور العبادات، والمعاملات، والعادات إلا ويقرر لها ما يصلح النَّاس أفرادا وجماعات.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الثاني

مراتب الوجود

١. كان الله ولا شيء معه

٢. خلق الملإ الأعلى

٣. أنواع المخلوقات

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

كان الله ولا شيء معه

كيف كانت البداية؟ سؤال كفانا مئونة إجابته وفد من أهل اليمن حين قدموا على رسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال ﷺ: كان الله ولم يكن قبله شيء، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء﴾[1]، إذن فأول هذا الأمر أنه كان الله ولم يكن شيء قبله، ولا شيء معه.

لما أراد الحق تبارك وتعالى أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، حيث يقول: ﴿كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء﴾[2]، ولهذا كان القلم أول خلق لله تبارك وتعالى، يقول رسول الله ﷺ: ﴿إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: ما أَكتب؟ قال: اكتب القدر، ما كان، وما هو كائن إلى الأبد﴾[3]، وبهذا المعنى وردت عدة أحاديث تقرر أن أول المخلوقات هو القلم، وأن الله ﷻ أمره أن يسطر علمه الإلهي ومراده من خلقه إلى الأبد، وأنه سبحانه خلق الماء والعرش، ثم السموات والأرض، ثم استوى على العرش.

فأول هذا الأمر كان الله ﷻ أزليا لا شيء قبله، ولا شريك ولا وزير بين يديه، ولا مشير يشير عليه، وينسب لعلي بن أبي طالب أنه قال: "[إن الله] ليس من شيء، إذ لو كان من شيء لكان مخلوقا، وليس في شيء إذ لو كان في شيء لكان محصورا، ولا فوق شيء إذ لو كان فوق شيء لكان

---

١ حديث عمران بن حصين أخرجه البخاري في بدء الخلق حديث ٢٩٥٣، والترمذي ٣٨٨٦، وأحمد ١٨٩٨١، ١٩٠٣٠، ١٩٠٤٠،

٢ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه مسلم ٤٧٩٧ والترمذي ٢٠٨٢، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأحمد ٦٢٩١

٣ حديث عبادة بن الصامت رواه الترمذي ٢٠٨١، ٣٢٤١، وقال: حسن صحيح غريب، وأبو داود ٤٠٧٨، وفي الباب عن ابن عباس، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٩: ١١، وأبو يعلى في مسنده، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٢٧١، وصححه الألباني في الصحيحة حديث ١٣٣، تحت باب أول مخلوق.

Upload by : altawhedmag.com

محمولا، وليس تحت شيء إذ لو كان تحت شيء لكان مقهورا، سبق في العلو فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدُنو فلا شيء أقرب منه، فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قُربه ساواهم في المكان به"[١].

وهذا المعنى نقبله بما لا يتعارض مع إثبات استواء الله على عرشه، مع تفويض الكيفية له تعالى وحده.

سبحانه خلق الزمان والمكان، أدار الكواكب وسيَّر الأفلاك، فنتج عن دورانها تتابع الليالي والأيام، ولا يُقال لخالق الزمان: متى كان؟ ولا يُسأل خالق المكان: أين كان؟ وإن سألت عن ذاته أجابك سبحانه قائلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ۞ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى١١-١٢]، وإن سألت عن صفاته أجابك قائلا: ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ۞ الله الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص١: ٤]، وإن سألت عن أسمائه أجابتك آياته: ﴿هُوَ الله الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ الله الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْـمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْـمُؤْمِنُ الْـمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْـمُتَـكَبِّرُ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ الله الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْـمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر٢٢: ٢٤]، و الحديث الشريف الذي أنبأنا به الرسول الكريم ﷺ عن رب العزة، يقول: ﴿إن لله ﷻ تسعة وتسعين اسما، مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة﴾[٢].

وإن سألت عن أفعاله، فالجواب أنه:﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن- ٢٩]، يرفع أقواما ويخفض أقواما، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، بيده مقاليد السموات والأرض، يدّبر الأمر، سبحانه هو الحي القيوم لا تأخذه سِنة ولا نوم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير، ﴿مَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾، ولا يسبحه أحد من خلقه

١ من الكلام المنسوب لعلي بن أبي طالب ﷺ نقلا عن نهج البلاغة.

٢ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٢٣٥١، ٥٩٣١،٦٨٤٣، ومسلم في صحيحه كتاب الذكر حديث ٤٨٣٥، ٤٨٣٦، والترمذي ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٣٤٣٠، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه ٣٨٥٠، ٣٨٥١، وأحمد ٧١٨٩، ٧٣٠٤، ٧٧٩٩

Upload by : altawhedmag.com

حق تسبيحه، حجابه النور لو كشفه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره، جل شأنه وعظم أمره، وعز جاهه.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

خلق الملإ الأعلى

كان الله ولا شيء معه، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر ما كان، وما سيكون إلى ما شاء سبحانه، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت١١: ١٢]، ولما خلق سبحانه السموات سواهن سبعا طباقا، وعمرها بالملائكة، وخلق الجنة والنار، والصراط والميزان، وسدرة المنتهى، وكل ما خلقه الله سبحانه في السموات يسمى بالملإ الأعلى، ثم جعل القمر في السماء الدنيا نورا وضياء، والشمس سراجا وهاجا، وخلق الأرض وبقدرته دحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وألقى فيها الجبال رواسي حتى لا تميد بالنَّاس وتضطرب حركتها، ثم جعل فيها صنوف الدواب والأنعام، فأصبح في الأرض جماد، ونبات، وحيوان، ثم خلق سبحانه الجن واستعمره في الأرض قبل خلق آدم.

ولكل مخلوق مهمة وتكليف تحددها الآيات التي سنتناولها بشيء من التفصيل، ويمكن أن نقسم المخلوقات إلى نوعين: مخلوقات نراها بالعين، ومخلوقات محجوبة عن بصرنا، وغير مرئية لعيننا المجردة، سواء لصغر حجمها، أو لشدة بعدها، وقد نستطيع رؤية بعضها بوسائل تقنية كالميكروسكوب أو التليسكوب، أو أنواع الأشعة وكل تلك المخلوقات تعد جميعا من عالم المُلك، أما ما لا نستطيع رؤيته كالملائكة، والجن، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، وما إلى ذلك، فهي من عالم الغيب، ونتناول – بتوفيق الله تعالى – بيان مهام الملائكة قبل أن نتعرض بشكل تفصيلي للإنسان وكونه المؤهل للخلافة.

Upload by : altawhedmag.com

أولا: الملائكة والمهام العظام

يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس-٨٢]، ويقول رسول الله ﷺ: ﴿خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِف لكم﴾[1]، فكان أن خلق الله تبارك وتعالى الملائكة وصورها في أبهى صورة من النور، وخلق الجان وصوره بقدرته من النار، ومن الطين أبدع البشر بمراحل متتابعة كما ورد في محكم التنزيل، وللملائكة مهام عديدة ومتنوعة، أغلبها يدور في الملإ الأعلى، ومنهم من أنزله الحق سبحانه لمهام محددة في الأرض، وجعل سبحانه طبيعة الملائكة من أنقى الطبائع وأطهر العناصر.

وقد خلط كثير من الغلاة ومحدودي العلم بين النور الذي خُلقت منه الملائكة، وبين نور ذات الخالق جل علاه، أو فيض النور من حياض الجبروت كما يزعمون، واستندوا بغير علم إلى قوله تعالى في مريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء- ٩١]، فتصوروا النفخ بصورته المادية ونسبوه لله ﷻ، وبذلك اعتبروا أن جزءا من ذات الله تعالى اختلط بالملائكة حاش لله، أو أن الروح نفخة إلهية، ترفع ابن آدم إلى مستوى حمل أسرارا باطنية، وهذا فهم غير صحيح، بل إنه خطير في النتائج المترتبة عليه، فالأمر ببساطة أن النور الذي خُلقت منه الملائكة هو أحد العناصر التي أوجدها سبحانه كما أوجد الظلمة، وحين صُوِّرت الملائكة بأمر "كن"، خلقها الله تبارك وتعالى من ذلك النور المخلوق، ثم جعل منهم جماعات كثيرة، وأوكل لكل منها دورا محددا، منها كما يلي:

١. حملة العرش:

من أشرف مهام الملائكة أن يكونوا حافِّين حول العرش، وربهم يصفهم بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْـمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر-٧٥]، ويقول جل شأنه: ﴿وَالْـمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة-١٧].

---

١ حديث عائشة أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد ٥٣١٤، وأحمد في مسنده ٢٤٠٣٨

Upload by : altawhedmag.com

٢. أمين الوحي:

يصطفى الله ﷻ من ملائكته رسلا، كما يختار ويجتبي من البشر أنبياء ومرسلين، قال تعالى: ﴿الله يَصْطَفِي مِنَ الْـمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج-٧٥]، وقد اصطفى من الملائكة أمينا للوحي ينقل وحيه ورسالاته إلى أنبيائه ورسله، وحيث أن الملائكة خُلقت من النور، فهو يناسب الحياة في الملإ الأعلى، بعيدا عن ترابيات الأرض، وهم لا يتأقلمون طويلا مع طبيعة كوكبنا الأرضي، ويشير إلى هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء-٩٥]، وقد اقتضت حكمته تعالى أن يتنزل الملائكة لفترات زمنية قصيرة أو طويلة ولمهام محددة، قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم-٦٤]، حتى الحفظة الذين يحفظون البشر، ومن يدونون أفعالهم حسناتهم وسيئاتهم، فإنهم يمكثون على ظهر الأرض طوال حياة ابن آدم، فإذا قبر عادت إلى الملإ الأعلى، وموطنها الأصلي الذي منه تنزلت.

ومن ثم جاء دور أشرف الملائكة وهو أمين الوحي جبريل عليه السلام، فقد اصطفاه الله سبحانه، واختاره رسولا بينه وبين أنبيائه ورسله، يبلغهم رسالات ربهم، ويؤيدهم بما يأذن به من الآيات والمعجزات، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٩٧-٩٨]، وهو المُكلف أيضا بخسف الطغاة وإهلاك الجبارين والكافرين؛ لذلك كان اليهود يكرهونه، ولذلك نزلت الآيات السابقة لبيان مكانته عند ربه.

وجبريل عليه السلام أقرب الملائكة إلى ربه ﷻ، ولذلك جاءت الأوصاف القرآنية التي تصفه بما لم يوصف به غيره من الملائكة، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير ١٩: ٢١]، وسماه الروح؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْـمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ-٣٨]، ومن أسماء جبريل عليه السلام أيضا روح القدس، ويُعرف عند أهل الكتاب بالناموس الأكبر، وهو الموصوف في القرآن الكريم بأنه شديد القوى في قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم ٥-٦]، كما ورد في تفسير القرطبي وغيره: "قال الماوردي: إن جبريل وميكائيل اسمان؛ أحدهما عبد

Upload by : altawhedmag.com

الله، والآخر عبيد الله؛ لأن لفظ "إيل" يعني الله تعالى، وجبر بمعنى عبد، وميكا أي عبيد؛ فكأن جبريل بمعنى عبد الله، وميكائيل عبيد الله؛ هذا قول ابن عباس، وليس له في المفسرين مخالف، قلت: وزاد بعض المفسرين: وإسرافيل عبد الرحمن".

٣. الملك الموكل بالأرزاق:

ذكره القرآن واسمه ميكائيل، أو ميكال عليه السلام، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة- ٩٨]، وهو يسوق أسباب الرزق إلى العبد حسب مشيئة الحق سبحانه.

٤. ملك البعث:

هناك ملك أقامه الله عز وجل وخصه بأمر البعث، فهذا الملك هو الذي ينفخ في الصور يوم البعث حين يأذن ربنا تبارك وتعالى بالمثول بين يديه، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر- ٦٨]، كما أن هناك مَلَك مكلف بنفخ الروح في الجنين في بطن أمه عندما يكتمل نموه أربعة أشهر، وقد دلت الأخبار الصحاح أن ملك النفخ هو سيدنا إسرافيل عليه السلام، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿اللهم رب جبريل وميكايل وإسرافيل أعوذ بك من حر النار وعذاب القبر﴾[1]، وكان رسول الله ﷺ يستفتح صلاته بهذا الدعاء: ﴿اللهم رب جبريل وميكايل وإسرافيل فاطر السموات والأرض أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم﴾[2].

٥. العابدون من الملائكة:

وينسب إلى علي بن أبي طالب أنه وصف عمل كل من الملائكة بقوله أن منهم: "سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم

---

١ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

٢ حديث عائشة أخرجه مسلم حديث ١٢٨٩، والترمذي ٣٣٤٢، والنسائي ١٦٧، وأبو داود ٦٥٣، وابن ماجه ١٣٤٧، وأحمد.

Upload by : altawhedmag.com

العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان"[١]، وقد استقى علي ﷺ هذه الصفات من القرآن الكريم، كما يلي:

- **المسبحون**: الذين يطيعون الله ولا يعصونه، ولا يستكبرون عن عبادته، ولا يفترون عن ذكره قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف- ٢٠٦]، ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل ٤٩-٥٠]، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء ١٩-٢٠]، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت- ٣٨].
- **المسبحون من خشيته سبحانه**: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد- ١٣].
- **المسبحون المستغفرون لأهل الأرض**: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى- ٥].

٦. ملائكة الجنة:

لم يرد في القرآن أو الحديث ذكر خازن الجنة، بينما يشتهر بين النَّاس أن رضوان ﷺ هو اسمه، وأورد اسمه ابن القيم في كتابه حادي الأرواح، حيث قال: " وقد سمى الله سبحانه كبير هذه الخزنة: رضوان، وهو اسم مشتق من الرضا"[٢]، ويتبعه مجموعة من الملائكة أشار إليهم الحق بقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد٢٣-٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر- ١٧٢].

---

١ نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب ﷺ.

٢ صحيح حادي الأرواح لابن القيم تحقيق د. عبد الحميد الدخاخني ٩٦

Upload by : altawhedmag.com

٧. ملائكة النار:

وعددهم تسعة عشر ملكا، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۞ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً﴾ [المدثر٣٠-٣١]، وجاء في وصفهم قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم-٦]، وعلى رأسهم مالك عليه السلام، قال سبحانه: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف-٧٧].

٨. ملائكة الموت:

ورد في كتب الفقه والتفسير[١] كما اشتهر بين النَّاس أن اسم مَلَك الموت هو عزرائيل عليه السلام، فقد ورد عن أشعث، أنه قال: "سأل إبراهيم ﷺ ملك الموت واسمه عزرائيل،..."[٢]، والله أعلم، وقد نص القرآن على وظيفته دون اسمه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْـمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة-١١]، وملك الموت له أعوان من الملائكة تشير إليهم الآية الكريمة: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام- ٦١]، وفسر قتادة قوله تعالى:﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ بقوله: تلي الرسل قبضها [أي الروح]، ثم تدفعها إلى ملك الموت" قال معمر بن راشد وغيره: "إن ملك الموت يلي ذلك [أي قبض الروح]، فيدفعه إن كان مؤمنا إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافرا إلى ملائكة العذاب"[٣]، ويمكن وصف ملائكة الموت حسب صلاح من يقبضون روحه، كما أشارت إلى ذلك الآيات:

---

١ تفسير سورة السجدة للقرطبي وابن كثير، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام الجزء الثاني، فصل فيمن سب الله تعالى أو الملائكة، وكتاب مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر الجزء الأول، والفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، حيث ورد اسم ملك الموت عزرائيل عليه السلام، وقال المؤلف، وقيل: عبد الجبار، وأيضا في كتاب فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، فصل سب عزرائيل، وأيضا الموسوعة الفقهية الصادرة عن وزارة الأوقاف الكويتية.

٢ رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة صفحة ١٦٠ الخبر رقم ١٥: ٤٤٥، كما أورد عن وهب بن منبه، قال: "ثم قال الحق سبحانه: كن فكون عزرائيل،.... إلى آخر الأثر رقم ١١: ٤٤١

٣ رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة صفحة ١٦٠ الخبر رقم ٢٥: ٤٥٥

Upload by : altawhedmag.com

٩. ملائكة العذاب:

وهم المكلفون بقبض أرواح الظالمين ولهم معاملة خاصة بالعصاة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَـرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْـمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال-٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِـمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْـمَوْتِ وَالْـمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام-٩٣]، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح، فيقولون: "اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله ﷻ، فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار"[١].

١٠. ملائكة الرحمة:

وتصفهم الآيات بأوصاف تختلف تماما عن ملائكة العذاب، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْـمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّـةَ بِمَا كُنْتُـمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل-٣٢]، وفي الحديث الشريف، يقول النبي ﷺ: ﴿إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك، إلى روح الله وريحانٍ ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتون به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه، يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه، فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذُهب به إلى أمه الهاوية﴾[٢].

١١. قائمون على أمر الله:

وهنا تتعدد الأوامر الإلهية للملائكة، ويضرب القرآن الكريم أمثلة لأوامر الله تعالى التي يُكلف بها طوائف مخصوصة من الملائكة، منها:

- **ملائكة النصر والتأييد**: وهم ملائكة يمد الحق بهم أنبياءه وعباده الصالحين - فرادى وجماعات - وهم القائمون على تثبيت المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْـمَلائِكَةِ أَنِّي

١ حديث أبي هريرة رواه النسائي في الجنائز.

٢ حديث أبي هريرة رواه النسائي في الجنائز حديث ١٨١٠

Upload by : altawhedmag.com

مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال- ١٢]، أما النصر فمن عند الله، فمن مهام الملائكة أن يثبتوا أهل الإيمان في صدامهم مع عناصر الكفر وجحافل الظلام، ففي يوم بدر تجلى هذا الأمر واضحا، حيث لا تسمح سنة الحق تبارك وتعالى بهزيمة جيوش النور، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء- ١٤١]؛ لذلك جاءت البشرى صريحة يوم بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلاف مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ الله إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران١٢٤: ١٢٦]، ولا يتوقف الإمداد الإلهي عند حد القتال في المعارك حتى يطمئن قلوب الصالحين من عباده، ولكن الأمر يمتد أثره إلى وقت السلم، حيث يجاهد المؤمنون أنفسهم، وشهواتهم، وشيطانهم، ودنياهم، وهذا أمر عسير إلا على من يَسره الله له، وهذا التيسير يكون بفضل الله تعالى، وإمداده بالملائكة المكلفين بذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت٣٠: ٣٢].

- **الموكلون بحفظ الإنسان**: نظرا لمكانة ابن آدم في الأرض، فقد أوكل الله تعالى به مجموعة من الملائكة تحفظه قائما وقاعدا وفي جميع هيئاته وحركاته، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله﴾ [الرعد-١١]، وهذه الملائكة لا تحفظ فقط الإنسان ككل، وإنما تحفظ أعضائه المختلفة أيضا، بما يوفر حماية خاصة للبشر، سواء من شرور الشيطان ومكره، أو من أذى أعوانه، أيضا من مكر باقي المخلوقات إلا بإذن الله، يقول سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق-٤]، هذا الحفظ يشمل عمر الإنسان إلى أن يأذن الله تعالى بقبض روح العبد، فإذا أرسل سبحانه ملائكة الموت، تخلّت حينئذٍ ملائكة الحفظ، وتركت ابن آدم ليلقى ربه، ويُحاسب على ما قدمت يداه، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام- ٦١].

- **كتبة أعمال الإنسان**: خصص الله ﷻ لكل إنسان اثنين من الملائكة يدونون أعماله، ولكل منهم صحيفة يسجل فيها: عن اليمين مسئول عن تدوين الحسنات، وعن الشمال من يكتب

Upload by : altawhedmag.com

السيئات، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار ١٠: ١٢]، وقد يُفهم من هذه الآية أن ملائكة الحفظ هم أنفسهم الذين يدونون أعمال العبد، وربما كانوا غيرهم - والله أعلم بمراده -، وقد جعل الحق سبحانه لهذا التسجيل أسلوبا يتسم بالرحمة والحلم على العبد، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق ١٧-١٨]، فهم يتلقون أعمال العبد، وملك الحسنات له القيادة، وملك السيئات هو القعيد، فلا يُبادر بكتابة الذنب بل يُمهل العبد؛ فقد يندم، أو يستغفر، أو يرجع، فإن فعل فلا يكتب في صحائف العبد شيئا، أما ملك الحسنات فيبادر إلى تسجيل خيرات العبد وأفعاله الحسنة.

- **الموكلون بأحوال العالم**: ومنهم المرادون بقوله الحق سبحانه: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۞ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۞ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات١: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات١: ٤]، ومن مهامهم تسيير السحاب والفلك في البحار، وغير ذلك من المهام المتعددة.

يتضح لنا من هذا العرض القرآني مهمة الملائكة ودورها في الكون والتكاليف التي تقوم بها، فهم قائمون بالعبادة كاملة، وتراهم يُسبحون الليل والنهار: لا يسأمون، ولا يَفْتُرون، ولا يستحسرون، ومن خشية ربهم مشفقون، وهم له ساجدون لا يستكبرون، ولا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، ويخافون ربهم ويفعلون ما يؤمرون، ومع هذا القدر الكبير من العبادة، إلا أن كلا منهم قائم على تكليف محدد، وشأن معلوم، ومهمة خاصة لا ينتقل إلى غيرها، فَكَتَبة الأعمال لا يقبضون الأرواح، ومن يسوق الرزق، لا دخل له بالنفخ في الصور، وهؤلاء لا شأن لهم بأسباب الرزق، وهذا يؤكد لنا تخصص الملائكة؛ ولذلك قرر القرآن على لسان الملائكة قولهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات- ١٦٤]، كما قرّرت الملائكة نفس المعنى يوم السجود لآدم، حيث: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة- ٣٢]، ومن هنا جاء الأمر بالسجود لآدم الذي تميز عن الملائكة باتساع دائرة علمه حتى أنه أنبأهم بأسمائهم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة- ٣٣].

Upload by : altawhedmag.com

ثانيا: خلق الجن

الجن اسم جنس لبني الجانّ، كما أن الإنس اسم جنس للإنسان، وقالوا: الجانّ اسم أول مخلوق من الجن، ويظن بعض الناس أن الجن كان في أول أمره طائفة من الملائكة، وهذا اعتقاد خاطئ، فعن الحسن البصري، أنه قال: "لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين، وكان أبا الجن كما أن آدم أبو الإنس"[1].

فالجانّ كآدم بين البشر، وقد خلقه الله ﷻ من نار السموم قبل أن يُخلق آدم، لقوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر- ٢٧]، وقد وردت الأخبار أن الله تعالى استعمرهم في الأرض قبل خلق الإنسان بخمسة آلاف سنة، أقامهم الله في الأرض، وكلفهم بطاعته وعبادته بنفس الأسلوب الذي اختص به الإنس بعد ذلك؛ ولذلك قرن ﷻ عبادة الجنّ والإنس في تكليف واحد، مما يدل على وحدة المهمة لكل منهما، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات- ٥٦]، وقد أطلق الله تعالى اسم الثَّقَلين على الجنّ والإنس - وهما المكلفان اختيارا منهم وليس قهرا لهم- في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن- ٣١]، والجن كما علمنا خُلقوا من النار، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن- ١٥]، وهذا يظهر لنا اختلافا جوهريا بين طبيعة الجنّ والإنس، فالجن خلقٌ وإيجاد من النار، التي هي الطاقة في الاصطلاح العلمي المعاصر، بينما الإنسان هو الخلق المناسب لاستعمار الأرض والتعامل مع عناصرها، وبالتالي نستطيع أن نتخيل أن الجنّ يتميز بسرعة الحركة والتنقل بين الأقطار والبلدان، وأيضا في القعود من السماء مقاعد يتسمعون منها إلى أخبارها، كما أن طبيعة الجنّ النارية تُعطيه القدرة على التشكل في الصور المختلفة، وحيث أن قبائل الإنسان تتمايز في بنيانها بعضها البعض، فهذا عربي، وهذا أعجمي، وهذا من أشقر، وهذا من بني الأصفر، وذاك من السودان، فالتمييز إما بغلبة لون على لون، أو ضخامة البنية وملامح الوجه، وهي في النهاية كمية التراب التي يحملها الإنسان بين كتفيه، ثم تتباين ملامح هذا عن ذلك بقدر من الوسامة، أو علامة تميز النَّاس بعضهم عن بعض، أما الجنّ فيعرفون بعضهم بكمية الطاقة التي يمتلكها كل

---

١ كتاب العظمة لأبي الشيخ حديث ١١٥٦

Upload by : altawhedmag.com

منهم، ونسبة الدخان إلى النار، وكما تتشكل سحائب الدخان في الهواء إلى أشكال سريعة متغايرة، فإن ملامح الجنّ تتفاوت ليس فقط في الشكل، وإنما في قدراتهم حسب طبيعة تكوينهم.

ولذلك فقد استعمر الله ﷻ الجنّ في الأرض، واستخلف الإنس، وجعل الإنسان خليفة في الأرض، ذلك لأن الأرض لا تحد الجنّ بعكس الإنس، ولما خلق الله ﷻ الجنّ وكلفهم بطاعته انقسموا إلى فرق، وطوائف، وقبائل، وقامت بينهم الحروب، وسفكوا دماءهم، وأفسدوا في الأرض؛ لذلك تَساءل الملائكة يوم أخبرهم الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1]، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة- ٣٠].

ولما خلق الله آدم عليه السلام واصطفاه وجعل في ذريته الخلافة والنبوة، تَساءل البعض عن حكمة اختيار الأنبياء من الإنس فقط دون الجن؟ ولعل والله تعالى أعلم: أن الإنس لا يرون الجن، بخلاف الجنّ، فقد ورد أنهم يحضرون مجالس الإنس، ويستمعون لما يدور فيها، وبالتالي لو أرسل الله ﷻ رسولا من الجنّ لاستمع إليه الجنّ وحدهم، بينما لو أرسل الله هذا الرسول من الإنس لاستمع له الجنّ والإنس؛ ولذلك يقص علينا القرآن أن الجنّ كانوا من أتباع الرسل، فهذا سليمان عليه السلام يحشر بين يديه جنوده من الجنّ، والإنس، والطير، بل إن عفريتا من الجنّ عرض عليه إحضار عرش بلقيس، فالجني قد يكون صحابي لنبي من الأنبياء، وقصت سورتي الجنّ والأحقاف استماع الجنّ للقرآن، وإيمان طائفة منهم، ثم توليهم لمهمة إبلاغ قومهم عندما يرجعون إليهم، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف٢٩-٣٠].

فالجن إذن يُتابع ما يحدث في عالم الإنس، ومنهم أتباع على شريعة موسى عليه السلام، وهاهو فريق منهم يؤمن برسالة النبي الخاتم، بل لقد سبق مؤمنيهم مؤمني الإنس حين استمعوا إلى تلاوة النبي ﷺ لسورة الرحمن، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن-١٣]، فكانوا يقولون ولا شيء من آلائك ربنا نكذب، فاستحقوا الثناء على لسان سيد لأنبياء والمرسلين. ولذلك تراهم

١ ليس المراد هنا أن للجن دماء كدماء البشر، وإنما المقصود استنزاف طاقتهم في القتال حتى تفنى ذواتهم.

Upload by : altawhedmag.com

بعد تلقي الوحي ينقسمون إلى فرق: منهم الصالحون ومنهم القاسطون، كما ورد في سورة الجنّ حيث يقولون: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۞ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۞ وَأَنَّا لَـمَّـا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ۞ وَأَنَّا مِنَّا الْـمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۞ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن ١١: ١٥].

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

أنواع المخلوقات

ينبغي أن يتواضع الإنسان بعلمه وأدوات معرفته، ولا يزعم أنه يعرف كل شيء عن هذا الوجود، ولا يدعي أنه سيد الكون، فالأرض كحبة رمل في صحراء متناهية الأطراف، ورغم أننا نعيش في عصر انفجار المعرفة، الذي زاد فيه حجم ما يدون من معلومات في أقل من عشر سنوات عن حجم ما دونه الإنسان منذ فجر التاريخ إلى الآن، وبرغم أن الإنسان يدرك تماما أن حواسه لها طاقات محدودة، ويحاول جاهدا أن يزيد من إمكانيات استشعاره وقدرات حواسه وأدواته سواء بالتلسكوبات، أو الميكروسكوبات، أو بتطويع الأشعة فوق البنفسجية، أو تحت الحمراء، أو أشعة الليزر، أو الطاقة النووية والكونية، أو تسخير المجالات المغناطيسية، أو استحداث الصدى المغناطيسي، أو الإبحار في علوم الهندسة الوراثية،... إلى غير ذلك من المبتكرات الحديثة، إلا أنه دائما يلهث وراء المعلومة، ولا يَمَلّ البحث وراء الجديد من المعرفة، ولو أنفق من عمره السنوات الطوال.

وقبل أن نناقش قضايا غيبية عن خالق هذا الوجود ينبغي أن نتعرف أولا على الوجود المرئي الذي نشاهده ونعرف خصائصه، ونتعايش معه على كوكبنا المتواضع، وقد استقر في وجداننا أن جيراننا من المخلوقات – على ظهر الأرض – تنقسم إلى:

١. جماد.
٢. نبات.
٣. حيوان.

إن الوحدة الأساسية التي يتكون منها هذه المخلوقات هي الذرات في الجماد، والخلية الحية في النبات والحيوان، تلك الخلية المكونة من جزيئات متناهية في الصغر، يدور خلالها مجموعة من الإلكترونيات داخل أفلاك تدور حول نواة هذه الخلية، ونستعرض فيما يلي بعض خصائص هذه الموجودات التي تخدم بحثنا هذا:

Upload by : altawhedmag.com

أولا: الجمادات

وهي كل ما غاير النبات والحيوان في خصائصه، والجمادات بمعناها الأشمل هي مركبات في ثلاث صور: الغازية، والسائلة، والصلبة؛ أي أنها هي العناصر المعروفة كيميائيا، وما ينتج عنها من تفاعلات، ولا نقصد بالجماد هنا المعادن الصلبة فقط، وإنما نقصد ما ليس فيه حياة كحياة المخلوقات، وبالتالي يندرج تحت هذا المسمى: العناصر الصلبة: كالمعادن والصخور، والعناصر السائلة: كالمياه، والأمطار، والأنهار، والبحار، والمحيطات، والعناصر السائلة الأخرى من الأحماض، والقلويات، وغيرها، وأخيرا العناصر الغازية: كالهواء وما يحتويه من أوكسجين، ونتروجين، وثاني أكسيد الكربون، وغير ذلك من الغازات، وتتسم هذه الشريحة من المخلوقات أن لها مجموعة من قوانين المادة وقوانين الجاذبية الذي يحكم صعودها وهبوطها، وقوانين الحركة تحكم سيرها على ظهر الأرض، وقوانين الهيدروليكا تحكم حركة السوائل، وأيضا قوانين المغناطيسية، والكهربية، والإشعاعية، وقوانين ومعادلات الكيمياء تحكم تعامل العناصر بعضها مع البعض، فإذا وضعنا حامض النيتريك على الصوديوم ينتج نترات الصوديوم وماء، وقد تأكد من التجربة تلو الأخرى أن اجتماع هذه العناصر في نفس الظروف يتولد عنها نفس النتائج، وبالتالي استقر التمثيل الإلكتروني والكيميائي لهذه العناصر، بل لقد قطع الإنسان شوطا بعيدا في السيطرة على تصرفاتها، بل وتطويعها لخدمة حياته.

وأهم ما يميز خصائص هذه الذرات أنها ثابتة لا تنقسم، ولا يحدث فيها تغييرات بيولوجية، هذا بخلاف النبات والحيوان.

ثانيا: مملكة النبات

تحكمها قوانين المادة التي تحكم الجمادات إلا أنها تميزت عنها بخصائص وقوانين ناسبت طبيعتها وفطرتها التي فطرها الله عليها، فلها قوانين التمثيل الضوئي، وقوانين الضغط الأسموزي الذي يرفع الماء من الأرض لتغذية خلايا النبات، مما يتسبب في انقسام الخلايا وبالتالي يحدث النمو، والتكاثر، والإثمار، وللنبات حياة تعتمد على الماء والغذاء والهواء، وتحتاج إلى ظروف معيشية تختلف من نبات إلى آخر، ورغم تعدد صور النبات في الأرض سواء تلك التي نراها في

Upload by : altawhedmag.com

الحقول، والوديان، أو الصحراء القاحلة، وفي قمم الجبال، أو حتى في أعماق البحار، إلا أن مقومات حياتها واحدة، وتتعدد أنواع النبات من الخضريات إلى الثمريات،...

كما أن النبات له دورة حياة تبدأ من البذرة إلى الإنبات، حتى النمو والإثمار، إلى أن تنتهي حياتها، فمنها ما يؤكل، ومنها ما يوفر الأخشاب، ومنها ما هو للزينة،... إلى غير ذلك من صور الانتفاع.

إلا أننا نتفق على أن عناصر الجمادات لا تنمو كالنبات، ولا يحدث فيها تمثيل كلوروفيلي كما يحدث في الورق الأخضر، ولا تحتاج لحفظ نوعها عن طريق التزاوج أوحبوب اللقاح، وبالتالي يمثل الجماد قاعدة هرم المخلوقات، يسمو عليه النبات، ويعتمد عليه في حياته، ويستخلص من تراب الأرض مقومات غذائه، ولا غنى للحيوان، أو الإنسان عنه، فلا حياة بغير معادن وسوائل، فما بالك بحياة بغير ماء أو هواء؟!

ثالثا: مملكة الحيوان

وبالطبع يقع عليها قوانين المادة التي تحكم الجماد والنبات إلا أنها تتميز عن النباتات بخصائص الحركة، والتنقل، والسعي في طلب متطلبات الحياة في إطار أوسع من مجال حركة النباتات، ولهذا زادت خصائصها، وتنوعت دائرة تأثيرها.

فالمخلوقات إذن لها مراتب يسمو بعضها فوق بعض، فالجماد في أدنى الدرجات، وهو لا يفهم إلا قوانينه، ويظن أن كل ما حوله جمادات أخرى، وهو بالتأكيد لا يدرك أن هناك قوانين أسمى تتحكم في النبات، وقوانين أكثر تعقيدا تتحكم في الحيوانات، ولتبسيط الفكرة التي ننشد الوصول إليها، نتصور بقرة تقف في حقل، تأكل من حشائش الأرض، وتنتخب من النبات ما فيه قوامها، وتُعْرِض في نفس الوقت عما يضرها، إذن البقرة تعرف النبات، وقوانينه، وصفاته، والصالح منه، وما يجب إبعاده، وفي نفس الوقت تدرك هذه البقرة أن هذا فأس قد لا تعرف كُنْهَهُ ولا وظيفته، وإنما على الأقل تعرف أنه جماد، تحكمه حركة السقوط من الارتفاع، ولو سقط عليها من أعلى الشجرة مثلا لحاولت أن تتفاداه، بينما النبات الذي في هذا الحقل لا تحكمه القوانين التي تتحكم في البقرة سواء في دورة الغذاء، أو التكاثر، أو الدورة الدموية، وغيرها من القوانين، فهو يظنها نبات آخر لا يتحرك إلى أعلى، وإنما يتحرك كما يحلو له، فالنبات يدرك من خصائص الحيوان

Upload by : altawhedmag.com

ما شاركه فيه من خصائص، ولا يمكنه أن يبلغ ما يتميز به الحيوان عنه، ولكن مملكة المخلوقات لا تقف عند هذا الحد.

أوضحنا في السرد السابق مراتب الوجود سواء غير المرئي لنا، من الملائكة، والجن، أو الوجود المرئي: من الجماد، والنبات، والحيوان، ونعتقد أننا الآن نستطيع بعد هذه المقدمة أن نناقش القضايا المطروحة، ونعرض الإجابات التي تقدم تكامل الطرح الإسلامي للقضايا محل النظر.

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الثاني

- الله تعالى خلق الخلق سبحانه، ولم يسبقه شيء في وجوده، فلا أول لوجوده، ولا آخر له سبحانه، ولم يقارِن وجوده وجود آخر، كان الله ولا شيء معه.
- لما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.
- أول ما خلق الله تعالى القلم، وكتب به كل شيء كائن إلى قيام الساعة.
- صفات الله تعالى وأفعاله لا تشبه صفات أحد من المخلوقين إذ أنه سبحانه : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).
- خلق الله تبارك وتعالى العرش، والسموات السبع، والجنة والنار، والميزان والصراط، وخلق للملإ الأعلى خلقًا ليسكنوا فيه، وهم الملائكة الكرام.
- الملائكة خلق من نور، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، منزهون عن الأغراض البشرية، وعن عصيان الله تعالى.
- لكل ملك مهمة لا يستطيع التخلف عنها، أو تجاوزها، فمنهم: حملة العرش، أمين الوحي (جبريل عليه السلام)، ملك الأرزاق (ميكائيل عليه السلام)، ملك البعث (إسرافيل عليه السلام)، كما أن هناك ملائكة وظيفتهم العبادة والتسبيح فقط، خزنة الجنان،خزنة النار، ملائكة الموت، ملائكة العذاب، ملائكة الرحمة، ملائكة النصر والتأييد للمؤمنين، وحفظ الإنسان، وكتابة أعماله...إلخ.
- الجن خلق من مارج من نار، مكلف كبني آدم تمامًا، ومخاطبون برسالة محمد صلى الله عليه سلم،ومطالبون بالإيمان بها، ومنهم المؤمن والكافر والطائع والعاصي، وكان إبليس منهم ، ولم يسكنهم الله الجنة كما اقتضت حكمته سبحانه مع آدم عليه السلام، وإنما استعمرهم في الأرض، وكان ذلك قبل خلق آدم بمدة لا يعلمها إلا الله عز وجل.
- الخلق ينقسم إلى أنواع عديدة مرئية، وغير مرئية، تدعو الإنسان للتأمل، والاعتراف بعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الثالث

الخليفة والأمانة

١. مقدمات خلق آدم عليه السلام

٢. إبليس والغواية

٣. خطة إبليس وانتقامه من البشر

٤. أساليب الشيطان

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

مقدمات خلق آدم عليه السلام

اختار الله تبارك وتعالى الإنسان ليكون الخليفة في الأرض، "وإنما سمي الإنسان إنسانا؛ لأنه عُهد إليه فنسي"[1]، وقد اقتضت حكمة المولى عز وجل أن يَتِمَّ خلق آدم عليه السلام على مراحل، والله سبحانه وتعالى قادر على أن يتم ذلك في أقل من لمح البصر، ولكن لحكمٍ عديدة سامية شاءت إرادة الله تعالى أن يخلق آدم على مراحل متباينة، وعلى أزمنة متفاوتة، وعلى مرأى ومسمع من الملإ الأعلى كله، وأن يجعل لذلك الحدث المهم العديد من المقدمات، هي:

أولا: الإعلان عن الخليفة:

أولى هذه المقدمات قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة-٣٠]، وهنا يتبادر إلى الذهن استفسار مهم، ألا وهو: كيف توقعت الملائكة أن يفسد ابن آدم في الأرض ويسفك الدماء؟ يروي الفخر الرازي في تفسيره الكبير العديد من إجابات السلف حول هذا السؤال، نوردها كما يلي:

- الأول: وهو قول ابن عباس والكلبي: أنهم قاسوه على حال الجنّ الذين كانوا قبل آدم في الأرض.
- الثاني: أنهم عرفوا خِلقته [أي آدم عليه السلام]، وعرفوا أنه مُركّب من هذه الأخلاط الأربعة، الأخلاط الأربعة أي: التراب، والماء، والنار، والهواء، فلا بد وأن تتركب فيه الشهوة والغضب، فيتولد الفساد عن الشهوة، وسفك الدماء عن الغضب.
- الثالث: أنهم [أي الملائكة] قالوا ذلك على اليقين، وهو مروي عن ابن مسعود وناس من الصحابة، ثم ذكروا فيه وجوها:

١ حيث موقوف على ابن عباس رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة ص ٣٦٩

Upload by : altawhedmag.com

١. أنه تعالى لما قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة-٣٠]، قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يُفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضا، فعند ذلك قالوا: ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟

٢. أنه تعالى كان قد أعلم الملائكة أنه إذا كان في الأرض خلق عظيم أفسدوا فيها وسفكوا الدماء.

٣. قال ابن زيد: لما خلق الله تعالى النار خافت الملائكة خوفا شديدا، فقالوا: ربنا لمن خلقت هذه النار؟ قال: لمن عصاني من خلقي، ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة، ولم يكن في الأرض خلق البتة، فلما قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة-٣٠]، عرفوا أن المعصية تظهر منهم.

٤. لما كتب القلم في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة، فلعل بعضهم طالع بعض ما في اللوح فعرف ذلك.

٥. إذا كان معنى الخليفة أن يكون نائبا للهّ تعالى في الحكم، والقضاء، والاحتجاج إلى الحاكم - والقاضي إنما يكون عند التنازع والتظالم- كان الإخبار عن وجود الخليفة إخبار عن وقوع الفساد والشر بطريق الالتزام".

٦. قيل أيضا: لما أفسد الجنّ في الأرض، وجاء البيان من الله بخلق خليقة فيها، قالت الملائكة قياسا على فعل الجن، ولعل كل فريق من الملائكة وصل إلى هذه النتيجة بطريق غير الآخر، وبذلك تصح جميع هذه الأقوال.

إلا أن اللهّ تبارك وتعالى أجابهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة-٣٠].

ثانيًا: الأمر بالسجود للخليفة قبل خلقه:

ثاني هذه المقدمات أن الله تبارك وتعالى أصدر أمرا للملائكة طالبهم فيه بالسجود للخليفة الذي أعلن الله مشيئته في خلقه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص٧١: ٧٢]؛ فالملائكة إذن على علم وفي حال ترقب وانتظار؛ لأن الأمر الإلهي مسبوق بحرف الفاء: ﴿فَقَعُوا﴾ أي: بادروا بالتنفيذ فور الانتهاء من خلق آدم وتسويته ونفخ الروح فيه، فكأن اللهّ تبارك وتعالى يلفت انتباههم إلى تتبع

Upload by : altawhedmag.com

مراحل خلق آدم عليه السلام، حتى إذا بعثه الله وجب عليهم طاعة الأمر وتنفيذه، ومن هنا انشغل الملأ الأعلى بأبي البشر انشغالا كبيرا.

ثالثًا: خلق الخليفة على مراحل:

ثالث هذا المقدمات هي خلق آدم عليه السلام على مراحل متعددة، يقرر القرآن الكريم:

- طبيعة آدم الترابية في قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران- ٥٩]، كما يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جعل منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبَيْن ذلك، والسهل والحَزْن، وبَيْن ذلك، والخبيث والطيب، وبَيْن ذلك﴾[1].
- خلط هذا التراب بالماء فصار طينا، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾[2] [الصافات-١١]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة- ٧]، ثم تُرك هذا الطين يتعرض للهواء فترة من الزمن، فتخمر حتى صار صَلْصَالا، يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر- ٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن- ١٤]، وبذلك تمت تسوية جسد آدم عليه السلام وتشكلت صورته، ثم نفخ الحق سبحانه الروح في الجسد، والروح خلق من خلق الله ، وأمر من أوامره، كما أنبأنا في محكم التنزيل، قال جل شأنه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا ﴾ [الإسراء-٨٥].

رابعًا: خلق أرواح البشر جميعا:

رابع هذه المقدمات شيء لم يكن في الترتيب المنتظر؛ حيث نتوقع أن يُبادر الملائكة بالسجود لآدم بمجرد النفخ في الروح، إلا أن الله تبارك وتعالى شاءت إرادته أن يسبق ذلك أمور على قدر

---

١ حديث أبي موسى الأشعري صحيح أخرجه الترمذي، وأبو داود، وأحمد في مسنده، والطبري في تفسيره ١: ٦٧٠، وأبو الشيخ في العظمة ص ٣٦٨، حديث ١:١٠١٤

٢ الطين الازب: أي الطين الجيد، وقيل: اللازج، قاله عكرمة، ورواه أبو الشيخ في العظمة ٣٦٩

Upload by : altawhedmag.com

كبير من الأهمية، وفي نفس الوقت تُلقي الضوء على حكمة خلق البشر، ومكانة الإنسان في هذا الكون، وأول هذه الأمور أن الله سبحانه خلق أرواح البشر جميعا بقدرته من ظهر أبينا آدم، ويشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [الأعراف- ١١]، وقوله ﷻ: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: أي أن هناك خلق لكل البشر في عالم الروح، ثم يأتي البيان أكثر توضيحا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾؛ فكل روح لها صورة مختلفة عن باقي الأرواح، بها تُعرف كما تتعارف الأجساد في الدنيا، ولا يمكن أن يُفهم من هذه الآية أن الله خلق البشر جميعا أجسادا وأرواحا مرة واحدة، أو أن روح كل إنسان تُخلق وقت تشكيل جسده في رحم أمه، بل المراد - والله تعالى أعلم - أن الله سبحانه خلق الأرواح جميعا، ويقول مجاهد في تفسير هذه الآية:" ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف- ١١]، أي: في ظهر آدم"، والحكمة من ذلك والله تعالى أعلم بمراده، أن الله تعالى أراد أن يأخذ العهد على كل البشر كما سيأتي تفصيله، بالإضافة إلى حضور جميع الأرواح لمشهد خطير، وهو مناظرة آدم للملائكة. وكثير من الناس يفهمون قول الحق سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا ﴾ [الإسراء-٨٥] على أنه نهي عن الخوض في عالم الروح، والأمر أيسر من ذلك، فالقرآن يجيب على من يسأل عن الروح بقوله الروح أمر من أمر الله سبحانه، وأمر الله للشيء إذا أراده أن يقول له كن فيكون، فالقرآن أجاب السائل لإجابة شافية، فالروح خلق من خلق الله تعالى، أوجدها بكن، لحظة أن مسح بيده على ظهر آدم وهو منجدل في طينته، ولا علاقة بين الروح كمخلوق وبين الخالق جل جلاله، أما مسألة نفخ الروح في الجسد، فلها ملك مخصوص يتولى البعث، كما أن لخروج الروح من الجسد ملك مخصوص يتولى عملية القبض، فالبعث والموت سواء بسواء من حيث تكليف الملائكة بهذا الفعل، أما ما قد يفهمه البعض أن الله تعالى نفخ من ذاته فيخلقه فهذا فهم فاسد، يمزج بين الخالق والمخلوق تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

كل هذه الأمور وقعت قبل تنفيذ الملائكة تكليف الله لهم بالسجود لآدم.

Upload by : altawhedmag.com

خامسًا: العهد بالتوحيد على البشر:

خامس هذه المقدمات قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف-١٧٢]، وقد سُئل عمر بن الخطاب ﷺ عن هذه الآية، فقال: ﴿سمعت رسول الله ﷺ سُئل عنها، فقال رسول الله ﷺ: إن الله ﷻ خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله ﷻ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار﴾[1].

ويفسر أُبَيّ بن كعب آية العهد، فيقول: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف-١٧٢]، قال: "جمعهم فجعلهم أرواحا، ثم صورهم، فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قال: فإني أُشهد عليكم السموات والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئا، إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي، ولا تشركوا، قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا بذلك، ورفع عليهم آدم ينظر إليهم، فرأى الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: رب لولا سويت بين عبادك، قال: إني أحب أن أشكر، فرأى الأنبياء فيهم مثل السُّرُج، عليهم النور، خصوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧]"[2].

---

١ حديث عمر بن الخطاب ﷺ أخرجه مالك في الموطإ حديث رقم ١٣٩٥، وأحمد في مسنده: ٢٩٤، وأبو داود في سننه ٤٠٨١، والترمذي في سننه، وقال: حديث حسن.

٢ حديث أبي بن كعب حديث حسن انفرد به أحمد ٢٠٢٨٣، وفيه محمد بن يعقوب الزبالي ليس بمشهور رتبة.

Upload by : altawhedmag.com

ولا تخفى أهمية هذا العهد على جميع بني آدم، فقد عرَّف الحق ﷻ فطرة التوحيد، وألقاها في كل روح إنساني، ومن دلالات هذا الموقف أن الأرواح كلها تشهد بلا إله إلا الله ، وتعرف أنه واحد لا شريك له ولا وزير بين يديه، ولا مشير يرجع إليه، وأنهم مطالبون بعبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، وأن الله تعالى قد قسم بين النَّاس معيشتهم، ونَوَّع في عطائه بين خلقه، حتى يتوجه الجميع بشكر النعمة إلى المنعم ﷻ، وإذا علمت الروح هذه الحقيقة منذ اللحظات الأولى من خلقتها، فإنها إذا نُفخت في الرحم، كان هذا العهد سراجا ونورا يضيء عوالم هذا الجنين في بطن أمه، وكان هذا العهد محركا لعوالم الإنسان ودافعا لها للبحث والاهتداء إلى التوحيد، ولهذا جمع الله الأرواح في هذا اليوم، وحدث تعارف بين الأرواح، فتعارف منها من تعارف وتناكر منها من تناكر، وبهذا أنبأ النبي ﷺ : ﴿الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف﴾[١].

سادسًا: موثق الأنبياء:

وسادس هذه المقدمات عقد موثق خاص للأنبياء والمرسلين، فبعد أن أخذ الله العهد بالتوحيد على جميع الأرواح جمع الله تبارك وتعالى أرواح الأنبياء، وأخذ عليهم الإقرار أن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء ومكمل بنيان الرسالات، وسيد ولد آدم، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران- ٨١]، وعلى هذا تكون النبوة قد وجبت لجميع الأنبياء في عالم الذَر، ويكون قد تم التعارف والتآلف بينهم عند أخذ هذا الموثق، لهذا لما سُئل النبي ﷺ، فقالوا: ﴿يا رسول الله متى وجبت النبوة؟[٢]، [وفي رواية: متى كنت نبيا؟]، [وفي لفظ: متى كُتبت نبيا؟][٣]، قال: وآدم بين

---

١ حديث عائشة أخرجه البخاري تعليقا باب الأرواح جنود مجندة، وأخرجه مسلم حديث ٤٧٧٣، ٤٧٧٤، وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد ٧٥٩٤، ١٠٤٠٤، ١٠٥٣٣، وأبو داود في سننه ٤١٩٤

٢ حديث أبي هريرة انفرد به الترمذي ٣٥٤٢ وقال: حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي الباب عن ميسرة.

٣ حديث ميسرة الفجر أخرجه أحمد في مسنده ١٩٦٨٦

Upload by : altawhedmag.com

الروح والجسد﴾، وفي رواية أخرى:﴿إني لعند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته﴾، وقد يسأل سائل قائلا: ألم يكن في علم الله ﷻ أن محمد ﷺ لن يظهر في وقت أي نبي آخر، فما الحكمة من هذا الموثق إذن؟

والرد على ذلك: أن الله تبارك وتعالى حين أخذ العهد العام بـ"لا إله إلا الله" على جميع الأرواح، ثم اختص الأنبياء بالإقرار بأن "محمدا رسول الله" وخاتم النبيين، وطالبهم بالتصديق به واتباعه علاوة على ما في هذا الموثق من تعريف لهم بشأن رسوله الخاتم صلوات الله وسلامه عليه، وبالإضافة إلى ما فيه من خصوصية لرسوله ﷺ على سائر الأنبياء تمت لهم شهادة التوحيد، فدخلوا في دائرة الإيمان الكامل، ثم إن كل رسول دعا قومه إلى شهادة التوحيد، فنوح طالب قومه بالإقرار بـ"لا إله إلا الله"، وأن نوحا رسول الله ، ثم أنبأ قومه أن نبي آخر الزمان اسمه أحمد أو محمد، وطالبهم بالتصديق بالغيب بنبوته ورسالته، فأصبح قوم نوح عليه السلام يشهدون بـ"لا إله إلا الله" ونوح رسول الله شهادة تحقيق، ثم يقرون ويؤمنون أن "محمدا رسول الله" إيمانا بالغيب، وهكذا جميع الأنبياء بشروا أقوامهم حتى جاء آخرهم عيسى عليه السلام، فخاطب قومه قائلا: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف- ٦]، فالأنبياء الذين سبقوا رسول الله ﷺ آمنوا به وبلغوا أقوامهم فآمنوا به، ونحن نؤمن به إيمانا غيبيا وتصديقا؛ لأنه نص القرآن وثابت في السنة.

سابعًا: مناظرة الخليفة والملائكة:

وسابع المقدمات مناظرة آدم والملائكة، أراد الله سبحانه أن يظهر حكمته من خلق آدم قبل أن يأمر ملائكته بالسجود، ولذلك أجرى مناظرة بين علم آدم وعلوم الملائكة، وعلمهما من تعليم الله لهما، إذن فالمناظرة ليست مباراة بين فريقين بقدر ما هي تعليم وتعريف لهما عن شأن الآخر وبيان لحدود مهمته.

ثامنًا: علم الأسماء:

يقرر القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى علَّم آدم الأسماء، يقول سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة- ٣١]، وجاء في التوراة تفسيرا للأسماء كما ورد في سفر التكوين: "وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها؟

Upload by : altawhedmag.com

وكل ما دعا آدم ذات نفس حيه فهو اسمها"[1]، وهذا النص يجعل آدم هو الذي يسمي الأشياء ويضع لها اسما من عنده، ولو كان الأمر بهذه الصورة لما استطاعت الملائكة أن تعرف الاسم الذي سيطلقه آدم على أي شيء، ولو اختبر في هذا الاسم غير آدم لما عرفه بالقطع، فكيف تكون المناظرة عادلة عندئذ، ويقول بعض المفسرين: إن الله تبارك وتعالى علم آدم أسماء جميع ما في الكون من صور الخلق من سماء، وأفلاك، وكواكب، ونجوم، وسحاب، ومطر، وطير، وبحار، وأنهار، وجبال، ودواب، ونباتات، وجمادات إلى آخر الأسماء كلها.

وهنا يطرأ سؤال ضروري، هل الملائكة تعلم الأسماء أم لا؟ فإن كانت تعلمها فلِمَ لَـمْ تُجِب بما كانت تعرفه، وإذا كانت لا تعرفها فكيف علمت أن آدم أصاب حين أجاب؟ وللإجابة على هذا التساؤل، نقول وبالله تعالى التوفيق:

الأسماء جمع اسم، والاسم يدل على مسمى، والمسمى خلقه الله تبارك وتعالى وأوجده وأبدع صنعه، وقد تباينت المخلوقات بحسب تجليات الأسماء الحسنى والصفات العلا بموجب الحكمة الربانية التي اقتضت ظهور كل مخلوق على حده، فعلى سبيل المثال: خلق الماء، يقول ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْـمَـاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء- ٣٠]؛ فالماء إذن فيه سر الحياة، وسر الحياة خلق من تجليات اسمه تعالى الحي، كما أن الدواء خلق من تجليات اسمه تعالى الشافي، والثياب تستر صاحبها فهي من جود الستار، والنجوم والكواكب خلقها بسر النور الهادي، وهكذا إذا أخذت تبحث وراء كل خلق وحكمته أدركت قبسا من تجليات المولى ﷻ بأحد أسمائه، فكل ملك من الملائكة قائم على أمر معين، وله مقام معلوم يعلم الأسماء التي في دائرة تكليفه فقط، ولا يعلم عن خارج هذا الإطار شيئا، وذلك مناسب لطبيعة خلقهم، فهم من النور خلقوا، أما آدم عليه السلام، فهو من تراب الأرض الذي يحتوى على جميع عناصرها، ثم أضيف عليه الماء الذي هو سر الحياة يسري فيه، ثم ترك الطين حتى يتخمر، ثم مسه النار حتى تمت التسوية والتشكيل، ثم أودع فيه الروح ذلك الخلق النوراني، فكان آدم عليه السلام جامعا لكل العناصر، فاجتمعت فيه رغبات الجسد وشهوات النفس، ورجاحة العقل، وصفاء القلب، وطهارة الروح، فكان على استعداد أن يتلقى الأسماء وحقائق المسميات، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّـهَا، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْـمَلائِكَةِ فَقَالَ

١ سفر التكوين الإصحاح الثاني: ٢٠

Upload by : altawhedmag.com

أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا: سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ: يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة ٣١: ٣٣]، فلما عرض الله تبارك وتعالى المسميات على آدم والملائكة كان كل صنف من الملائكة يعلم ما يخصه منها، وفي نفس الوقت يجهل ما يخص غيره، ولما كان جميع الملائكة حاضرين، وكان السؤال للجميع، أجاب آدم عليه السلام وأدرك أكثر الملائكة عجزهم، وتحقق الباقي من صحة إجابة آدم عليه السلام وصدقه.

تاسعًا: عرض الأمانة ومعنى الخلافة:

ومن هنا أدركت الملائكة معنى الخلافة، والمقصود منها هو إحاطة العلم عن الله، وذكره وعبادته بجميع أسمائه، وظهرت حكمة الاختلاف بين المراد من الملائكة والمطلوب من آدم عليه السلام، فالمَلَك شأنه في الكون كشأن الوزير القائم على أمر واحد فقط، بينما الخليفة هو الذي أقامه الحق تبارك وتعالى في جميع الشئون، فتراه في حال مسبحا، وتارة مستغفرا، وأخرى ساجدا، وراكعا، وقائما، تارة طبيبا مداويا، وتارة في باطن الأرض منقبا، ومرة في السماء ومركبة الفضاء سائرا، تارة أبا، وأخرى زوجا، وأخا، وابنا، مرة قاضيا، أو حاكما، أو غازيا، كل هذه الشئون أقيم فيها الخليفة واستعمره الله فيها، وفي غيرها، وهذا يلقي الضوء على معنى الأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب- ٧٢]، فإذن الأمانة بصورة مبسطة هي عبادة الله سبحانه اختيارا بكل الأسماء والشئون، وليس باسم واحد فقط ومقام معلوم، وربما فهم بعض النَّاس أن الله عرضها على السموات، والأرض، والجبال، فقرروا أنهم لا يطيقونها، فعرضها الله على الإنسان فقبلها، وهذا فهم ساذج للأمر، فما كان لله تبارك وتعالى أن يكلف خلقه إلا بما يطيقون، ففكرة العرض هذه تنتفي إذا كانت السموات والأرض والجبال لا يستطيعون القيام بمهام الأمانة، ولهذا لم يكن عرض الأمانة تخييرا من الله ، وعرضا عليها، فقالت: لا، وإنما الأمانة مخلوقة للإنسان، والإنسان مهيأ لتلقيها، فلما عرضها الله ﷻ حملها الإنسان على مشهد من أهل السموات والأرض والجبال، كان العرض بيانا لمهام الأمانة والتكاليف التي تصاحبها، فعلموا جميعا أنهم ليسوا على استعداد

Upload by : altawhedmag.com

لتلقي هذه المهمة، ولم يخلقوا لها، فأبين أن يتقدمن لحملها وأشفقن من خطورتها، وأدركن ثقل المسئولية الملقاة على كاهل هذا الخلق الجديد الذي اختاره الله تعالى بحكمته لهذه المهمة، وأداء تلك الرسالة العظمى، ومن هنا كان من الطبيعي أن تسلم الملائكة وتسجد لآدم بأمر الله تعالى، كما نسجد نحن الآن في اتجاه القبلة تعظيما لا عبادة لها.

Upload by : altawhedmag.com

آدم أبو البشر، والرد على مزاعم د. عبد الصبور شاهين:

طلع علينا د. عبد الصبور ببدعة جديدة، تنقل عن أصحاب نظرية النشوء والارتقاء، بعد أن تأكد أصحابها من بطلانها، ويتلخص قوله في: أن البشر خلق متخلف وهمج يتناسلون من أب وأم شأنهم كشأن كل الأمم الأخرى من الحيوانات، إلا أن الله اصطفى منهم آدم وحواء، وسواهما ونفخ فيهما من روحه، فتبدل حالهما وأصبحا نوعا أرقى، وهما أصل الإنسان، وتلقيا عن ربهما التكليف بالخلافة، وعلمهما الأسماء كلها، وأسجد لهما ملائكته، وأدخلهما الجنة وأن الجنة على الأرض وليست في الملإ الأعلى، فأكلا من الشجرة، فأمر بهما فطردا من تلكما الحديقة أو البستان، ليمارسا حياتهما وخلافتهما على الأرض، وغاية مراد د. عبد الصبور هو إثبات صحة قول علماء الغرب المؤيدين لنظرية الارتقاء، ويحاول أن يغلف أفكارهم بزي إسلامي، وأجاب د. زغلول النجار في إحدى القنوات الفضائية ما أوجزه في قوله: إن كتاب د. شاهين لا يضيف أي فائدة شرعية، أو علمية، أو حتى أدبية، وأنه يعتمد على معلومات غير موثقة علميا، وأغلبها خيال علمي ينافي الحقائق الثابتة، ودعا المحدثين إلى بيان درجة الأحاديث في المسألة، وهذا ما دعانا إلى أن نستوفي الموضوع حقه بالإضافات والردود التالية:

١. قول الحق تبارك وتعالى في سورة الكهف: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْـمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، وتنفي هذه الآية قدرة الناس أجمعين عن الخوض في مراحل خلق السموات والأرض، وأيضا مراحل خلق أنفسهم، وهذا يشمل خلق آدم فهو أول البشر، وأن الله تبارك وتعالى غني عن اتخاذ البشر مساعدين له في بيان ما لم يشهدوه أصلا، وأن أي محاولة في معرفة هذه المراحل ستأتي من ضالين ومضلين، وما كان الحق تبارك وتعالى ليتخذ المضلين عضدا، وهذه هي السنة الإلهية المسطورة في القرآن الكريم.

٢. تفسير د. عبد الصبور ينقلنا من معجزة خلق الخليفة آدم من تراب، وإسجاد الملائكة له، إلى خلق البشر من تراب، ثم حياتهم كهمج وقبائل متخلفة، مدة من الزمان يتناسلون كالبهائم، ثم يختار منهم آدم وحواء، ثم يصطفيهم بالتسوية والخلافة.

Upload by : altawhedmag.com

٣. يزعم د. شاهين أن آدم نفخت فيه الروح مرتين، مرة عندما ولد كبشر متخلف، ومرة عندما اصطفاه الله للخلافة، ولا دليل له في هذا الافتراء.

٤. ويزعم أيضا أن الله تعالى أسجد ملائكته لخلق رعاع وهمج، ولو كان هذا الزعم صحيحا لجاء دفاع إبليس عن عدم سجودة مختلفا عن قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِـمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء- ٦١]، ولكان الأولى أن يقول: أأسجد لواحد من جنس متخلف.

٥. لم يبرر د. شاهين ما حدث لقوم آدم وحواء: أعمامهما، وأخوالهما، ووالديهما، وإخوتهما، وكل بني البشر، هل أبقاهم الله تعالى أم أماتهم جميعا؟ فلو قال: أماتهم جميعا؟ نقول: لقد خسرنا دليلا ماديا عظيما على النقلة النوعية التي حدثت لآدم وحواء، خاصة إذا بقيا على صلة للرحم معهم، وإذا قال: أبقاهم الله ولم يموتوا؟ فالسؤال الحاضر: فأين هم؟

٦. ماذا يضير د. شاهين أن يكون آدم مخلوق من طين ثم يتلقى الخلافة والتكليف مباشرة؟ أيعجز الله ذلك؟ ثم إذا كان خلق آدم بصورة الخلافة يحتاج إلى وساطة قوم همج، فما بالك بخلق الملائكة؟ ألا يحتاجون إلى مراحل متعددة قبل أن يصلوا إلى ما هم عليه من النقاء والطاعة والإخبات لله تعالى؟ وأين وسائط خلق الجن، وهم شقائق الإنس في التكليف، لا بد أن د. شاهين ينتظر أن يظهر داروين جديد يقول بارتقاء الجن أيضا حتى يطلع علينا بتأويل جديد يستكمل به الموضوع.

٧. إن مزاعم د. شاهين تسخر من وعد الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة-٣٠]، ثم يخلق البشر همج رعاع، ثم تستمر حياتهم وتناسلهم حقبا، ثم يتحقق هذا الوعد بإعادة نفخ روح التكليف في أحد بني البشر، فتنقله إلى مقام الخليفة.

٨. تكذيب القرآن لأفكار د. شاهين، فالمخلوق بيد الله تعالى هو آدم، وليس جد البشر الذي من نسله كلف آدم، يقول سبحانه رافضا استكبار إبليس بالسجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِـمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص-٧٥]، أما د. شاهين يجعل ما خلقه الله بيديه قوم متخلفون.

٩. إن ما توصل إليه د. شاهين في بحثه هذا يعد أوضح مثال لنتائج أبحاث الذين لا يكتفون بالقرآن الكريم، ويرفضون السنة، بدعوى عدم ثبوتها وحرصهم من

Upload by : altawhedmag.com

الإسرائيليات، وهم بهذا يفرقون بين الله ورسوله المبلغ عنه، فاستهانته بالسنة النبوية وجهله بها، جرأته على اتهام ما هو ثابت فيها بأنه إسرائيليات، ويعلن أن هدف بحثه هو سعيه الدءوب لتنقية الفكر الإسلامي مما علق بها من أباطيل، ولا نعرف أيهما يتقدم على الآخر؟ جرأته على السنة، أم جهله بها، وتسليمه التام لأتباع داروين، فلو أنه رجع إلى السنة لأوصلته إلى الحقائق التالية:

- حديث شرف نسب النبي ﷺ يرويه علي بن أبي طالب، وعائشة، والسائب بن يزيد الكندي، وأنس بن مالك، وابن عباس، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي، ولم يصبني من عهر الجاهلية، وخرجت من خيركم نفسا، وخيركم أبا﴾، والحديث يؤكد طهر نسب أجداد النبي وأولهم آدم، بينما د. شاهين يزعم أن آدم ولد من سفاح الجاهلية، من أقوام أشبه بالبهائم، وهذا طعن في شرف آدم، ونسب جميع الأنبياء، وخاتمهم المصطفى ﷺ
- حديث الشفاعة فيه الإجابة الشافية من مزاعم د. شاهين، فيروي البخاري بسنده في صحيحه عن النبي أن بعض الناس يقولون يوم القيامة بعد أن اشتد الموقف: ﴿أبوكم آدم فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا؟﴾ وحقائق الحديث جليه، فآدم أبو البشر، وقد أبدلها د. شاهين إلى آدم ابن البشر، أن الله خلق آدم بيده مؤكدا نفس الحقيقة القرآنية، وليس الأمر خلقا مجازيا، يقول البوصيري

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

- أن نفخ الروح في آدم كان بعد أن سواه الله تعالى من طين، يروي أبو هريرة: ﴿كان أول ما جرى فيه الروح من آدم بصره وخياشيمه، فلما جرى منه في جسده كله عطس، فلقاه الله حمده، فحمد ربه، فقال الله له: رحمك الله، ثم قال الله له: اذهب يا آدم إلى أولئك الملإ فقل لهم سلام عليكم، فانظر ماذا يردون عليك، ففعل ثم رجع

Upload by : altawhedmag.com

إلى الجبار، فقال الله له وهو أعلم: ماذا قالوا لك؟ فقال: قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، فقال له: هذا يا آدم تحيتك، وتحية ذريتك ﴾.

- حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: الذي يرويه عن رسول الله ﷺ حيث يقول: ﴿إن الله ﷻ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جعل منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبَيْن ذلك، والسهل والحَزْن، وبَيْن ذلك، والخبيث والطيب، وبَيْن ذلك ﴾[1]، وللحديث شاهد لابن عباس رضي الله عنهما[2]، وقد ورد هذا الحديث في [٢٣] موضع في أبرز مصادر الحديث الشريف، وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وسنعرض إسنادا واحدا لحديث واحد للتعرف على مراتب الجرح والتعديل لرواته، وليكن حديث الترمذي، وله أربع طرق نكتفي منها بدراسة إسناد طريق واحد حتى لا نطيل على القارئ الكريم، وسلسلة إسناد هذا الطريق هو: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، قال: حدثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ...
- فشيخ الترمذي في الحديث هو محمد بن بشار، وهو من رجال البخاري ومسلم، وثقه الإمام مسلم، والعجلي، وعبد الله بن سيار، وقال عنه ابن خزيمة: إمام أهل زمانه، وقال عنه الدارقطني: من الحفاظ الأثبات.
- الراوي الثاني: هو يحيى بن سعيد القطان، وهو ثقة متقن حافظ قدوة، كما قال: ابن حجر العسقلاني، وقال عنه الأئمة: أبو زرعة الرازي: من الثقات الحفاظ، وأبو حاتم

---

١ حديث أبي موسى الأشعري أخرجه ابن حبان في صحيحه، ، وأبو داود في سننه، والبيهقي في سننه الكبرى وفي موضعين من كتابه الأسماء والصفات، وابن بطة في الإبانة الكبرى، أخرجه الترمذي، وأبو داود، وأحمد بن حنبل في موضعين من مسنده، وعبد بن حميد في مسنده، والبزار في البحر الزخار ، والروياني في مسنده، ومعجم الصحابة لابن قانع، وابن خزيمة في موضعين من كتابه التوحيد، وأبو الشيخ في العظمة ، والطبري في جامع البيان في تفسير القرآن، وأبو نعيم في موضعين من حلية الأولياء، وفي معجم الصحابة أيضاه وابن سعد في طبقاته الكبرى، والخطابي في العزلة، والترمذي في سننه.

٢ حديث عبد الله بن عباس أخرجه الحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية .

Upload by : altawhedmag.com

الرازي، قال: حجة حافظ، وقال عنه عبد الرحمن بن مهدي: لا ترى عيناك مثله، وعلي بن المديني قال: ما رأيت أعلم بالرجال منه، وما رأيت أثبت منه، وقال عنه أحمد بن حنبل: الرجل الثقة: إليه المنتهى في التثبت بالبصرة، عالم بالفرائض، صالح الفقه، ولا يقاس به في العلم أحد، ولم نرَ مثله في كل أحواله، وقال عنه أبو يعلى الخليلي: إمام بلا مدافعة، احتج به الأئمة كلهم، وقالوا من تركه القطان تركناه، وقال عنه ابن سعد: ثقة مأمون رفيع حجة.

- أما الراوي الثالث فهو عوف بن أبي جميلة: فقد وثقة ابن سعد، وأحمد بن حنبل، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال النسائي: ثقة ثبت، ووثقه يحيى بن معين، وقال عنه أبو حاتم الرازي: صدوق صالح.
- أما الراوي الرابع الذي نقل الحديث عن الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري فهو قسامة بن زهير: فقد وثقه العجلي، وابن حبان، وابن سعد، والذهبي، وابن حجر العسقلاني،
- إن دراسة إسناد هذا الطريق وحده تؤكد أن رجاله ثقات، وفيهم أئمة من أئمة الحديث، ومراتبهم في أعلى درجات التوثيق، فلا عجب أن يصحح الترمذي الحديث، إن جهل د. شاهين بوزن رواة طريق واحد من بين أكثر من ثلاثين طريقا للحديث، وتسليمه لقول داروين وأتباعه، ورفضه لصحة الحديث الذي نص عليه الترمذي، وإذا تركنا له أن يتجاهل مثل هؤلاء الرواة فكيف نحافظ على السنة من جرأة المغرضين، كل ذلك يدعونا إلى البحث عن السبب وراء إصراره على إحداث هذه البلبلة، التي نسف بها صورته كرجل خدم اللغة العربية ودرسها عقودا عديدة!

نختم قولنا في هذا الموضوع العارض بتحذير النبي ﷺ من زلة العالم[1]، إلا أن أخطر ما في

١ قال رسول الله ﷺ: «إني لا أخاف على أمتي من بعدي إلا من أعمال ثلاثة، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: أخاف عليكم زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوى متبع»، وموضوع زلة العالم سنفصل فيه الحديث في الباب العاشر من هذا الكتاب، تحت عنوان "ذم التقليد"، فصل: التقليد والاتباع.

Upload by : altawhedmag.com

موضوعنا هو جرأته على التأويل، والانتصار لأهل الباطل، وإصراره على الخوض فيما هو ليس له بأهل، وإن المرء ليحزن أن يضيع الشيخ ما جناه طوال حياته من سمعة طيبة بهذه الأوهام السخيفة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

إبليس والغواية

كان إبليس من الجن، خلقه الله تعالى من مارج من نار شأنه في ذلك شأن غيره من الجن، ولم يسكنه الجنة كما اقتضت حكمته سبحانه مع آدم عليه السلام، وإنما استعمره في الأرض، وكان ذلك قبل خلق آدم بمدة لا يعلمها إلا الله عز وجل، وهناك روايات أنهم عاشوا على ظهر الأرض قبل البشر بخمسة آلاف سنة.

والجن كما قلنا خلق من النار وهي في طبيعتها نوع من الطاقة، فإذا اشتدت النار وحميت طاقتها صفت النار، وقل دخنها، وانبعث من أقوى بقعة فيها النور، وإن شئت قلت: إن النور إذا ضعفت طاقته خبي ضوءه، فإنه يقارب النار، كما أن النار في طبيعتها تميل إلى الشطط والتكبر والعلو، بعكس الطين والتراب الذي يميل بطبيعته إلى التواضع والهبوط.

وبينما انشغل نسل الجن في عمارة الأرض، واقتتلوا وسفكوا دماء بعضهم البعض، كان إبليس عاكفا مجتهدا في عبادة ربه بشتى السبل، حتى قال بعضهم من باب المبالغة: "إن إبليس لم يترك بقعة في الأرض ولا في السماء إلا عبد الله فيها"، وكلما جاهد نفسه وانقطع للطاعة والعبادة صفت طبيعته حتى شابهت النور في ظاهرها، ولم يكن الملأ الأعلى يومئذ محروسا محجوبا عن دخول الجنّ واستراقهم السمع، فاندرج إبليس وسط الملائكة، وأظهر الخضوع والعبادة وعلامات الصلاح، ولما كانت الملائكة مشغولة بأوامر الله لها، وكل منهم قائم على أمر ربه، لا يشغله تزلف متزلف أو تقرب عابد، فلم ينشغلوا بإبليس هذا وشأنه، والله تعالى وحده العليم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو سبحانه الذي يعلم مكنون صدر إبليس ونيته من طول العبادة وإظهار الخشوع، أما الملائكة فقد ظنت إبليس منهم، حتى قيل أنه أصبح يتيه بعبادته على الملائكة وتسمى بطاوس الملائكة.

Upload by : altawhedmag.com

أولا: الأمر بالسجود.

وبعد هذه المناظرة علمت الملائكة أن شأن آدم أعلى مما يظنون، وأن مهمته أجل مما يعتقدون، فلما قامت الحجة على أنه الخليفة المؤهل بالعلم الذي تلقاه عن مولاه، هنالك جاءهم الأمر بالسجود[1] له، وما كان السجود عبادة لآدم ولا طاعة له، ولكنه عبادة لله بطاعة أوامره وإقرار لآدم بعلو شأنه واختصاصه بالأمانة والخلافة، فأصبح آدم عليه السلام كالكعبة للمصلين الساجدين لله ﷻ وما عبد المصلون الكعبة، وإنما هي قبلة يتجهون إليها تنفيذا لأمر الله ، وقد ورد في الحديث: ﴿لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها﴾[2]، فالسجود هنا ليس بوضع الجبهة على الأرض أمام الزوج، وإنما أمر بالانقياد له ما دام ذلك في طاعة الله ﷻ، هذا المشهد الذي جاء فيه الأمر الإلهي بالسجود يضم آدم عليه السلام والملائكة، وقد اندرج فيهم إبليس الذي يعلم قبل غيره أنه ليس من الملائكة، رغم إظهاره الطاعة وتفانيه في العبادة، وهو يضمر في نيته غير ما يظهر للملائكة، وأصل قبول العبادة أن تكون خالصة لله وحده لا لغرض، ولا هوى في النفس، ولا طلبا للمنزلة وعلو المكانة عند الخلق، وهذا ما استقر في وجدان إبليس، ولم يطلع عليه إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور سبحانه وتعالى جل شأنه؛ ولذا جاء الأمر بالسجود في حال وجود إبليس بين الملائكة، وإذا استعرضنا الآيات القرآنية التي تصور حادثة السجود لوجدنا الأمر مقترن بالملائكة خاصة كما يلي:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه- ١١٦].
- ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف- ١١].
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِـمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء- ٦١].

---

١ والسجود هنا معناه: الانقياد، والخضوع، والتسليم، والاعتراف لآدم بما أظهره الله عليه من الفضل والعلم.

٢ حديث أبي هريرة خرجه الترمذي، وحديث معاذ رواه أحمد بن حنبل في مسنده، والطبراني ٢٠: ٥٢-٥٣ حديث رقم ٩٠، وذكره ابن كثير في جامع السنن والمسانيد حديث ٨٧٨٠، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤:٣٠٩، وقال: رجاله رجال الصحيح وحديث بريدة رواه الحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٥٢٩٤، والإرواء ١٩٩٨

Upload by : altawhedmag.com

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة- ٣٤].
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف- ٥٠].
- ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر٣٠-٣١].
- ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورةص٧٣-٧٤]

وتقرر الآيات السالفة الحقائق التالية:-

١. أن الأمر بالسجود خاص بالملائكة دون غيرهم من الكائنات.
٢. أن الملائكة الذين جبلوا على الطاعة بادروا بالسجود وما تأخر منهم أحد.
٣. لم يَرِد في الكتاب والسنة ما يشير إلى أن أمر السجود شمل الجن، أو أن أحدا من الجنّ سجد في هذا المشهد لآدم .
٤. لم يعاتب ربنا سبحانه أحدا من الجنّ على عدم سجوده إلا إبليس وحده.

ثانيا: الجزاء من جنس العمل.

وهنا يظهر تساؤل في غاية الأهمية، ألا وهو: كيف يُعد إبليس عاصيا حين لم يسجد، والأمر لم يصدر له؟

إذا عدنا إلى ما أشرنا إليه بأن إبليس استكبر على بني جنسه من الجن، واندرج في صفوف الملائكة طلبا للمكانة والمنزلة، ولهذا لما خلق الله آدم عليه السلام على مراحل عديدة، وأعلن في الملإ الأعلى مقام آدم عليه السلام واختصاصه بالخلافة، وجاء الأمر بالسجود له إذا تمت تسويته ونفخ الروح فيه، كل هذه المقدمات شغلت إبليس تماما، حتى قيل أنه ظل يدخل من فم آدم وهو مازال طينا ويخرج من قدمه أربعين سنة، وكأنه يقول في نفسه من هذا الذي سينال المنزلة التي يتمناها لنفسه؟ وما ميزاته؟ وكيف يكون لهذا الطين تلك المكانة الرفيعة؟ ثم أنه بذل من العبادات ما أمكنه أن يحيا بين الملائكة فهو في حيرة إذا أراد أن يدعي مكانته على الجنّ، وأنه أصبح مع الملائكة للزمه

Upload by : altawhedmag.com

السجود لآدم، وسجوده يجعله يسلم مختارا لآدم بالأفضلية، فإذا رفض السجود، واعترف في نفسه أنه من الجنّ، وغير مكلف بالسجود، كان ذلك توبة منه وعودة باختياره إلى بني جنسه، فهو بين أن يسجد فيتوقف طموحه عند حد الملائكة، أو يأبى ويقر بأنه من الجنّ فيعود لما كان عليه، ولكن إبليس لم يقبل هذا ولا ذاك فكلاهما يوقف تكبره، ولهذا شق عصا الطاعة عامدا متعمدا، فلجأ إلى إنكار الأمر والاعتراض على صحته، فنازع الحق ﷻ وحدانية التكليف والتشريع، فهو وحده جل شأنه صاحب الأمر والنهي.

كما أن هناك أمرًا يؤكد أن طاعة إبليس السابقة لم تكن حبا لله ولا تقربا إليه، فلو أنه كان يبتغي وجه الله في سبل طاعته لبادر بالسجود حين رأى الملائكة يسجدون، فليس أحب للطائع لمولاه من أن يكون مصاحبا للطائعين، فسقط بذلك القناع عن نيته الحقيقية؛ ولذلك سأله الحق سبحانه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِـمَـا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَـكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [سورة ص- ٧٥]، والمراد - والله تعالى أعلم - أما يكفيك أني خلقت آدم بيدي؟! وأي تشريف له أكثر من هذا؟! أليس في خلق الله له بيديه ما يجعل المحب لله يسارع إلى تنفيذ أمره؟ أما أن يعرض أمر الله على نفسه وهواه فإن وافق الأمر ميلا أطاع، وإن خالف الهوى أعرض وتكبر!! فلما عرض إبليس أمر السجود على نفسه، قال له هواه: أنت خير منه، هو من الطين خلق وأنت من النار، فسولت له نفسه الرفض، والكبر، والفسوق عن أمر الله ، ولهذا جاء التصريح بقوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ليدحض دعوى إبليس واعتقاده في نفسه أنه مع الملائكة، وبالتالي وقع الأمر عليه، يقول تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف- ١٢]، وفى سوره الحجر [٣٢-٣٣]: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۞ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

ونرى هنا الإشارة إلى صحبة إبليس للملائكة، فما له يتخلف عنهم اليوم؟ قال تعالى: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر- ٣٢]، فكانت إجابته ادعاء الخيرية والأفضلية، ونحن لا نقول: أن إبليس أعمل عقله وقاس النار مع الطين فرَجَّح عقله النار، فالأمر أعمق من هذا حيث يمتد في أعماق نفسه كما سبق بيانه، فماذا كان جزاؤه على جرائمه الأربع التالية؟

Upload by : altawhedmag.com

- أبـــى: لما أبى أن يسجد كان الجزاء من جنس عمله، فالإباء هو الترفع والرفض أن يكون مع الطائعين، فكان الجزاء هو الخروج من رحمة الله والطرد، قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر- ٣٤].
- استكبر: والاستكبار وضع النفس في مكانة ليست لها وأعلى من منزلة بني جنسه، فكان الجزاء من جنس العمل، فجزاء العلو والاستكبار هو الهبوط والاستصغار، قال تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف- ١٣].
- كان من الكافرين: فكُفْر إبليس كانت عاقبته إلصاق اللعنة به، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر- ٣٥].
- فسق عن أمر ربه: أي خرج عن أمر ربه واعترض عليه، وكان له السبق فهو أول من سن هذا في الكون، فكان جزاؤه أن كل من سار على دربه أهلكه معه، قال تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف- ١٨].

وهنا وجد إبليس نفسه قد كُشفت، وحقيقته قد تعرت وظهرت، وخسر كل شيء وطرد من رحمة الله ، وأصبح من الصاغرين، وحل به وبمن تبعه الغضب، وخُص باللعنة إلى يوم الحساب، فاشتعل كيانه كله حقدا على حقد، وحسدا على حسد على هذا الخليفة الذي كان السبب الأول في فقده لكل شي، فأراد أن يفني عمره كله في إفساد حياة هذا البشر، فتوعد أن يحول دون وصول آدم وبنيه من بعده إلى الخلافة في الأرض والتمكين فيها، وأن يكرس عمره لهذا الغرض، ولكن كيف يحتمل العمر المحدود عبء هذه المهمة الإفسادية التي يحركها هذا الحقد الهائل، فدفعه ذلك أن يطلب من الله المهلة، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر ٣٦: ٣٨، وسورة ص٧٩: ٨١].

هذا إبليس قد غلبت عليه الشقوة، فأعطاه الله النظرة استحقاقا للسخط، واستكمالا للبلية، وإنجازا للعدة، فاستجاب لطلبه وأمهله.

لقد ظن إبليس حين علم أن الله تعالى جاعل في الأرض خليفة، أنه المراد بهذا المقام، فكأن الله تعالى ابتلى إبليس باختيار آدم ليكون الخليفة في الأرض، هذا الابتلاء الذي أظهر حقد إبليس، ورياءه، وعدم إخلاصه في طاعة مولاه، كما ابتلى الله تعالى آدم بإبليس حين أكل من الشجرة، إلا

Upload by : altawhedmag.com

أنه بادر إلى التوبة، لهذا كان الكبر من إبليس سببا في حرمانه من رحمة ربه، بينما كان خضوع آدم وإخباته سببا في توبته، وتمت حكمة ربك سبحانه، أن كل متكبر من بني آدم في مرتبة إبليس، وأن كل منيب خائف من ذنبه فهو في مرتبة آدم عليه السلام.

وتكلم إبليس ليحدد المهمة التي سيقوم بها خلال هذه المهلة، وها هو منهج القرآن الخاتم يحدد لنا هذا الأمر ليأخذ كل منا حذره، وليعلم أسلوب إبليس، ومداخله، وخطته التي وضعها لنفسه.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

خطة إبليس وانتقامه من البشر

عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لما صور الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام تركه، فجعل إبليس يطوف به ينظر إليه، فلما رآه أجوف قال: ظفرت به؛ خلق لا يتمالك﴾[1].

يصف القرآن الكريم خطة إبليس في العديد من المواضع، بحيث يحذر المؤمنين من أساليب الشيطان، وعندما يكون النقل عن إبليس نفسه، فلا مجال للتأويل، أو الاعتذار بالجهل وسلامة النية، يقول إبليس: ﴿لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۞ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۞ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء ١١٨: ١٢٠]، ويستكمل إبليس عرض خطته ويأتينا البيان في سورة الحجر [٣٦: ٤٠]: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، وقال أيضا: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۞ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف ١٦: ١٨].

ويقول الله ﷻ في موضع آخر: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلا ۞ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۞ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾ [الإسراء ٦٢: ٦٥].

---

١ حديث أنس بن مالك رواه أحمد بن حنبل في الزهد صفحة ٦٢، وفي مسنده ٣: ١٥٢، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٤، والبيهقي في الأسماء والصفات ٣٨٦، والحاكم في المستدرك ٢:٥٤٢ وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني حديث ٢١٥٨

Upload by : altawhedmag.com

من هذه الآيات نرى خطة إبليس وأهدافه واضحة، وذات عناصر ثابتة، فإذا أمعنا النظر فيها لوجدنا القرآن الكريم يفصل لنا كل عنصر بالتفصيل، وتَأَمُّلُ هذه العناصر مهم جدا، فمن أبصرها أدرك خطة عدوه، فاحتاط ورسم خطط دفاعه عن نفسه، وهذه العناصر هي:-

أولا: قطع الطريق الموصل إلى الله .

تعهد الشيطان أن يكون قاطع طريق للسالكين إلى الله بكل وسيلة، فمن أراد السير على الصراط المستقيم فليعلم أن الشيطان لا يرضيه هذا، وأنه سيحاول إزاحته بأي شكل، فهو يقول: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف١٦-١٧]، فهو إمّا أن يقطع الطريق بأسلوب مباشر، أو يأتي من خارج منهج الله داعيا النَّاس إلى الانحراف إلى اليمين، أو الشمال، أو الرجوع والنكوث إلى الخلف، فالإفراط في إتجاه يمثل التفريط في أمر الله، وفي الإتجاه المعاكس يمثل الغلو.

ثانيا: الإفراط في الأماني.

يقدم الشيطان أماني وخيالات يشغل بها قلوب النَّاس ويملأ عليهم وجدانهم، ولا يتوقف الأمر عند الأماني، وإنما يتجاوزها إلى الوعود البراقة، ولهذا جاءت الآيات: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء-١٢٠]، والغرور لا يتبعه إلا كل غِرٍّ أحمق، فهو كما قال الله ﷻ: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

ثالثا: تزيين الفعل السيئ.

إن الشيطان لا يقدم أماني ووعود فقط، ولكنه يزين السوء، فتراه العين حسنا، وتنبعث في النفس رغبة وشهوة، فإذا وقع العبد في معصية استمر التزيين حتى يصده عن سبيل الله ﷻ، ويمنعه في النهاية من الهداية، يقول تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل- ٢٤].

Upload by : altawhedmag.com

رابعا: السيطرة على البشر.

وأول مراحل هذه السيطرة:

١. يكون لمن سلك سبيل المعصية، فيبدأ الشيطان بإصدار الأوامر كما جاء على لسانه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء- ١١٩]، فالأمر هنا يبدأ بإغلاق الآذان عن الهداية، وتعطيل حاسة السمع التي خلقها الله ﷻ؛ لتتلقى العلم، والفهم، والهداية.

٢. ثم يأمر إبليس الإنسان أن يغير خلق الله ﷻ، والمعنى هنا أن للإنسان حواس وطاقات خلقت لأغراض معينة، ويسعى الشيطان إلى تحويل الإنسان حتى يستخدمها في غير ما خلقت له، فلنضرب مثالا آخر غير السمع، كالشذوذ الجنسي: فذلك تغير لاستعمال أعضاء الإنسان.

٣. فإذا تتبع العاصي خطوات الشيطان، وإذا استجاب العبد لأوامره رغم تحذير القرآن الكريم حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور- ٢١]، فإن الشيطان يستبد به، ويقهره، ويجعله مطية له، وهكذا يصف القرآن وعيد الشيطان: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] [الإسراء- ٦٢].

٤. وقد يختفي الشيطان وراء أهواء الناس، ويكتفي بتزيين الباطل لهم، كما يميل بهم عن هدي الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان-٤٣].

خامسا: عبادة الشيطان من دون الله :

هذا الهدف هو غاية أهداف الشيطان، وليست عبادة الشيطان أن يسجد الإنسان له، ولكن عبادته الحقيقية أن يحلل الشيطان لأوليائه الحرام، ويحرم عليهم الحلال فيتبعونه، ثم يضربون بكلام الأنبياء ووحي الله لهم عُرْضَ الحائط، وقد ذكر القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم

١ والاحتناك: هو أن يضع الفارس في فم جواده اللجام بين شفتيه، فتتم سيطرته عليه ويسهل توجيهه بأقل مجهود.

Upload by : altawhedmag.com

عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم-٤٤]، ويصل الشيطان إلى ذلك على مراحل:

١. أولها: الغواية: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص-٨٢]، أقسم الشيطان لعنه الله بعزة الله ﷻ أن يغوي البشر جميعا، فمنعه الحق تبارك وتعالى أن يكون له على المؤمنين المخلصين سبيلا.

٢. ثانيها: الإضلال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ [النساء-٦٠]، يتمنى الشيطان أن يضل أولياءه إلى أقصى مدى للضلال، فإذا تمكن الشيطان من أحد إلى هذه الدرجة أدخله في عبادته، وأخرجه من عبادة ربه، ويكون العبد قد خالف عهد الله ﷻ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [سورة يس-٦٠]، ومن فعل ذلك حق عليه وصف الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء- ١١٩]، والنتيجة انقسام النَّاس إلى فريقين، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف-٣٠].

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الرابع

أساليب الشيطان

بعد أن قدمنا الملامح الأساسية لخطة الشيطان، فإننا سنبين خطته هذه بعد أن يحولها إلى بنود عمل - بلغة العصر - والقرآن الكريم يوضح أساليب الشيطان تماما، والأمر يحتاج منا إلى تجميع الآيات ثم النظر فيها، وتأملها فقط، فترى برنامجا عمليا مفصلا نعرضه مستعينين بالحق جل شأنه.

١. الوسوسة:

وهي إلقاء الخواطر في النفس البشرية حين غفلتها عن الله تبارك وتعالى، فإذا كان الإنسان ذاكرا لله تجد الشيطان خانسا حقيرا لا يملك على الإنسان أدنى سلطان، فالوسوسة من أهم أساليب الشيطان، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَـهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف-٢٠]، ﴿مِـنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [النَّاس٤-٥].

٢. الهمزات:

وهى دفعة من الخواطر مرة واحدة يوجهها الشيطان إلى النفس البشرية، وقد تزداد هذه الخواطر حتى كأن الشيطان حضر بنفسه، واستولى على الشخص الذي يهمز له، وهذا ما طالبنا الحق تبارك وتعالى بالاستعاذة منه، يقول تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون٩٧-٩٨].

٣. النزغ:

الشيطان ينزغ بين الإنسان ونفسه ليفسد عليه حاله مع ربه، وبين المرء، وزوجه، وأبويه، وأولاده، وإخوته، كما في قصة نبي الله يوسف عليه السلام؛ ليقطع الصلات الطيبة، وإذا وجد لنفسه مدخلا أهلك النَّاس، وأشعل بينهم نار الفتنة، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف-٢٠٠].

Upload by : altawhedmag.com

٤. النسيان:

إذا تمكن الشيطان من النفس استطاع أن يجعلها تنسى ما هو مطلوب منها، قال تعالى:﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام-٦٨]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف-٦٣]؛ لذلك يجب على المسلم أن يكون ذاكرا لله ﷻ على الدوام بالأذكار الشرعية الواردة عن رسول الله ﷺ، ففيها النجاة والوقاية من أساليب الشيطان.

٥. طائف من الشيطان:

وهذا النوع من الإلقاء يضطر الشيطان إلى استخدامه حين يتعامل مع المؤمن التقي، فالشيطان في هذه المعركة من أضعف ما يمكن، ولا يستطيع أن يسيطر على نفسه، ولا يقدر على إلقاء وساوسه، أو همزاته، فإنه يتراءى للعبد المخلص كطائف من بعيد، فكل ما يقدر عليه أن يمسه طائف، فيعود التقي إلى ذكر الله تعالى، واستحضار عظمته، فينقشع عنه هذا الطائف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف-٢٠١].

٦. وحي الشيطان لأوليائه:

فإذا صار المرء من حزب الشيطان أمده بالأباطيل إلقاء ووحيا، وراح يؤزهم أزا، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء-٢١٠]، كذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام- ١٢١]، وهذا الوحي الذي يوحيه الشيطان إلى أوليائه وطاعتهم له هو الشرك بعينه، وهو حقيقة عبادة الشياطين، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم-٨٣]، يستخدم الشيطان - في كل ما سبق بيانه من أساليب - القول فقط، ولا يتعداه إلى دائرة الفعل، التي هي أوسع، وجوانبها أشمل، وصورها متعددة، نوضحها فيما يلي:-

٧. المشاركة في المال والولد:

قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء-٦٤]، فالشيطان يسعى بكل السبل بالقول، ثم بالجند والأتباع، ثم بإدخال الحرام في الأموال، وكلما

Upload by : altawhedmag.com

ازداد المال الحرام في أموال النَّاس كلما زادت حصة الشيطان في هذه الشركة، ثم يسعى لزيادة نصيبه بزيادة نسبة الحرام، وكل لحم نبت من حرام فهو نصيب الشيطان في الدنيا والنار أولى به في الآخرة، والشيطان أيضا يشارك العصاة والغافلين؛ ليس فقط في الطعام والشراب، وإنما في الأولاد، وذلك بإحدى وسيلتين:

أولهـا: الإطعام من حرام.

وثانيها: عند الجماع حين لا يذكر الرجل ربه قبل الجماع يسبقه الشيطان إلى امرأته، فينبت الجنين وللشيطان فيه نصيب.

٨. عمل الرجس:

اخترع الشيطان الموبقات في الأرض، وجعلها أبوابا من دخلها أودت به إلى النار، وقد أشارت إليها الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْـمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة-٩٠].

- فالخمر أم الخبائث وأم الكبائر، ولم يتعاظم شأن الخمر إلا لأنها تخامر العقل، وتحجبه عن أداء وظيفته، فالسكران والمجنون سواء بسواء، هذا حجب عقله باختياره، وهذا رغما عنه، والعقل من أعظم نعم الله على البشر، وبه سادوا، وارتقوا، وعلموا، وعرفوا الطاعة من المعصية، والحلال من الحرام، وفاقد العقل يفعل ما لا يحمد عقباه.
- والميسر سبيل لأكل أموال النَّاس بالباطل.
- والأنصاب والأزلام شرك وكفر بالله ﷻ.

وجميع هذه الصور رجس صنعه الشيطان بيديه، ثم يتولى تحسين صورتها وتجميلها لأتباعه، ومن صور التزيين أن يسمى الأشياء بأسماء جديدة حتى ينسى النَّاس الاسم الذي حرمه الله ، فتزداد جرأتهم على المعاصي، ألا ترى أسماء الخمر وأنواعها، بل إن تصميم لوحات الإعلان عن الخمور تخرج في أبهى صورها حتى يغيب عن النَّاس أنها رجس من عمل الشيطان، كما أن اللوحات والصور المنتشرة هنا وهناك عن موائد القمار، والتي يجلبون إليها أجمل الفتيات في أقصر الثياب، والسيجار الفاخر، والأجهزة الحديثة، وأرقى الديكورات والأثاث، ولقد عَرَّفَنا القرآن الكريم مَن وراء إخراج هذه الأمور.

Upload by : altawhedmag.com

٩. تعليم النَّاس السحر:

يعد الشيطان أستاذ السحرة ومعلمهم الأول؛ فهو الذي أظهر الطلاسم، وابتكر الأوفاق، وعلوم الحرف والجفر [١]، كما خدع تلاميذه حين نسب تعاليمه لسليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة-١٠٢]، وقد ذكر القرآن الكريم أن الساحر لا يتلقى فنون السحر حتى يحذره الملكان قائلَيْنِ له: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ [البقرة-١٠٢]، فإذا أصر فقد أضاع إيمانه، وأخرجه من قلبه، ثم أحل محله دخان الكفر، وظلام السحر، وعبادة الشيطان، وأصبح مصيره في الآخرة النار.

١٠. فتح باب الجدل:

الجدل باب من أبواب هلاك الأمم والجماعات؛ ولهذا حثت الأحاديث النبوية على ترك الجدال، وإن كان المرء محقا، فعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة[٢]، لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[٣]، ويشرح القرآن أن الجدال أسلوب من أساليب الشيطان للإيقاع بين النَّاس، وليزيدهم تفرقة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام-١٢١].

١١. إيقاع العداوة والبغضاء بين النَّاس:

لم يخترع الشيطان أساليبه إلا بغرض التفرقة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة-٩١]، كما أنه يزرع بين النَّاس الحقد، والحسد، وتمنى زوال نعم الله على خلقه، ويصدهم عن ذكر الله عز وجل، وعن الصلاة.

---

١ للاستزادة في هذا الموضوع راجع كتاب "عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة" الفصل الثالث من الباب الثاني عشر .

٢ المراد بربض الجنة: أي ما حول الجنة وفي أطرافها.

٣ حديث أبي أمامة انفرد به أبو داود في سننه حديث رقم ٤١٦٧

Upload by : altawhedmag.com

١٢. التخويف من الفقر:

ضمن الله تعالى للخلق أمرا، وكلفهم بآخر،

- أما الأمر المضمون فهو: الرزق؛ حيث تعهد الحق تبارك وتعالى برزق عباده، وتكفل به، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات٢٢-٢٣].
- وأما التكليف فهو: الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات٥٦: ٥٨].

فماذا فعل إبليس مع البشر، عكس لهم الأمرين فشغلهم بالرزق، وصرفهم عن العبادة والقيام بتكاليفها، بل خوف النَّاس من الفقر، وجعله رعبا يؤرقهم ليل نهار، فلما كثر حِرْص النَّاس على أموالهم وخشيتهم من الفقر غفلوا عن حقائق الإيمان بما قدره الله ﷻ من الأرزاق ووعد به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران-١٧٥]، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَالله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة-٢٦٨]؛ ولذلك تجد الشيطان يعد النَّاس الفقر، ويخوفهم من فعل الخير؛ حتى يتركوا الطاعات، ثم يأمرهم بالفحشاء.

ومن كلام عيسى ابن مريم، أنه قال:

- "تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل، وإنكم علماء السوء، الأجر تأخذون والعمل تضيعون، يوشك رب العمل أن يطلب عمله، وتوشكون أن تخرجوا من الدنيا العريضة إلى ظلمة القبر وضيقه، الله نهاكم عن الخطايا كما أمركم بالصلاة والصيام.

- كيف يكون من أهل العلم من سَخِط رزقه، واحتقر منزلته، وقد علم أن ذلك من علم الله وقدرته؟!

- كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله فيما قضى له، فليس يرضى شيئا أصابه؟!

- كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثَرُ عنده من آخرته، وهو في الدنيا أفضل رغبة؟!

Upload by : altawhedmag.com

- كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى آخرته، وهو مقبل على دنياه، وما يضره أشهى إليه مما ينفعه؟!

- كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام؛ ليخبر به، ولا يطلبه ليعمل به؟!"[1].

١٣. الإذلال:

إذا اكتسب العبد السيئات والمعاصي فقد قدر عليه الشيطان، وبذلك يجعل لنفسه الحق أن يعاوده بطلب المعصية مرة أخرى، تارة من باب الشهوة، وأخرى من باب القنوط من التوبة، وثالثة من باب قرناء السوء، وهكذا لا تنتهي الصور المختلفة، وكل ذلك يعبر عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران-١٥٥].

١٤. الخذلان:

إن الشيطان لا يكتفي بكل هذا، وإنما يضيف إليه خذلانه لأعوانه وأوليائه، فهو أرذل الأصدقاء وأكثر الشركاء نذالة، يقول تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان-٢٩]، وفي يوم القيامة يسارع إلى التهرب من أتباعه هربا من المسئولية، فلا سند عنده ولا حماية لنفسه، فكيف يقي غيره؟!، ويصف القرآن حال الشيطان يوم القيامة بقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم-٢٢].

ويقول تعالى مبينا موقف الشيطان وهَوَانه يوم القيامة: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر-١٦]، فها هو يتبرأ ممن أطاعه واتخذه وليا من دون الله ، ويلقي اللوم على الإنسان، ويعترف أنه لم يكن له عليه أدنى سلطان.

١٥. كيد الشيطان:

يقرر القرآن الكريم ضعف تأثير الشيطان على النَّاس عامة وعلى أولياء الله الصالحين المخلصين المتقين خاصة، يقول سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

---

١ أخرجه الدارمي في سننه ٣٧٠ عن هشام صاحب الدستوائي، قال: قرأت في كتاب بلغني أنه من كلام عيسى ابن مريم.

Upload by : altawhedmag.com

[النساء-٧٦]، ومع هذا لا يسأم الشيطان من أداء دوره في غواية ابن آدم؛ فعداوته للبشر طمست على عينيه، فلا يَمَلّ من الوسوسة، والتزيين، وغير ذلك من سبل مكايد الشيطان وحيله، كما ورد في الأثر: "أن إبليس لما أنزل إلى الأرض، قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيما، فاجعل لي بيتا، قال: الحمام.

قال: فاجعل لي مجلسا، قال: الأسواق ومجامع الطرقات.

قال: فاجعل لي طعاما، قال: كل ما لم يذكر اسم الله عليه.

قال: فاجعل لي شرابا، قال: كل مسكر.

قال: فاجعل لي مؤذنا، قال: المزمار.

قال: فاجعل لي قرآنا، قال: الشعر.

قال: فاجعل لي كتابا، قال: الوشم.

قال: فاجعل لي حديثا، قال: الكذب.

قال: فاجعل لي رسلا، قال: الكهنة.

قال: فاجعل لي مصايد، قال: النساء"[1].

ولضعف كيد الشيطان أمر الله تبارك وتعالى أولياءه وعباده الصالحين أن يقاتلوا أولياء الشيطان، فهو لا يستطيع حمايتهم ولا حماية نفسه.

والشيطان يتبرأ من أعوانه يوم القيامة، ويعترف باقتصار دوره على دعوة الناس إلى المعصية دون أن يُجبر أحد، والعصاة ومَن في قلوبهم مرض يسارعون في الإثم والكفر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم-٢٢]، ويوضح هذا الفهم قول القائل: "تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى عنك الولي، فلا تظن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض".

---

١ حديث أبي أمامة أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وحيله، ورواه عنه ابن قيم الجوزية في كتاب إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢١٤، وقال: وشواهد هذا الأثر كثيرة، فكل جملة منه لها شواهد من السنة أو من القرآن، وروي بلفظ آخر رواه الطبراني في معجمه، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، عن ابن عباس بلفظ مقارب، وقال: منكر.

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الثالث

- اختار الله تبارك وتعالى الإنسان ليكون الخليفة في الأرض، وكرمه، وأسجد له ملائكته.
- علم الله تعالى آدم الأسماء كلها، وعرض عليه الإمانة فقبلها.
- خلق الله تعالى الأروح كلها في عالم الذر، وعرفهم به سبحانه، وأشهدهم على أنفسهم، وأخذ عليهم الميثاق بالإيمان به.
- جمع الله تعالى الأنبياء والمرسلين، وأخذ عليهم الميثاق باتباع خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، وتأييده، ونصرته.
- قمنا في هذا الباب بالرد على رأي د. عبد الصبور الذي يؤيد نظرية النشوء والارتقاء، التي تأكد أصحابها من بطلانها.
- تكلمنا عن إبليس والغواية وعن خطة إبليس وانتقامه من البشر حيث تعهد الشيطان أن يكون قاطع طريق للسالكين إلى الله بكل وسيلة ثم يقدم الأماني والخيالات التي يشغل بها قلوب النَّاس وذكرنا أنه لا يقدم أماني ووعود فقط، ولكنه يزين السوء أيضا، ثم يحاول أن يحكم السيطرة على من يستمع لغوايته حتى يصل للغاية التي يرجوها وهي عبادته ، وليست عبادة الشيطان أن يسجد الإنسان له، ولكن عبادته الحقيقية أن يحلل الشيطان لأوليائه الحرام، ويحرم عليهم الحلال فيتبعونه.
- اتبع إبليس خطة لإفساد البشر، والانتقام منهم، تمثلت في قطع الطريق الموصلة إلى الله تعالى، والإفراط في الأماني، وتزيين الفعل السيء.
- فإذا استجاب أحد لتلك الخطوات سيطر عليه الشيطان، وأمره ونهاه، حتى يكون من جنده وأعوانه، ويصل به الأمر إلى عبادته إبليس من دون الله تعالى.
- ولإبليس أساليب يتبعها دائمًا تتمثل في الوسوسة، والهمزات، والنفخ، والنسيان، ووحيه لأوليائه، والمشاركة في الأهل والمال والولد، وعمل الرجس، وتعليم الناس السحر، والنزغ بين الناس، وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم، والوسوسة بتكذيب وعد الله تعالى، وإيعاد الإنسان بالفقر.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الرابع

آدم وجنة التدريب

١. تأملات في شأن الخليفة

٢. رحلة الإنسان في الكون

٣. عـوالم الإنســان

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

شاءت إرادة الله ﷻ أن يخلق لآدم عليه السلام زوجة من نفس العناصر التي خلق منها، هذه الزوجة التي خلقت من نفس آدم عليه السلام ليسكن إليها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف-١٨٩]، هذا السكن آية من آيات الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم-٢١]، وقد كان في علم الله تعالى أن آدم عليه السلام أبا البشر، فخلق الله له من نفسه حواء، ثم بث منهما رجالا كثيرا ونساء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء-١]، ففي علم الله جل شأنه أن آدم وحواء سيكونان أول أسرة على ظهر الأرض، وذلك تقدير العزيز الحكيم القائل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة-٣٠]، إذن فخلافة آدم عليه السلام لن تبدأ إلا بعد نزوله للأرض، ولكن الأمر الإلهي صدر لآدم وحواء بدخول الجنة، وليس بالنزول إلي الأرض، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة-٣٥]، وقال شبحانه: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف-٩].

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

تأملات في شأن الخليفة

أولا: الحكمة من دخول الجنة

إذا نظرنا إلى صيغة الأمر الإلهي بدخول الجنة لوجدنا كلمة: ﴿اسْكُنْ﴾ هي المستخدمة، فالجنة لم تكن لآدم وحواء مستقرا، أو دار مقام، كما أن نوعية الجنة التي أُمِرَا أن يسكناها لم يَرِد في القرآن ذكر لاسمها فهي ليست جنة النعيم، ولا جنة الخلد، فهي سكن، والساكن لا بد أن يرحل عن داره إلى دار خلافته ليقوم بمهامه الكبرى، وهكذا شاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن يتدرج آدم عليه السلام في معرفة ربه قبل بدء خلافته على مراحل ثلاثة، هي:

- **علم اليقين**: وهى مرحلة تلقى الأسماء عن الله ﷻ، ويمكن أن نسميها مرحلة العلم النظري، وقلنا: إن آدم عليه السلام تعرف فيها على صور التجليات الإلهية بكافة الأسماء الحسنى.
- **حق اليقين**: وهي مرحلة تطبيق ذلك العلم، وتم ذلك خلال مناظرة آدم عليه السلام والملائكة، وهذه المرحلة انتهت بأمر السجود لآدم.
- **عين اليقين**: وهي مرحلة التذوق والمعاينة، وبدأت بدخول آدم عليه السلام الجنة، فشاهد مظاهر الكرم الإلهي، وعاين الجود الرباني، وما أعده الرحمن في دار الرضوان لأهل التقوى والإيمان، فها هي العيون جارية، والسرر مرفوعة، والأكواب موضوعة، والنمارق مصفوفة، والزرابي مبثوثة متكئين فيها على الأرائك، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، ودانية عليهم ظلالها، وذللت قطوفها تذليلا، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها كافورا، تجري من تحتها الأنهار، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبعد الانتهاء من هذه المرحلة كان لا بد من نزول آدم عليه السلام إلى الأرض، ولكن هناك عدو متربص به قد قطع على نفسه العهود أن يتفرغ لآدم ونسله؛ لذلك فإن صولات وجولات ستكون بين الخير والشر ومحل الصراع هو نفس الإنسان، فإذا انتصر الشيطان على الضعف الإنساني وقت الغفلة وقعت المعصية، فإذا وقعت المعصية فما المخرج، وما السبيل لبني آدم وبنيه من بعده حتى

Upload by : altawhedmag.com

يرجعوا إلى الله ﷻ، ولهذا كان الدرس الأخير لآدم عليه السلام قبل أن ينزل إلى دار الخلافة، أن يتدرب عمليا على كيفية الإنابة والرجوع إلى الله ﷻ، وكان هذا الدرس متمثلا في الأكل من الشجرة.

ثانيا: الخروج من الجنة

حذر الحق ﷻ آدم عليه السلام من موالاة الشيطان قبل دخوله الجنة، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۞ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ [سورة طه ١١٧: ١١٩]، وتحدد الآية بصورة قاطعة أن هدف الشيطان هو إخراج آدم من الجنة، كما وضعت الآية النتائج المترتبة على خروجه أمام ناظريه، ولكن كيف حدث الخروج؟، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة-٣٥]، ومن لطائف هذا الخطاب الإلهي أن جزاء مخالفة الأمر والأكل من الشجرة هو التحول إلى درجة الظالمين، فيكفي أن يكدح الإنسان طلبا للطعام، والشراب، والكساء، والمأوى، فالآية لَمْ تربط بين الأكل من الشجرة والخروج من الجنة بشكل مباشر، وإنما جاء الربط تلميحا، فكل ما في الجنة حلال طيب، والنهي الوحيد هو عن الأكل من الشجرة، وهناك عدو متربص بالإنسان يسعى بكل الجد والطاقة لإخراجه منها، والله تبارك وتعالى قَدَّر أزلا أن آدم خليفة في الأرض، ولا بد له من ممارسة مهمته بعد إعداده لها، والآيات القرآنية أيضا تعلمنا كيف يكون الأدب مع الله ﷻ، حيث لا يجوز أن ننسب له إلا كل كمال، فإن السوء لا يأتي إلا من النفس والشيطان.

ولقد شرح لنا القرآن الكريم أول تطبيق عملي لأسلوب الشيطان، وإذا تتبعناه وجدناه تطبيقا حرفيا لما سبق بيانه كما يلي: قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف٢٠-٢١]، وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ [سورة طه-١٢٠]، فالوسوسة كانت مرة لآدم وحواء، ومرة أخرى لآدم وحده، وفى كل مرة حاول الشيطان الاقتراب من زاوية مختلفة؛ فهو يعدد أفكاره ولا يكررها، فها هي طرقه:

- ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾، فهو يلبس ثياب الناصحين على الدوام، وأنَّى يأتيك النصح من عدو كذوب، فكيف لعدوك أن يدلك على خير؟!

Upload by : altawhedmag.com

- ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا﴾، من باب فتح باب الجدل، وإعمال المنطق لمعرفة حكمة الله ومراده من الأوامر والنواهي، فها هو الشيطان يحاول أن يقدم لآدم تفسيرا عن حكمة هذا النهي، حتى يزين الفعل السيئ ويتجرأ آدم على المعصية.
- ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، قال الله ﷻ عن الشجرة: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، أما الشيطان فيسميها شجرة الخلد.
- ﴿تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، فالنهي عن الأكل يحوله الشيطان إلى خلود في الجنة.
- ﴿وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾، وهو وعد كاذب بأن مخالفة أمر الله ﷻ تورث ملك لا يبلى.
- ﴿تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، وهذا من باب الأماني الكاذبة، فكيف للبشر أن يكون مَلَكا، وأنى لَمَلَك أن يصير بشرا!

واستطاع إبليس أن يروج لهذه الأباطيل بإحداث شيء لم يكن في الكون من قبل، وهو الحلف بالله كذبا، ولسان حال آدم عليه السلام يقول: "ما ظننت أن يحلف أحد بالله كذبا"، ثم أن نية آدم عليه السلام ليست عصيان الله ﷻ، أو عناد أمره، وإنما دعاه للأكل من الشجرة تصديقه لليمين الكاذب الذي قدم له الوسيلة لأن يكون خالدا في جوار المعبود، وأن يبقى في الجنة وهذا المُلْك الذي لا يبلى، فحال أكل آدم من الشجرة من جواره لربه، والحياة في جنته، وآدم بين أمرين إما أن يكون ذاكرا لأمر الله متعمدا معصيته، أو أن يكون ناسيا لأمر الله راغبا في التقرب إليه، والقرآن الكريم ينفي الأول، ويثبت الثاني، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه-١١٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ معناه - والله تعالى أعلم بمراده - أي لم نجد له عزما على المعصية، ولا تعمدا لها، قال تعالى: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه-١٢١]، وفى موضع آخر: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف-٢٢].

ثالثا: الاجتباء والكلمات

لقد وقع المحظور وأكل آدم وحواء من الشجرة، وقامت عليهما الحجة، واستحقا العقاب من الله ﷻ، ولكن آدم عليه السلام أقر بالمعصية، واعترف وزوجته بالظلم، وسارعا إلى طلب المغفرة

Upload by : altawhedmag.com

والرحمة من الله ﷻ، وأظهرا الذل والانكسار بخلاف إبليس ومعصيته؛ حيث أظهر الإباء والاستكبار، قال تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف-٢٣]، وبهذا يكون آدم عليه السلام قد هُدِي إلى أسباب المغفرة والتوبة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة-٣٧]، فمن أقر بذنبه واعترف بظلم نفسه، وسبح ونزه ربه، وطلب العون منه، فإن التواب الرحيم سيفيض عليه كما أفاض على أبي البشر آدم عليه السلام بكلمات دعا بها ربه فتاب عليه، ولكن عطاء الله لآدم عليه السلام لم يتوقف عند التوبة فقط بل تعداها إلى الاجتباء، والاصطفاء، والهداية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [سورة طه-١٢٢].

وبهذا تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، فقَبْل نزول آدم عليه السلام إلى الأرض حيث بداية خلافته، علمه الله ﷻ الدرس العملي الأخير الذي سيحتاجه بنوه إلى يوم القيامة؛ فعداوة الشيطان مستمرة وحقده عليهم يتزايد، واشتغاله بإفسادهم لا يَفْتُر، ولهذا سيعرضهم للمعاصي، ولما كانت المعصية هي الداء، فقد ذاق أبو البشر الدواء، وعندما جاء الأمر الإلهي بالهبوط إلى الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة-٣٨]، فذاق آدم عليه السلام أنوار المغفرة والتوبة والرحمة، فازداد بذلك معرفة بربه.

وهنا يجدر الإشارة إلى طاعات إبليس التي أورثته عزا واستكبارا حتى عتا عن أمر ربه، وفي المقابل معصية آدم عليه السلام التي أورثته ذلا وانكسارا، فنال بذلك درجات الاجتباء والاصطفاء، ولهذا قيل: "رب معصية أورثت ذلا وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزا واستكبار"[1]، وكذلك قيل: "أكرم بها معصية أورثت خلافة، وسنت التوبة لمن بعده إلى يوم القيامة، وكان نزول آدم عليه السلام إلى الأرض بحكم قضاء[2] الله تعالى قبل أن يخلق السموات والأرض"، وهذا المعنى مأخوذ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته

١ إيقاظ الهمم في شرح حكم ابن عطاء الله السكندري - لابن عجيبة ١٨٥

٢ لقوله ﷻ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

Upload by : altawhedmag.com

وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدِّر عليَّ قبل أن أخلق، فقال رسول الله ﷺ: فحج[١] آدم موسى، فحج آدم موسى»[٢].

ولابن قيم الجوزية كلام نفيس للغاية ننقله عنه بتصرف، يقول فيه: "فإن الله ﷻ لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لِـمَا له من الحِكَم التي تعجز العقول عن معرفتها، والألسن عن صفتها، فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله. فالله ﷻ له الأسماء الحسنى، منها الخالق، البارئ، المصور، البديع، ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء، فخلقه أطوارا وأصنافا، وسبق في علمه تفضيل آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته، واختصاصهم بالعبودية الاختيارية التي هي أفضل مقامات العبودية حيث يأتون بها طوعا واختيارا، لا كرها واضطرارا، فلما خلقهم لعبادته، وهي الغاية منهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات-٥٦]، ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء، وإنما يحصل في دار المحنة والابتلاء".

لما خلق الله تبارك وتعالى آدم وذريته من عناصر عديدة، أوجدت فيه رغبات النفس، ومستلزمات الشهوة والفتنة، مع داعي العقل والعلم، فتم مراد الحق سبحانه، وأظهر لملائكته، بدائع قدرته، وعجائب صنعه، فالعزة والجبروت، مع الرحمة والبر واللطف في سلطانه وملكه، فاقتضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم ويل مخالفته وعرفه ما يُجنى من عواقب إجابة داعي الشهوة والهوى؛ ليكون أعظم حذرا من عدوه، وأشد فرارا إلى الله، فمن أصيب مرة استعد في سيره وأخذ أهبة، وأعد لعدوه ما يدفعه. والله تبارك وتعالى له الخلق، واقتضت حكمته في خلقه أن يخلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، والأرض فيها الطيب والخبيث، والسهل والحَزْن، والكريم واللئيم، فعلم سبحانه أن في ظهر آدم من يصلح لمساكنته في داره، كما أنه سبحانه له الأمر: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَـمِينَ﴾ [الأعراف-٥٤]، وأمره شرعه ودينه الذي بعث به أنبياءه ورسله، وأنزل به كتبه، فكان الهبوط إلى الأرض كما قال ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ الله الْخَبِيثَ مِنَ

١ حَجَّ: أي غلب بالدليل والبرهان.

٢ متفق عليه، أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣١٥٧، ومسلم في كتاب القدر: ٤٧٩٣، ٤٧٩٤، ٤٧٩٥، ومالك في الموطإ حديث ١٣٩٤، والترمذي في سننه ٢٠٦٠، وأبو داود في سننه حديث ٤٠٧٩، وابن ماجه حديث ٧٧، وأحمد ٧٠٨٢، ٧٢٧٢

Upload by : altawhedmag.com

الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال-٣٧]، ولأن الله سبحانه يعلم أن في ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم دارهم التي هم لها أهل، حكمة بالغة ومشيئة نافذة، وذلك تقدير العزيز الحكيم، والله تعالى أعلم.

والله سبحانه له الأسماء الحسنى، ومنها: الغفور الرحيم، العفو الحليم، الخافض الرافع، المعز المذل، المحيي المميت، الوارث الصبور، كما أنه سبحانه الملك، الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويهين ويكرم، ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء، فأراد سبحانه أمر آدم وبنيه ونهيهم، وابتلاءهم واختبارهم، وليست الجنة دار تكليف، فأهبطهم إلى الأرض، وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي، فأظهر جل جلاله أثر أسمائه، فهو سبحانه يغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفع من يشاء، ويعز ويذل، وينتقم، ويمنع ويبسط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته.

ولله تبارك وتعالى الحمد المطلق الكامل الذي لا نهاية له، ولوازم حمده تعالى نوعان: فضل وعدل، إذ هو سبحانه المحمود على فضله كما هو محمود على عدله، فلا بد من ظهور أسباب العدل ليترتب عليها كمال الحمد الذي هو أهله، فتنوعت صور العطاء، وتفاوتت بين عباده أعظم تفاوت، ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمه وفضله، ويعرف أنه قد حباه بالإنعام وخصه دون غيره بالإكرام، ولو تساووا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها، ولم يبذل شكرها.

كما أن الله ﷻ أراد أن يتخذ من بني آدم أنبياء، ورسلا، وأولياء، وشهداء، يحبهم ويحبونه، فخلى بينهم وبين أعدائه وامتحنهم بهم، فلما آثروا مرضاته على أنفسهم وأموالهم نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلا، فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات، ولم يكن هذا إلا بالهبوط إلى الأرض.

ولما كان الله ﷻ يحب الصابرين ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الشاكرين، وكانت محبته أعلى الكرامات، اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

Upload by : altawhedmag.com

[البقرة-١٠٥]، فلا ريب أن حصول هذه المحبوبات لا يكون إلا بحدوث أسبابها، فمحبة الله للتائبين لا تنال إلا بالتوبة من الذنوب، والله ﷻ أفرح بتوبة عبده ممن أضل راحلته بفلاة، وبعد أن فقد الأمل في عودتها، وجدها عند رأسه، وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ، قال: ﴿لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده﴾، وفي رواية: ﴿وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته﴾، والتوبة لا تكون إلا بعد ذنب؛ لذلك فهما متلازمان، وحصول الذنب في دار النعيم - حيث لا تكليف ولا ذنب- فيها ممتنع، فلزم الهبوط إلى دار التكليف، والله تعالى أعلى وأعلم.

وجعل الله تبارك وتعالى الجنة دار جزاء وثواب، وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم، وجعلها درجات بعضها فوق بعض، وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض﴾، وحكمة الله سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها، وهي تُعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال، فمن إتمام إنعامه أن أسكن آدم وذريته دار الخلافة في الدنيا؛ ليمتحنهم فيها، وينال الصالحون الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات، فاتخذ إبراهيم خليلا، وكلم الله موسى تكليما، وأتم نعمته، وأعظم فضله، وختم رسالاته برحمته للعالمين محمد ﷺ، ومن النَّاس من تزود بالتقوى، ومنهم من سارع بالخيرات، ومنهم من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والجنة.

فإنه سبحانه لم يخرج آدم من الجنة إلا وهو يريد أن يعيده إليها أكمل إعادة، ولسان القدر يقول: "يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج منها، فلك ولولدك خلقتها، فإني أنا الغني عنها وعن كل شيء، وأنا الجواد الكريم، ولكن انزل إلى دار البذور، فإذا بذرت واستوى زرعك على سوقه وصار حصيدا فحينئذ تعالَ استوفه، وأنت أحوج ما أنت إليه: الحبة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فإني أعلم بمصلحتك منك، وأنا العلي الحكيم". فها هو آدم عليه السلام وقد تولى دار خلافته، وقد اتضحت مهمته، وظهر الفرق بينها وبين مهمة الملائكة.

لقد أجاب المنهج الإسلامي على العديد من القضايا ببيان واضح لا لبس فيه ولا غموض، ولا شطح فيه ولا غنوص، فالإنسان يفهم الآن جيدا إجابة التساؤلات التالي ذكرها ويعرف:

Upload by : altawhedmag.com

- من هو؟
- ولماذا خُلق في هذا الكون؟
- ومن الذي صنع كل هذا؟
- وما الحكمة وراء كل ما حولنا؟

ومن أهم الإجابات التي انفرد بشرحها القرآن الكريم -دون غيره من الكتب والرسالات الأخرى- أمر السجود لآدم، والسبب وراء طرد إبليس من الملإ الأعلى مذءوما مدحورا، وكذلك أوضح سر عداء إبليس لبني آدم؟ وسنجيب بإذن الله في الفصل التالي على سؤال:

- من أين جئنا؟ وإلى أين المنتهى؟

من خلال طرح الإسلام لعناصر الإنسان وعوالمه المختلفة ورحلته عبر الزمان.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

رحلة الإنسان في الكون

خلق الله تبارك وتعالى الكون، وجعل الإنسان خليفة في الأرض واستعمره فيها، وكلفه بعمارتها، وسخر له كل شيء.. ولكن حياة الإنسان على الأرض ليست إلا مرحلة متوسطة في حياته الكلية، فقد سبقتها مرحلتان، وستتلوها مرحلتان، فالإنسان في سفر طويل يتنقل عبر الزمان، ويهاجر من مكان إلى آخر لتحقيق هدف واحد حدده الحق سبحانه، حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات-٥٦]، كما أن صورة الإنسان وتكوينه تختلف تبعا لمرحلة سفره، وبما يناسب الزمان والمكان الذي يعيش فيه، ويمكن وصف رحلة الإنسان هذه كما يلي:-

أولا: الروح في الملإ الأعلى

ورد أن الله تعالى خلق أرواح بني آدم حين مسح ظهر آدم عليه السلام قبل أن ينفخ فيه من روحه، وفي ذلك اليوم خلق الله أرواح المؤمنين، وجعلها على يمين آدم، وقال سبحانه: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم خلق أرواح الكافرين، وجعلها على شمال آدم، وقال: هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، ويشير الحديث الشريف إلى هذا الموقف مفسرا تأثير اجتماع الأرواح يوم خلقت على الناس إذا التقوا في الدنيا بقول رسول الله ﷺ: ﴿الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف﴾، ولما اجتمعت الأرواح في صعيد واحد أخذ الله تعالى عليها عهدا، فشهدوا له بالوحدانية يوم: "ألست بربكم"، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف-١٧٢].

فالروح إذن خلقها الله تبارك وتعالى في الملإ الأعلى قبل أن يهبط آدم عليه السلام إلى الأرض، كما أخذ عليها العهد بالتوحيد كما أسلفنا، وبهذا استقر التوحيد فطرة في أرواح البشر، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: ﴿كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه﴾، مشيرا إلى ثبات الفطرة من يوم "ألست بربكم" إلى أن يولد المولود، ويشرع أولياء أمره في تلقينه معتقدات الآباء والكبراء، وينسون فطرة الله التي فطره عليها، فكم من أب حريص على ولده يخاف عليه من

Upload by : altawhedmag.com

نزلة برد، وفي نفس الوقت يلقنه عقيدة عقيمة فيها هلاكه، وسخط الله عليه، ثم يأتي دور الابن حين يبلغ، ويشتد عوده وينجب، فيفعل نفس الشيء مع ولده، وهكذا.

ثانيا: الرحم والإعداد

يبين الحق سبحانه مراحل خلق الإنسان بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْـمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. [المؤمنون١٢: ١٤]، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ، قال: ﴿إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة﴾[1].

وثاني مرحلة هي مرحلة الرحم والإعداد الذي يمر به الجنين حتى يأمر الله ملك البعث أن ينفخ الروح فيه، فيتحول الجنين من الحياة الحيوانية إلى الحياة الإنسانية، حيث يتم إعداد الجنين، وضبط جميع الأجهزة التي يستعملها في الحياة الدنيا، فتنشأ الحواس، ويتم إعدادها، فالعين مثلا يتعين لها مدى محدد من الترددات التي يمكنها استقبالها، وهذه الترددات لا تزيد عن نهاية عظمى يمكن للعين استقبالها، ولا تقل عن نهاية صغرى، فهي لا تستطيع أن ترى الأشعة تحت الحمراء، ولا الأشعة فوق البنفسجية، كما أن الرحم هو مكان امتزاج جميع عوالم الإنسان، ففيه يلتقي الملأ الأعلى ممثلا في الروح مع الجسد الترابي الذي يزيد ويقوى حتى يكتمل ثم يضعف، كما يبدأ في الرحم خلق العقل – وهو نور الفهم – يلقيه الله ﷻ ليميز به الإنسان بين الأشياء، ويعقل حقيقتها، ويسخر قدراتها لصالحه، وكذلك يخلق الله النفس موطن الإحساس باللذة، والرغبة، وتحديد مطالب الإنسان، وما يحتاجه من متاع الدنيا، وأخيرا يمزج الله ﷻ بين تلك العوالم وبين

---

١ حديث عبد الله بن مسعود متفق عليه أخرجه البخاري ٢٩٦٩، ومسلم ٤٧٨١ وأبو داود ٤٠٨٥، وابن ماجه ٧٣، وأحمد ٣٤٤١، ٣٧٣٨، ٣٨٨٢، والترمذي ٢٠٦٣ وقال: حديث حسن صحيح، وفي الباب، عن أبي هريرة، وأنس بن مالك.

Upload by : altawhedmag.com

القلب الذي هو محل نظره من العبد، وفيه تجتمع أنوار الطاعات، وتتنزل عليه الملائكة إذا كان قلبا سليما وإلى ربه منيبا، وتحل فيه الظلمات وتحوم حوله الشياطين إذا كان قلبا مريضا، أو ميتا مغلفا بالرين.

فالرحم إذن هو المكان الذي يُصور فيه الإنسان في أحسن تقويم، فيتولى الحق سبحانه تربية النطفة خلقا من بعد خلق، حتى تمتزج عوالم الإنسان ويتم إعدادها على أكمل وجه، وضبط قدراتها بما يجعلها تتعامل مع الكون، فترى فيه جمال الخلقة، وحسن الصنعة، فيأخذ الإنسان كل ما سخره الله له من الحياة الدنيا، ثم يتعبده به.

ثالثا: دار الابتلاء والمتاع

تبدأ هذه المرحلة بالميلاد وتنتهي بالوفاة وما بينهما طول الأجل، والأجل مهما طال يساوي ساعة، أو أقل من عمر الدنيا، ولا بد للإنسان من الابتلاء والاختبار؛ فبهما يُعرف الصادق من الكاذب، والأنبياء أشرف مثال على ذلك، فما من نبي إلا ابتلاه الله تعالى بصورة من صور الابتلاء، فقد ابتلى إبراهيم عليه السلام بكفر أبيه أولا، ثم بإلقائه في النار، ثم بكلمات فأتمهن، ومنها أيضا النمرود، وعبدة الكواكب والنجوم، ومنها أمره بذبح ولده، فجعله للناس إماما، وابتلي داود بدخول الخصمين عليه، فعَلَّمه حتمية سماعه للخصمين حتى يصل للحقيقة، ومن ثَمَّ يحكم بالعدل، وصبر موسى على اليهود وأفعالهم كأعظم ما تكون المجاهدة، وقد سأل سعد بن أبي وقاص رسول الله ﷺ، فقال: ﴿أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة﴾[1]، فلا بد إذن من الابتلاء حيث ينقسم النَّاس في الدنيا على حسب أعمالهم، ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "النَّاس في الدنيا عاملان: عامل عمل في الدنيا للدنيا، قد شغلته دنياه عن آخرته يخشى على من يخلفه الفقر، ويأمنه على نفسه، فيفنى عمره في منفعة غيره، وعامل عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي

١ حديث سعد بن أبي وقاص أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وفي الباب عن أبي هريرة، وأخت حذيفة بن اليمان، وأخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠١٣، وأحمد في مسنده ١٤٠٠، والدارمي في الرقاق ٢٦٦٤

Upload by : altawhedmag.com

له في الدنيا بغير عمل، فأحرز الخطين معا، وملك الدارين جميعا، فأصبح وجيها عند الله لا يسأل الله حاجة فيمنعه".

لهذا جاءت الحياة على الأرض رغم قصر أمدها إلا أنه عظيم خطرها، فمن اجتاز الدنيا بنجاح كانت له جنات الفردوس نزلا، وأما الذين شقوا فقد شغلتهم الدنيا وزخرفتها عن السعي والسلوك إلى الله ﷻ، فساء مصيرهم.

نسأل الله أن يجعلنا من الذين سبقت لهم من الله الحسنى، فسعدوا في الجنة بالنظر إلى وجه الله الكريم.

وتبدأ المرحلة الثالثة لرحلة الإنسان عبر الزمان والمكان بميلاده ولحظة بكائه، فإذا انطلق المولود صارخا مع دخول هواء الحياة الدنيا إلى صدره، إيذانا ببدء حياته، انطلق أهله فرحين مستبشرين بالوافد الجديد الذي انضم إلى الحياة الدنيا، فيبدأ المولود من فوره حياة تختلف تماما عن حياته في رحم أمه، فينتقل – بعد طفولته وحضانة أهله – من مقام التجريد الكامل إلى مقام السعي في الأسباب والتعامل مع الدنيا من خلال مهلة الأجل، يقول الشاعر:

وما هذه الأيام إلا مراحل يحث بها داع إلى الموت قاصد

وأعجب شيء لو تأملت أنها منازل تطوى والمسافر قاعـد

فالحياة الدنيا مرحلة يولد فيها الإنسان على الفطرة الإلهية، وفي أحسن تقويم وأكمل صور الخلق، وجميع عوالمه متعلقة بالله ﷻ، فيتعهده أبواه بالتربية التي من المفروض أن تربي جميع عوالمه، فالطعام يغذي الجسد، والعلم يغذي العقل، والطاعة تنير القلب، والأدب مع الله يربي النفس، وكذلكم جعل الله تبارك وتعالى في الدنيا متاع، وكلمة متاع في اللغة العربية هو كل شيء ينتفع به ويُتبلغ به ويُتزود، ويدرك الإنسان به مقصوده ومراده، والفناء يأتي عليه في الدنيا، والماتع من كل شيء هو البالغ في الجودة والغاية من بابه، ومتع النهار يمتع متوعا أي ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال، ومتعه الله بكذا أي أبقاه ليستمتع به فيما يجب من الانتفاع به والسرور بمكانه، والمتعة أي البلغة أي الزاد القليل، الذي يتبلغ به لا بقاء له، ومعنى ذلك أن الله تبارك وتعالى خلق متاعا في الدنيا بالغ الجودة وتبلغ المتزود منها بحاجته وينتفع بها غاية الانتفاع، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي

Upload by : altawhedmag.com

فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود-٣]، ومعناها -والله تعالى أعلم- يبقيكم بقاء في عافية إلى وقت وفاتكم.

ولما كانت الحياة الدنيا هي دار الاختبار والابتلاء وفيها يتحدد مصير كل إنسان إما إلى جنة ورضوان، وإما إلى نار وخسران، تبعا لتباين النَّاس واختلاف مسعاهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل-٤]، وما كان اختبار النَّاس إلا واحدا، وإن تعددت صوره وأشكاله، فحقيقة الاختبار وطبيعة الابتلاء تنحصر في كلمة واحدة وهي المتاع الذي هو محض فضل ونعمة من الله سبحانه، جعله لانتفاع العباد واستمتاعهم في الدنيا بأسلوب حدده جل شأنه ونصت عليه الشرائع، ووضعت الرسالات السماوية الضوابط للأنبياء والمرسلين فعَلَّموا النَّاس أسلوب التمتع والانتفاع بهذه النعم، وطريقة نمائها بالشكر، وزيادتها بحمد المنعم بها، كما حذروا النَّاس من زوالها إذا أنكروا المنعم، أو نسبوا النعم لذواتهم، أو أعرضوا عن شكر المنعم، قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر-٣٩]، فالحياة الدنيا متاع وليست للناس بدار قرار، وإنما الآخرة هي المستقر وفيها المقام، ولهذا أخذ رسول الله ﷺ بمنكب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ونصح له قائلا: ﴿يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أصحاب القبور﴾، ولما أدرك ابن عمر هذا المعنى وعمل به نصح للأمة، فقال: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك قبل سقمك ومن حياتك قبل موتك"[١].

وكل ما أنعم الله به على خلقه فهو متاع، ويشير إليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ ۞ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْـمُحْضَرِينَ﴾ [القصص٦٠: ٦١]، فهناك دائما مقارنة في القرآن الكريم بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة، فمن حيث اللفظ فالمتاع إلى زوال والنعيم مقيم: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِـمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء-٧٧]، والنتيجة ليست في صالح الدنيا، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة- ٣٨]، ويضرب رسول الله ﷺ للحياة الدنيا مثلا يقارن بينها وبين الآخرة، فيقول: ﴿والله

١ حديث عبد الله بن عمر، رواه أحمد في الزهد صفحة ١٥

Upload by : altawhedmag.com

ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع إليه؟﴾[١]، وكان رسول الله ﷺ ينام على حصير، فقام وقد أثَّر الحصى في جنبه، فقيل له: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال: ﴿ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها﴾[٢]، ويقول رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: ﴿إذا أردت اللحوق[٣]بي، فَلْيَكْفِكِ من الدنيا كزاد الراكب[٤]، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي[٥] ثوبا حتى ترقعيه﴾[٦]، ولما أدرك صحابة رسول الله ﷺ حقيقة الدنيا رضوا منها بالقليل، وقد سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقال: "ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟، قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادما، قال: فأنت من الملوك[٧].

أرأيت أبسط من هذا المفهوم الإيماني، فمن وثق فيما عند الله فالقليل يكفيه، ومن وسائل الرضا بما قسم الله لنا ما يرويه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، أنه قال: ﴿من رأى من فضل عليه في الخلق والرزق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل هو عليه، فإنه أجدر أن لا يزدري نعمة الله عليه﴾[٨]، وما متاع الدنيا إلا اختبار له صور متعددة تنص عليها الآيات القرآنية التالية:

- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ

١ حديث المستورد بن شداد بن عمرو خرجه مسلم ٥١٠١، والترمذي ٢٢٤٥، وابن ماجه ٤٠٩٨، وأحمد في مسنده: ١٧٣٢٢، ١٧٣٢٣.

٢ حديث عبد الله بن مسعود خرجه أحمد، والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في الصحيحة ٤٣٨، وفي صحيح الجامع الصغير ٥٦٦٨، وحديث ابن عباس رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني في الصحيحة ٤٣٩، وفي صحيح الجامع الصغير ٥٦٦٩

٣ اللحوق بي: أي في منزلتي في الجنة.

٤ الراكب: المراد هنا المنفرد في سفره الذي يحمل أقل الزاد.

٥ تستخلقي: من الخَلِق أي القديم البالي.

٦ حديث عائشة انفرد به الترمذي ١٧٠٢ وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

٧ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رواه أحمد في الزهد صفحة ١٧

٨ حديث أبي هريرة رواه الترمذي تعليقا بعد حديث ١٧٠٢، وأحمد بن حنبل في الزهد صفحة ٢٥

Upload by : altawhedmag.com

شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد-٢٠].

- ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف-٤٦].
- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالله عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران- ١٤].
- ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة- ٣٨].
- ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۞ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف٣٣: ٣٥].

فالحياة الدنيا متاع، في صورة لهو، أو لعب، أو مال: كذهب، وفضة، وخيل مسومة، وأنعام، وحرث، ولو شاء الله تبارك وتعالى لجعل للكافرين مساكن لها أسقف من فضة، ومعارج عليها يظهرون، ويرتفعون بها عن الأرض - كالمصاعد - أو بنين أو نساء، والإنسان دائما ما يحاول أن يقلد مظاهر النعيم التي أعدها الله لعباده في الجنة، وكل ذلك متاع الحياة الدنيا، وإن تعددت مظاهره إلا أن مصادره واحدة، فهي:

- أما متاع النفس: من منصب، أو جاه، أو سلطان.
- الأولاد: بكثرة الأولاد، وشرف النسب، وقوة العشيرة.
- النساء: بتعدد صور الجمال وتنوع الرغبة والشهوة.
- الأموال: الذهب، والفضة، والأموال النقدية.
- المساكن: كالقصور، والضيعات.
- الخيل والأنعام: الخيل، والسيارات، والطائرات الخاصة، والبواخر، واليخوت، وغيرها.

وهذه المتع يتعامل معها المرء بصورتين لا ثالث لهما:

- الأولى صورة مقبولة يرضى الله ﷻ ورسوله ﷺ عنها، ونراها جلية في قول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ

Upload by : altawhedmag.com

لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف-٣٢]، فالله أخرج لنا الطيبات، ولم يحرم علينا الزينة الطيبة طالما نوجهها لله، فنجدها خالصة يوم القيامة.

- أما الصورة الثانية فهي التمتع بالدنيا متاع الغرور، والغرور هو الباطل، وغَرَّه وغِرة: أي خدعة وأطمعه بالباطل، وغرر بمتعه أي عرضها للهلكة دون أن يعرف، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران-١٨٥]، ولا بد للمنغمس في متاع الدنيا من أن ينسى عهد الله ﷻ مع البشر، ولهذا يذكرنا القرآن الكريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر-٥].

وتوضح عدد من الآيات المباركات صورة متاع الغرور، منها: قال تعالى:﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف-٥١]، ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ﴾ [الرعد-٢٦]، فالمتاع إذا انصرف النَّاس إليه واتبعوا أهواءهم، كان اللعب واللهو دينهم، وتعلقهم بالدنيا خداع وباطل، وصرف النعمة لمتعة النفس، وغفلتهم عن المنعم، ونسيان الرب الكريم، وقد يصلوا إلى الكفر بيوم اللقاء، فهم يفهمون أنهم قد توقفوا في مسار السفر عند مرحلة الدنيا، ونسوا باقي المراحل، ولم يعدوا عدتهم وأنفسهم لما هو آتٍ فذلك هو الجحود والنكران، كما أنهم لا يريدون الخروج من الدنيا، فعقابهم أنهم لا يخرجون يوم القيامة من النار، وكأنهم لم يسمعوا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت-٦٤]، ويؤكد نفس المعنى قوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية-٣٥]، ويشير إلى أسرار تعلق النَّاس بمتاع الحياة الدنيا ما ينسب لعلي بن أبي طالب ﷺ، حيث يقول: "إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه"، فإقبال الدنيا على النَّاس تضيف إليهم محاسن ليست من سجاياهم، فيعظمهم النَّاس ويحنون هاماتهم لأهل الدنيا، ويرضيهم هذا التملق، ويزداد خوفهم على المناصب والأموال، لأنهم بدونها لن ينالوا شيئا من مواكب النفاق، وقصائد المحامد والأعراق كابرا عن كابر.

Upload by : altawhedmag.com

فالغرور بالحياة الدنيا والتوقف عند حجاب المتاع والتعلق بالأغيار كأنهم لن يخرجوا من الدنيا، أي هم يتوقفون في المقام الأسفل ولا يرتقون بنياتهم إلى الدار الآخرة وما ذلك إلا أنهم اغتروا بالدنيا كنتيجة لغرورهم بالله ﷻ، ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان-٣٣]، ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام-٧٠]، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾، [الأنعام-٣٢] ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد-٣٦]، وصح قول الشاعر:

وما النَّاس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

والابتلاء واحدا وهو المتاع، ويتعامل معه النَّاس بصورتين: متاع حسن لمن كان يريد الآخرة، ومتاع الغرور، وتفرق الآيات بين الفريقين، حيث تقول: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران-١٥٢]، ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران-١٤٥]، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء-١٣٤]، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم ٢٩-٣٠]، فمن توقف في الدنيا، وخدع بها، ولم يدرك زوالها وفناء متاعها، فقد شغل نفسه بالعاجلة وهؤلاء يخاطبهم القرآن بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء-١٨]، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود-١٥]، ويحذرنا أبو العتاهية من الركون إلى الدنيا بقوله:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها ... تنح عن خطبتها تسلم

إن التي تخطب غدارة ... سريعة العرس من المأتم

والحياة الدنيا قَسَّمت النَّاس إلى فريقين، فهي مزرعة وكل من بذر فيها حصد، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى-٢٠]، ومن أطاع الله وقصد رضوانه واتبع المنهج الذي وضعه الله لعباده وبعث به الأنبياء كان من أهل الجنة، ومن توقف عند المتاع وحجبته النعمة عن المنعم،

Upload by : altawhedmag.com

وصرف عطاء الله فيم يسخطه ولا يرضيه سبحانه، كان من أهل النار: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى-٧]، ويروى عن المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال: "لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قالوا: ومن الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها".

رابعا: القبر والإعداد

إن الموت هو الحقيقة التي لا اختلاف عليها فلا بد لمن نزل في هذه الدنيا أن يرحل عنها، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص-٨٨]، ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة-٦٠]، والموت كما يعرفه الجرجاني أنه: "صفة وجودية خلقت ضدا للحياة"[1]، ويعبر الشاعر عن غفلة النَّاس عن هذه الحقيقة فيقول:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي بـــه القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بهـــا ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

بينما كان أبو بكر الصديق ﷺ كثيرا ما يتمثل قول الشاعر:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وقد أبدع طَرَفة بن العبد في معلقته حين قال:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مـــال الفاحش المتشدد

أرى العيش كنزا ناقصـــا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخي وثنيـــاه باليد

فإذا وفّى الإنسان أيامه في الدنيا وانقضى أجله، أسرع أهله يغسلونه ويكفنونه وإلى قبره يحملونه، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: ﴿يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يتبعه: أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله﴾[2]. وحين يدخل الميت قبره ينتقل في سفره

---

١ التعريفات للسيد الجرجاني ص ٢١١

٢ حديث أنس بن مالك متفق عليه أخرجه البخاري ٦٠٣٣، ومسلم ٥٢٦٠، والترمذي في سننه وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي ١٩١١، وأحمد في مسنده: ١١٦٣٧

Upload by : altawhedmag.com

الطويل من حياة اجتمعت فيها عوالمه كلها، إلى مرحلة تتفرق فيها عوالمه، وينتهي فيها عهد المزج بينهما، ويدخل إلى مرحلة تستقر فيها الروح وتحيا في عالم البرزخ إلى ما شاء الله، بينما الجسد ساكن في قبره، ولا تنقطع الصلة بينهما، فالروح تشعر بما يلقاه الجسد، حيث تبدأ حياة المتوفى مع كشف الغطاء، وزوال الحجب ورفع الستر، حينئذ يعلم ما قدمت يداه، ويمر عليه كلمح بالبصر جميع أعماله بظاهرها وهو ما اطلع عليه النَّاس، وبباطنها حتى ما خفي على الملك، ويرى حقائق ما جنته يداه، فإن أوتي العبد حجته ونضح التوحيد على أعماله، وبدا الإخلاص في أفعاله وأقواله، مُـدَّ في قبره فيرى مقعده من الجنة، وإن عرضت عليه سيئات أفعاله، وما أسلف من المعاصي والذنوب، وبُشر بعذاب شديد مُّدَّ له في قبره ليرى مقعده من النار، ثم ترك جسده في قبره ليتحلل، فيحتضنه القبر كما يحتضن الرحم النطفة ويتعهدها بالتربية، ولا يخرجنا عن السياق أن نقرر أن قدماء المصريين قد سبقونا إلى هذا التصور؛ فقد اكتشف العلماء مقابر منذ فجر التاريخ، ووجدوا أن المصريين كانوا يدفنون الميت في تلك الفترة المبكرة جدا من تاريخهم في وضع القرفصاء، ركبته قُرب ذقنه، وهو الوضع الذي يكون عليه الجنين في بطن أمه"[1].

فالقبر يتلقى جثة الميت ويرعاها بطريقته، فكأن الروح تخلع الثوب الذي ارتدته في الدنيا، وتستعد لارتداء الثوب المناسب للحياة الآخرة، كما كان الرحم هو المحل الذي تنشأ فيه الحواس، وتتكون فيه العوالم المناسبة للحياة الدنيا يحدث في القبر إعداد آخر، ليس بتكوين الإنسان في صورته التي سيبعث عليها، وإنما بتحلل صورته التي تعامل بها مع الدنيا، فإذا أذن الله تبارك وتعالى بالبعث، يتجمع الإنسان بصورة مهيأة للحياة الآخرة، فيخرج من قبره كما خرج من رحم أمه في المرة الأولى مستعدا للتعامل مع الدنيا، فهو اليوم مهيأ بما يناسب حياته الآخرة، فالبعث وإعادة الخلق المناسب ليوم القيامة – سواء كان المصير إلى الجنة أو النار – مسألة ضرورية ومنطقية أيضا؛ فالإنسان لا يحتاج إلى أجهزة معينة موجودة حاليا في تكوينه كالجهاز الهضمي مثلا بينما يحتاج إلى جهاز بصر وسمع يختلف تماما عن السمع والبصر الذي يحيا بهما على الأرض، وكما تركت النطفة في الرحم، وتولاها الله بالتربية والرعاية خلقا من بعد خلق حتى يأذن الله وينفخ في

١ الأنبا يؤانس في حديثه عن اليوم الآخر لدى المصريين، نقلا عن اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام للدكتور فرج الله عبد الباري أبو عطا الله ص ٣٠

Upload by : altawhedmag.com

الجنين من روح الله فيصر الجنين إنسانا حيا بقدرة الله، كذلك القبر حيث ينتقل الميت من مرحلة إلى أخرى خلقا من بعد خلق حتى يأذن الله بالنفخ في الصور، فتنبعث الأجساد على الهيئة المناسبة للحياة الآخرة، وتلتقي عوالم الإنسان مرة أخرى، وتعود الأرواح إلى الأجساد، ولكن على هيئة مختلفة عما كانت عليه في الدنيا حيث كانت الخلقة الترابية هي الغالبة، ويشير القرآن إلى مراحل حياة الإنسان في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۞ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۞ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۞ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس١٧: ٢٢]، ولو قدر الله أن يحدثنا من مات لأسمعونا عجبا، ويروي ابن السماك أنه مر على قبر، فإذا مكتوب عليه:

يمـر أقاربي جنبات قبري ... كأن أقاربـــي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي ... وما يألون إن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا ... فبالله ما أسرع ما قـد نسوني

خامسا: الحياة الآخرة

تبدأ المرحلة الخامسة بيوم القيامة وما فيه من أهوال وأحوال، تبدأ بالبعث والنشور إلى انتظار الحساب، ثم العرض والميزان والصراط والحوض والشفاعة، والجنة والنار، وتنتهي مواقف يوم القيامة بالنَّاس، وقد سكنوا منازلهم، وعرفوا درجاتهم، فمنهم شقي وسعيد، وفائز وخاسر، وما فرق بينهم إلا الاختبار في الحياة الدنيا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِـمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود١٠٦: ١٠٨]، وصدق الشاعر حيث يقول:

تفكرت في حشري ويـوم قيامتي ... وإصباح خدي في المقابر ثاويا
فريدا وحيدا بعد عـز ورفعـة ... رهينا بجرمي والتراب وساديـا
تفكرت في طول الحساب وعرضه ... وذل مقامي حين أعطى كتابيا
لكن رجائي فيك ربي وخـالقي ... بأنك تغفر يا إلهي خطـــائيا

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

عوالم الإنسان

خلق الله تبارك وتعالى البشر من عدة عناصر متباينة في طبيعتها ومختلفة تماما في مواصفاتها، بينما جميع المخلوقات الأخرى في هذا الكون خلقت من عنصر واحد، أو اثنين على الأكثر، وفي الحديث الشريف: ﴿خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار السموم، وخلق آدم عليه السلام مما قد وصف لكم﴾[1]، فالملائكة خلق من نور، والجن خلق من نار، والجبال خلق من تراب، والبحار خلق من ماء، والسماء خلق من هواء، وهكذا حتى الكائنات الحية من نبات وحيوان وطائر تميز عنها الإنسان بعناصر لم تودع فيها وذلك لحكمة خاصة أودعها الله ﷻ في هذا الكيان البشري، فأول هذه العناصر التي خلق منها أبو البشر آدم عليه السلام هو التراب، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم-٢٠]، ثم مزج هذا التراب بالماء، فصار طينا يسهل تشكيله، يقول أحسن الخالقين: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة-٧].

ثم شكل هذا الطين بعد تخمره إلى حمإ مسنون، وتم تسويته بالتعرض للحرارة حتى صار هذا الشكل البشري كالصلصال، الذي يمثل اجتماع أربعة عناصر هي: التراب، والماء، والنار، والهواء، فصورة التخمر تحتاج للهواء، وصورة الصلصال تحتاج للحرارة وهي النار، يقول عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر-٢٦]، حتى إذا كان كذلك وضع الله في هذا الخلق العنصر الخامس وهو الروح.

وآيات القرآن الكريم ذكرت في مواضعها المختلفة مراحل خلق الإنسان وكل منها على حدة حتى يتفكر الإنسان في حكمة هذا التباين والغرض منه، فقد أودع الله تبارك وتعالى في هذا الإنسان من المؤهلات والإمكانيات ما لم يعطها لأحد من الخلق، فالإنسان الذي يتكون من عناصر خمسة يحتوي كذلك على خمس عوالم، كل عالم منها يختلف عن الآخر في طبيعته، وله مهمة

١ حديث عائشة رواه مسلم ٨: ٢٢٦، وابن منده في التوحيد ١:٣٢، والسهمي في تاريخ جرجان ٦٢، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٢٧٧، وابن عساكر ١: ٢:٣١٠ وصححه الألباني في الصحيحة ٤٥٨

Upload by : altawhedmag.com

معينة، ويؤدي دورا معينا في بناء هذا الكيان العجيب، ولتوضيح ذلك نقول أن اجتهادات العلماء من قبل تقوم على ما توفر لديهم من معلومات، وقد توفر اليوم لدينا قدر هائل من المعرفة تجعلنا بعد توفيق الله تعالى أقرب فهما، فنحن اليوم نعرف الكثير عن الإنسان، وأعضائه ووظائفها والعلاقات بين كل منها وباقي أجهزة الجسم، وحتى لا يحدث أي خلط بين العقل، والقلب، والنفس، والروح، والجسد، وقد يساعدنا على الفهم أن نضرب مثالا نتكلم فيه عن الحاسب الآلي في عصر يتكلم أغلب الناس بلغته، ونعرض مكوناته كما يلي:

١. أجهزة ملموسة يسميها خبراء الحاسب بـ Hardware، وهي وحدة التحكم والسيطرة C.P.U، ووحدات الإدخال، والإخراج، ومنها: الشاشة، والطابعة، ولوحة المفاتيح...
٢. أنظمة غير ملموسة Software، ويسميها الخبراء Operating System، وهي أنظمة التشغيل الأساسية للحاسب الآلي، تتولى السيطرة على الأجهزة، وهذه الأنظمة مرتبطة بالطاقة الكهربية، فهي تتولى السيطرة مع دخول الطاقة، وتتلاشى مع قطع التيار الكهربائي.
٣. تطبيقات وبرامج وهي التي يستخدم الحاسب من أجلها وهذه البرامج هي التي تدفع الحاسب للعمل وفق المخططات التي وضعت من أجلها، ويسميها الخبراء Application Software، وتستخدم هذه البرامج إمكانيات وحدة التحكم المركزي، ووحدة الحساب والمنطق، والتي تمثل في مجملها عقل الحاسب الآلي.
٤. الطاقة الكهربية اللازمة للحاسب ككل، والتي بدونها لا يعمل منه أي شيء، وإذا أردنا أن نقرب عوالم الإنسان بنفس الأسلوب -ولله المثل الأعلى- فنرى ما يلي:

- الروح: تمثل الطاقة الكهربية التي تبعث الحركة والحياة في عوالم الإنسان.
- الجسد: يتكون من الأجهزة الملموسة ابتداء من الجلد وخلاياه، إلى الحواس أو حتى الأجهزة الداخلية: كالكلى، والرئة، والكبد، والقلب كمضخة للدم، والمخ كمجموعة من الخلايا وغيرها، وهذه تماثل Hardware.
- النفس: وهي كائن لطيف يتغلل أجهزة الجسد، وينشأ عن إشعاع الروح بالحياة على خلايا الجسد، وتتمركز فيه الرغبات الإنسانية، فإذا غاب ضياء الروح عن الجسد، تموت النفس

Upload by : altawhedmag.com

وتفقد الحياة؛ لأن النفس تنسحب من جميع الخلايا مع انسحاب ضياء الروح عنها، ومن هنا جاء تشبيهنا لها ببرامج التشغيل الأساسية Operating System.

- العقل: وهو مجموعة من المراكز كل منها يعمل فيه مجموعة من البرامج والتطبيقات Application Software، والتي تستخدم وحدة التحكم المركزي، ووحدة الحساب والمنطق الموجودة في العقل، وهذه المراكز هي التي تقوم بالمهام الموكلة بها، ومن مظاهر اختلافها عن الحاسب الآلي أنها تلاحظ المشكلة وتقوم بتحليلها ووضع الحلول وبرمجة أسلوب الحل، وليس الفرق محصورا في هذا فقط، فالعقل البشري قد أعجز العلماء في حصر ما يمتاز به من خصائص، كما أعجزهم في كشف أسراره الكامنة، وبذلك استحق العقل أن يكون سيد عوالم الإنسان.

ونتناول بشيء من التفصيل كل عالم من العوالم، علما بأننا سنفرد فصلا خاصا لسلوك كل عالم على حده.

أولا: الجسد

وهو الشق الترابي، وهو الجانب الذي يؤهل الإنسان لعمارة الدنيا، فهو بطبيعة تكوينه من التراب يحن إلى الأرض، ويحدث بينه وبينها التآلف، فيتعرف على أسرار وخواص معادنها، ويسخرها لخدمته ومصلحته، ويأخذ الغذاء من الأرض ويأكله، ويخرج للأرض ما يساعدها على إنتاج المزيد من الطعام، ثم يضع جسده على الأرض والتراب على فترات منتظمة يحن فيها إلى أصله، فتسكن عوالمه إلى النوم لتتحقق الراحة والتجديد لجميع العوالم، هذا الجسد عنده كذلك حب البقاء إذ يرغب في التكاثر حتى يستمر التراب الخاص به أطول فترة ممكنة على الأرض، والجسد هو الذي يعطي الإنسان صورته التي يعرف بها بين النَّاس: فهذا طويل، وهذا قصير، وذلك أشقر، وتلك سمراء، وهكذا..

ثانيا: النفس

كيان يختلف في طبيعته عن الجسد الترابي الملموس في كونه غير مرئي ولا محسوس، فهي لطيفة رقيقة، تتخلل وتملأ جميع ذرات الجسد، وتحيا النفس في جميع الخلايا طالما يشع ضياء الروح على الجسد، وتموت النفس عند حجب ضياء الروح عن الجسد، ولا يمنع أن يكون لها مركزا

Upload by : altawhedmag.com

رئيسيا يسيطر عليها، سواء في أحد مراكز المخ[١]، أو في موضع آخر قد نعرفه في يوم من الأيام، والله تعالى أعلم، والنفس هي محل للرغبات والشهوات المختلفة، وموطن الأخلاق والآداب، فالكرم والشح، والشجاعة والجبن، والحلم والعجلة كل ذلك محله النفس البشرية، ولذلك تكون بداية أي أمر أن يهمّ الإنسان بالفعل من النفس، ثم يتحول الهمّ إلى عزم، ثم ينتقل العزم إلى فعل.

ويقول الحسن البصري رحمه الله: "رحم الله عبدا وفق عند همّه، فإنه ليس من عبد يعمل حتى يهمّ، فإن كان خيرا أمضاه، وإن كان شرا كُف عنه"[٢]، فمن جاهد هواه سمت صفاته، وعرج على مقامات تهذيب النفس، ولهذا وصفها القرآن الكريم بعدة أوصاف منها النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس الملهمة، والنفس المطمئنة، والراضية والمرضية. ويقول الشاعر:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمتـه ... أتطلب الربح مما فيـــه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فـأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ثالثا: العقل

العقل من الناحية التشريحية يتكون من المخ والجهاز العصبي الذي يرتبط بخطوط اتصال بالحواس، ويتحكم المخ باستخدام الإشارات الكهربية في الجهاز العصبي، ولأهمية المخ فقد حفظه الله تبارك وتعالى في خزانة مصفحة هي الجمجمة.

والعقل من ناحية السلوك هو ثالث عوالم الإنسان، و"هو صورة الاحتيال لحدوث الاحتياج" بمعنى أنه الآلة التي تضع الاحتياجات في الإمكان، وذلك بالتصرف والاحتيال لحدوثها، فالعقل يبتكر الطائرة لقطع المسافات الشاسعة في أوقات صغيرة، كما أنه وصف بالعقل؛ لأنه يقيد النفس، ويعقلها عن شهواتها، وعن الانحدار بها إلى المستويات الدنيا، يقول أبو الطيب المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان

---

١ يوجد في المخ مركزا يسمى المركز السيكولوجي يعتقد كثير من الأطباء اليوم أنه المسيطر على التصرفات النفسية والأخلاقية في الإنسان، وما زالت الأبحاث تتوالى لكشف المزيد من إمكانياته، فقد يكون هو المسئول عن التحكم المركزي في ملكات النفس، والله تعالى أعلم.

٢ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في الأحاديث والآثار ٨: ٢٥٤ باب ٦٢ حديث ١

Upload by : altawhedmag.com

وللعقل ملكات متعددة أعلاها اللب، واللَّب في اللغة بمعنى القيام، فلَبَّ بالمكان وأَلَبَّ به إذا أقام به، ولُب كل شيء: خالصه وخياره، وكل لب عقل، وليس كل عقل لبا، كأن اللب وصف للقيام بملكات العقل كلها، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة-٢٦٩]، ولهذا خص الحق تبارك وتعالى الأحكام التي لا تدركها إلا العقول الذكية بأولي الألباب، وسنفرد بمشيئة الله تعالى فصلا مستقلا لبيان مراتب ملكات العقل، ونوضح سلوكه إلى مولاه.

رابعا: القلب

القلب من الناحية التشريحية، مضخة في تجويف الصدر، ولأهميته وعِظم دوره حفظه الله بالقفص الصدري، ويضم القلب أربع غرفات، البطين الأيمن والأيسر، والأذين الأيمن والأيسر، تستقبل هذه الغرفات الدم من الدورة الدموية ثم تدفعه إلى الرئتين حتى يتم تنقيته وإمداده بالأكسوجين، ثم يعود للقلب ليعيد توزيعه وإمداد الدورة الدموية به. وتعتمد حركة عضلة القلب على صدور شحنات كهربائية من بطارية أودعها الحق سبحانه في الأذين الأيمن، وتسمى هذه البطارية Pacemaker، ولا تتوقف هذه البطارية طوال حياة الإنسان، فهي المسئولة عن إمداد القلب بالطاقة اللازمة لقبض العضلة التي تضخ الدم في الجسم، ويعتمد القلب على الجهاز التنفسي في تنقية الدم، وتعد الرئة أهم عضو في الصدر وعماد الجهاز التنفسي، حيث يدخل الهواء النقي إلى الرئتين أثناء الشهيق، فتقوم الرئتان باستخلاص الأوكسجين منه وتغذي به الدم، ويخرج ثاني أكسيد الكربون مع باقي عناصر الهواء مع الزفير، إذن هناك ارتباط وثيق من الناحية التشريحية بين القلب والرئتين، الصدر.

ولفهم دور القلب في رحلة السلوك نقول: إن القلب اسم جامع يطلق عادة على الصدر والقلب والفؤاد، وكما أن اسم الحرم جامع لمكة والمسجد والكعبة، وكما في كل موضع مناسك تختلف عما يجب عند الموضع الآخر، كذلك سمي صدرا؛ لأنه أول مقام القلب كصدر النهار الذي هو أوله، والشيطان كما ورد يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، كما أنه ينفث بوسوسته في صدور النَّاس، قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [النَّاس٥-٦]، وهذا لا يتأتى إلا إذا دخل الشيطان بخواطره من الأنف إلى الرئتين، ومنها إلى الدم، وليس

Upload by : altawhedmag.com

جري الشيطان في عروق ابن آدم تشبيها مجازيا، ونستدل على ذلك من وصف الحديث الشريف كيف يساعدنا الصوم على كسر حدة وسوسة الشيطان؟ فتخفيف اندفاع الدم في العروق من أثر الصوم، يضيق تلك العروق من الناحية الطبية، أما من الناحية الإيمانية، فالصوم يضيق مجاري الشيطان ومساره في العروق: ﴿فضيقوا عليه بالصوم﴾، وكما يحمل الهواء الأكسوجين اللازم لتطهير الدم وتنقيته، فإنه يحمل وساوس الشيطان وهمزاته، فتقع أول ما تقع في الصدر، ثم تنقلها الرئة إلى القلب، فكأن القلب له دور ظاهري، ويقوم كذلك بتجميع خواطر الشيطان ووسوسته.

والصدر ينشرح بالطاعات، ويضيق بالمعاصي والوساوس، كما يقع القلب في تجويف الصدر[١]، وهو محل نظر الله من العبد وتجلياته سبحانه وتعالى عليه، وفيه يتلقى الإنسان أنوار الطاعات كما أنه تُنكت فيه الظلمات والسواد الناتج عن المعاصي والذنوب وذلك هو الرين، والقلب هو الذي يحصل فيه التقوى، والسكينة، والخشوع، والطمأنينة، والوجل، والإخبات، واللين، والامتحان، والتمحيص، والطهارة، كما يقع عليه الختم، والطبع، والزيغ، والعياذ بالله، وذلك لمن تمادى في المعصية، وعليه الحساب، وبه الميزان يوم القيامة، فمن جاء يوم القيامة بقلب سليم، فقد اجتاز العقبة الكبرى.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة-٢٢٥]، يقول الحسن البصري رحمه الله: "إن الرجل ليعمل الحسنة فتكون نورا في قلبه، وقوة في بدنه، وإن الرجل ليعمل السيئة فتكون ظلمة في قلبه، ووَهَنا في بدنه"[٢]، ويوافقه على رأيه إبراهيم بن أدهم، حيث يقول: "إن للذنوب ضعفا في القوة، وقسوة في القلب، وإن للحسنات قوة في البدن، ونورا في القلب"[٣]، ترى هل سيأتي اليوم الذي يستطيع فيه الإنسان أن يبتكر نوعا من الأشعة تظهر لنا ما لا نستطيع اليوم رؤيته! فنرى للطاعة نورا، ونتتبع هذا النور حتى نراه يصل إلى القلب، ونرى طاقة إيمانية تنبعث من القلب وتتحرك مع الدم إلى الأعضاء، كما نرى وسوسة الشيطان ظلمة تدخل إلى الصدر من خلال التنفس، ثم تنتقل إلى القلب إذا استقرت به، فتكسوه ظلمة، فينبعث

١ استفدناه من بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب للحكيم الترمذي ٣٣ – ٤١

٢ أخرجه ابن ابي شيبة في مصنفه في الأحاديث والآثار ٨: ٢٥٥ باب ٦٢ حديث ٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٧٢١٩ مكرر

٣ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧٢١٩ مكرر

Upload by : altawhedmag.com

الوهن في بدن صاحبه، وبالتالي نرى تشبيه الحسن البصري واقع حقيقي كأن الرجل كان يصف ما يراه من خلال شاشة تليفزيون يسبق عصره بقرون عديدة.

فالقلب بمنزلة السراج، والتقوى والعمل الصالح نوره، وإذا صلح القلب صلحت سائر الجوارح، وإذا فسد فسدت بفساده.

ثم يأتي الفؤاد الذي يقول عنه ابن منظور في لسان العرب: "الفؤاد: القلب، وقيل وسطه، وقيل الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه". ويقال للقلب الفؤاد إذا اعتُبر فيه، ومعنى التفؤد أي التوقد، والمفتأدة: موقد النار للشواء، ورجل مفئود: أي مصاب الفؤاد، وقد فُئِدَ وفَأَده الفزع: أي أصابه الفزع، وفأدت الظبي أي رميته فأصبت فؤاده، لذلك وصف القرآن قلب أم موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص-١٠]، ولم يقل قلب أم موسى لغلبة حبه عليها، وقوله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم-١١]، وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان-٣٢].

خامسا: الروح

وهي خامس العوالم وأشرفها وأزكاها، فهي من أمر الله، وهي النور الذي يسري في هذا الكيان البشرى، وهي شأن من شأنه تعالى، وأمر من أمره، وعلم اختص الله به نفسه، ونهانا عن التفكر في كُنهها، أو معرفة سرها، وعلى البشر تسليم شأنها إلى خالقها.

وتعد الروح أشرف عوالم الإنسان جميعا، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة-٩]، إن نفخ الروح في الجسد، يلقي فيه بقدرة الله تعالى مجموعة من العوالم في الجسد المصنوع من الطين، أو من الحمإ المسنون، فتدب الحياة فيه، فتتحول الأذن - على سبيل المثال - من صلصال كالفخار ومن أداة جامدة إلى لحم يتحرك فيه الدم، وتستشعر فيه الأعصاب، وتدرك فيه الحواس، وتشرح الآية نتيجة نفخ الروح أن تبدأ الحواس عملها، وتبعث الحياة لملايين الخلايا في المخ، فتعطى القدرة على تخزين المعلومات، ومعرفة باقي وظائف العقل الإنساني، كما حولت نفخة الروح عضلة القلب إلى مضخة تدفع الدم لجميع أجهزة الجسم البشري، كما أطلقت قدرات القلب ووجدانيات الفؤاد، واستعد القلب لآداء وظائفه الحيوية والوجدانية.

Upload by : altawhedmag.com

ولا يجعلنا هذا نعتقد في الروح أنها من روح الله أي جزء من ذات الله، وإنما يمثل نفخ الروح في الكيان البشري، بعث روح كل شخص كما خلقها الله تبارك وتعالى يوم ألست بربكم، في الجنين في رحم الأم، فينقلها ملك البعث من مستقرها في الملإ الأعلى ثم ينفخها لتسكن الجسد البشري، فالروح إذن خلق من خلق الله، ولعظم دورها في حياة الإنسان، وحيوية مهامها، خلقها الحق تبارك وتعالى بأمر من أوامره، وأمره بين الكاف والنون، وبهذا أجاب الوحي على سؤال اليهود عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْـمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء-٨٥]، وسنعاود الحديث عن الروح في الباب السابع بمشيئة الله تعالى.

وليس خافيا أنه مهما وصل التقدم في العلوم إلا أن الحق تبارك وتعالى حدد لنا أزلا نهاية ما سنصل إليه في مجال الروح بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْـمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، كل عالم من هذه العوالم السالف ذكرها له طبيعة مخالفة لطبيعة الآخر، وله مجاله الذي يعمل فيه، وله دوره الذي يؤديه، وله درجات يسمو إليها بسلوك معين، وله دركات يهوي فيها بسلوك غيره، وله قدرات يمكن تنميتها وله مواهب يكتسبها، والإنسان هو مجموع هذه العوالم ومحصلة هذه المعطيات، وسنفرد بتوفيق الله تعالى أبوابا كاملة نعرض فيه سلوك المرء إلى مولاه من خلال فهم دور كل عالم من هذه العوالم.

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الرابع

- شاءت إرادة الله ﷻ أن يخلق لآدم عليه السلام زوجة، هذه الزوجة التي خلقت من نفس آدم عليه السلام ليسكن إليها.
- الجنة لم تكن لآدم وحواء مستقرا، أو دار مقام، كما أن نوعية الجنة التي أُمِرَا أن يسكناها لم يَرِد في القرآن ذكر لاسمها فهي ليست جنة النعيم، ولا جنة الخلد.
- كان نزول آدم عليه السلام إلى الأرض أمرا لا بد منه ولم يكن عقابا.
- إن الله سبحانه لم يخرج آدم من الجنة إلا وهو يريد أن يعيده إليها أكمل إعادة.
- حياة الإنسان على الأرض ليست إلا مرحلة متوسطة في حياته الكلية، فقد سبقتها مرحلتان، وستتلوها مرحلتان.
- الأرواح خلقها الله تبارك وتعالى في الملإ الأعلى قبل أن يهبط آدم عليه السلام إلى الأرض، كما أخذ عليها العهد بالتوحيد، وبهذا استقر التوحيد فطرة في أرواح البشر.
- الجسد هو الشق الترابي، وهو الجانب الذي يؤهل الإنسان لعمارة الدنيا، فهو بطبيعة تكوينه من التراب يحن إلى الأرض.
- النفس كيان يختلف في طبيعته عن الجسد الترابي الملموس، فهي لطيفة رقيقة، تتخلل وتملأ جميع ذرات الجسد، وتحيا النفس في جميع الخلايا طالما يشع ضياء الروح على الجسد.
- العقل من ناحية السلوك هو ثالث عوالم الإنسان، و"هو صورة الاحتيال لحدوث الاحتياج".
- القلب بمنزلة السراج، والتقوى والعمل الصالح نوره، وإذا صلح القلب صلحت سائر الجوارح، وإذا فسد فسدت بفساده
- الروح خامس العوالم وأشرفها وأزكاها، فهي من أمر الله، وهي النور الذي يسري في هذا الكيان البشري.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الخامس

الإنسان ودار الابتلاء

١. مثل الحياة الدنيا

٢. صور التعامل مع الدنيا

٣. القسمة والنصيب

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

مثل الحياة الدنيا

إذا قورن عمر الإنسان – مهما طال – بعمر الأرض، وطول الحياة على ظهرها لكانت نتيجة المقارنة أن الإنسان يحيى على الأرض ساعة بل لحظة من نهار ما تلبث أن تزول، والفرق بينهما هو الفرق بين المتاع والقرار قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر-٣٩]، وصدق من قال: "إن هي إلا ساعة، ويبعث من في القبور"، ولهذا ضرب الله مثلا للحياة الدنيا في القرآن الكريم في قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس-٢٤]، ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف-٤٥].

فالحياة الدنيا كماء أنزله الله إلى الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم لا تلبث أن يأتي وقت الحصاد، فكأنها لم تغنَ بالأمس، وكذلك حياة الإنسان فهي تبدأ بماء ينزل من الرجل، فيختلط بماء المرأة، فيَجْمع الله ﷻ بينهما، فيلتصق الجنين وهو بعد خلية في أولى مراحله بجدار الرحم، كما تقذف البذرة في الأرض، فينبت له جذور في الرحم، ثم يظهر له ساق يتغذى بواسطتها حتى ينبته الله في الرحم نباتا، حتى يأتي موعد الميلاد – الذي يناظر وقت الحصاد في الأرض – فتخرج الأرض أثقالها، وتبدأ الحياة الدنيا لهذا المولود، فيلبث فيها ساعة، ثم يوضع في قبره، فيصبح رمادا وهشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا.

ولذلكم سرعان ما تفنى الدنيا ويزول نعيمها ولا يبقى إلا ما قدم النَّاس وما أخروا من صالح الأعمال، ويوضح رسول الله ﷺ حقيقة الدنيا في حديث شريف يرويه أبو هريرة ﷺ،

Upload by : altawhedmag.com

فيقول: ﴿ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى، وما والاه، وعالم، أو متعلم﴾[١]، كما أخذ النبي ﷺ يوما بمنكبي عبد الله بن عمر، وقال ﷺ له: ﴿كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبور﴾[٢]، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: "إذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدا"[٣]، ويقول النووي: "قالوا في شرح هذا الحديث ما معناه: "لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا، ولا تحدث نفسك، بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله"[٤].

ويروى أن عيسى عليه السلام قال "لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا، أكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة "، ويقول رسول الله ﷺ: ﴿لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء﴾[٥]، وشوهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، ويقول: "يا دنيا إليك عني، أإلي تعرضت أم إلي تشوقت، لا حان حينك هيهات غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر وعظيم المورد"، ووجد مكتوب على قبر:

تناجيك أجداث وهن صموت ... وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغـة ... لمـن تجمع الدنيا وأنت تموت

---

١ حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي ٢٢٤٤ وقال: حسن غريب، وابن ماجه ٤١٠٢ مرفوعا، ورواه الدارمي من قول كعب الأحبار ٣٢٤

٢ حديث عبد الله بن عمر أخرجه البخاري ٥٩٣٧، وابن ماجه ٤١٠٤، وأحمد في مسنده ٤٥٣٤، ٤٧٦٠، ٥٥٨١

٣ حديث عبد الله بن عمر أخرجه الترمذي في سننه ٢٢٥٥ موقوفا

٤ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النووي ١٦٨

٥ حديث سهل بن سعد أخرجه الترمذي ٢٢٤٢ وقال: صحيح غريب وفي الباب عن أبي هريرة، وابن ماجه ٤١٠٠

Upload by : altawhedmag.com

وقد يظن امرؤ أن هذه النصوص التي سقناها تدل على أهمية اعتزال الدنيا وما فيها، والأمر بخلاف ذلك، فالمسلم لا يجب أن يشغله أمر عن باقي أوامر الدين، فهذه النصوص يقابلها تكليف من الله بعمارة الأرض وسيادتها، وامتلاك ناصية علومها، وتوجيهها لصالح الإنسان، وسعادته، فهذا رسول الله ﷺ ينام في بيته على حصير، فيراه عبد الله بن مسعود وهو يقوم، وقد أثَّر الحصير في جنبه، فيقول: قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: ﴿ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها﴾[1]، ومع هذا الزهد في الدنيا، إلا أنه أسس دولة الإسلام، وخاطب الملوك، وراسلهم، ودعاهم إلى الله ﷻ، وأعد الجيوش، وباشر الغزوات ناشرا راية التوحيد، والمسلمون اليوم مطالبون بالانفتاح على الأمم، وصد الغزو الثقافي الذي يضرب عقيدتنا في الصميم، وعلينا أيضا أن نتضامن كأمة إسلامية، ولا ننغمس في متاع الدنيا، فالمؤمن يكفيه من زادها ما يبلغه النجاة في الدنيا والآخرة.

١ حديث عبد الله بن مسعود رواه الترمذي ٢٢٩٩ وقال: حديث حسن صحيح وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس، وأخرجه أحمد في مسنده ٣٥٢٥، ٣٩٩١ وفي الزهد صفحة ١٨، ٢٠، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان ٢: ٥٧ والبيهقي في الشعب ٢:٣:٣٣٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٢:٣٩٨ - ٣٩٩، وأبو نعيم في الحلية ٣: ٣٠١

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

صور التعامل مع الدنيا

وإذا استلهمنا من كتاب الله صور تعامل النَّاس مع الحياة الدنيا، ومدى إدراكهم لحقيقتها، وكيف يتعاملون معها؟ لوجدنا عجبا، فالنَّاس ما بين مؤمن بالله أدرك حقيقة الدنيا، وكافر منافق أحب العاجلة وغفل عن الآجلة، ولهذا انقسم تعامل النَّاس إلى قسمين.

أولا: تعامل الكافر مع الدنيا

إذا تتبعنا مسلك من أعرض عن شرائع الله ولم يلتزم برسالة سيد الأولين والآخرين ﷺ، فإننا نجد سعيهم شتى، ولكل وجهة هو موليها، ونية متوجه إليها، فالنَّاس إذا انطلقت أهواؤهم ضل سعيهم، واعتقدوا أنهم حرروا أنفسهم من ضوابط النظام الإلهي الذي وضعه خالقهم؛ ليتعاملوا به بعضهم البعض ومع الكون، ثم معه جل شأنه، وهم في حقيقة الأمر يسجنون أنفسهم بالدنيا ويتسببون في عذابها في الحياة الآخرة، فتعالوا نتعرف على أحوال الكفار، ومن ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وعلى مصيرهم في النهاية:

١. **إيثار الدنيا على الآخرة:** إن محبة الدنيا وتفضيل العاجلة زهدا في الآجلة هو رأس كل بلاء وفتنة، ولهذا حذرنا المولى ﷻ بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى ١٦-١٧]، ومعنى تؤثرون نفهمه من استخدام العرب للفظ آثر[1]، ففي اللغة يقولون: آثره عليه أي فضله وقدمه، وفلان أثير عند فلان وذو أثرة إذا كان خاصا، ويقول الله ﷻ في كتابه: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٣٧: ٣٩]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم-٣]، فمن آثر الدنيا فكأنه باع الآخرة واشترى دنياه، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة-٨٦]. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

---

١ لسان العرب لابن منظور ١: ٢٦ مادة أثر.

Upload by : altawhedmag.com

عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل-١٠٧]، فكأن من آثر الدنيا فقد حاد عن طريق الهداية وأصبح من الكافرين، ليس الكفر البواح، وإنما الكفر بمعنى الستر أو الحجب حيث غفل عن أهم حقيقة في الدنيا وهي أنها دار ممر وليست للمرء بمستقر، ويتضح المعنى إذا ذكرنا الآية التالية، وهي قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل-١٠٨]، فمن يفعل ذلك فكأنه طُبع على قلبه وسمعه، وهذه هي حقيقة الغفلة، ولذلك وصفه القرآن الكريم أنه من الغافلين. ومن كان هذا شأنه فما نهايته يوم القيامة يقول جل شأنه: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل- ١٠٩]. ومن أحاديث رسول الله ﷺ: ﴿من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثِروا ما يبقى على ما يفنى﴾[١]، ﴿من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث: هم لا يفارق قلبه أبدا، وفقر لا يستغني أبدا، وحرص لا يشبع أبدا﴾[٢]، وقد ورد عن السلف أن "حب الدنيا رأس كل خطيئة"، روي فيه حديث مرفوع لم يثبت، وقد روي عن عيسى ابن مريم عليه السلام، أنه قال: "لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد "، فمن أيقن أن الدنيا دار ممر سعى بعمله لدار المستقر، ومن شغلته عن آخرته فقد ضعف إيمانه باليوم الآخر. وتوضح القصة التالية فهم الرعيل الأول من العلماء عن حقيقة الزهد، وفي الأثر أن هارون الرشيد قال للفضيل بن عياض: "ما أزهدك؟ فقال الفضيل: أنت أزهد مني، قال الرشيد: وكيف ذلك؟ قال الفضيل: لأني زهدت في الدنيا، وأنت زهدت في الآخرة، والدنيا فانية، والآخرة باقية"[٣].

٢. **الفرح بالدنيا والاستمتاع بها:** ما بالك بمن يفرح بالدنيا ويستمتع بها؟ يقول تعالى: ﴿الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

١ حديث أبي موسى الأشعري انفرد به أحمد من بين الكتب التسعة حديث ١٨٨٦٦، ١٨٨٦٧، ورواه البيهقي في السنن الكبرى.

٢ خرجه البيهقي بإسناد حسن إلى الحسن البصري في كتابه الزهد الكبير حديث رقم ٢٤٩، وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندب بن عبد الله البجلي من الصحابة، ورواه ابن رزين عن حذيفة مرفوعا.

٣ وفيات الأعيان لابن خلكان ٣:٢١٥، نقلا عن تاريخ التصوف د. عبد الرحمن بدوي.

Upload by : altawhedmag.com

مَتَاعٌ﴾ [الرعد- ٢٦]، لقد نسي الإنسان حقيقة المتاع وقضى أجله غافلا، فإذا أعد الله له، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف-٢٠]، وهنا يجدر الإشارة لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، وهذا المعنى هو مدار حقيقة الابتلاء في الدنيا.

٣. **الرضا بالدنيا والاطمئنان بها:** هذه مرحلة أحط بكثير من مرحلة الفرح بالدنيا، فالفرح طارئ، أما الرضا والاطمئنان فحالة مستقرة، ولهذا وصفهم الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۞ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس٧-٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۞ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة٣٨-٣٩]، فهناك رضا بالحياة الدنيا واطمئنان بها للذين لا يرجون لقاء الله، فأولئك مأواهم النار، وهناك إنذار من الله للمؤمنين إذا تأخروا عن الجهاد في سبيل الله، فمعنى ذلك رضاهم بالحياة الدنيا، والله تبارك وتعالى قادر على أن يستبدل قوما غيرهم لينصروا دين الله ويجاهدوا في سبيله.

٤. **المعرفة الظاهرية بالدنيا وزينتها:** إن من انشغل بظاهر رحلته، وتوقف عند مرحلة الحياة الدنيا، ولم يدرك ما هو مقبل عليه توقف عمله عند ما ينفع في الدنيا، وغفل عن الاستعداد لباقي الرحلة ولهذا يصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم-٧]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة-٢٠٤]، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة-٢١٢].

٥. **الذُّل في الدنيا:** إن عبادة غير الله، أو الشرك به سبحانه، أو اتخاذ الوسيط، أو الشفيع عنده، كل هذه السبل توصل العبد إلى أحط درجات الذل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا

Upload by : altawhedmag.com

الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف-١٥٢]، والمعنى الخاص للآية ينصرف على اليهود الذين طلبوا من موسى عليه السلام عبادة العجل، والمعنى العام لها أن كل من اتخذ صنما، أو سجد لوثن فله ذلة في الحياة الدنيا.

٦. **العذاب في الدنيا:** إن جزاء الأعمال في الدار الآخرة ثابت ومعلوم، وهناك نوعيات من الأعمال يعجل فيها جزء من العذاب في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور-١٩]، ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [التوبة-٧٤]، ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد ٣٣-٣٤]، فمن جعل لله شريكا، أو تولى عن شرع الله، أو أحب أن تشيع الفاحشة في المؤمنين عجل له نصيب من العذاب في الدنيا قبل أن يوفى جزاءَه في الآخرة.

٧. **إحباط الأعمال في الدنيا:** إحباط العمل أن لا يجد الإنسان له ثمرة كأن لم يكن، فليس له من عمله نصيب إلا التعب والنصب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة-٥]، ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة-٢١٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران٢١-٢٢]، ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة-٦٩]، فإحباط العمل مرتبط بالكفر، والشرك، والارتداد عن الإسلام، وقتل النبيين والصالحين، والاستمتاع بالدنيا، والخوض فيها.

Upload by : altawhedmag.com

٨. **اللعنة في الدنيا:** إذا تعرضنا لآيات الله تبارك وتعالى بحثا عن الأسباب التي جعلت أقواما يصابون باللعنة في الدنيا لوجدناها في الآيات التالية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الله وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب-٥٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْـمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور-٢٣]، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء-٩٣]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة-٦٤]، ﴿الْـمُنَافِقُونَ وَالْـمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْـمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْـمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْـمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۞ وَعَدَ الله الْـمُنَافِقِينَ وَالْـمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة٦٧-٦٨]، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد٢٢-٢٣]، ﴿وَيُعَذِّبَ الْـمُنَافِقِينَ وَالْـمُنَافِقَاتِ وَالْـمُشْرِكِينَ وَالْـمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِالله ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح- ٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة-١٥٩]، إنه لمن أقصى العقوبات التي ينالها أحد من البشر أن يلعنه خالقه جل شأنه، فيضاف إلى قائمة الملعونين وعلى رأسها إبليس، وسيسير على دربه الكفار، والمشركون، والمنافقون، والمنافقات، ذلك لأنهم وصفوا الله ﷻ بما لم يصف به نفسه، فتارة ينسبون له الولد وتارة أخرى يدعون أن يداه مقبوضتان، غلت أيديهم، وتارة ثالثة يظنون بالله ظن السوء، وليست اللعنة خاصة بالكفار فقط، ولكنها تلحق بمرتكبي الكبائر من المسلمين كما دل على ذلك ما سبق سرده من آيات قرآنية، فمن يؤذي الله ورسوله، أو يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات بالسوء، أو يقتل مؤمنا متعمدا، أو من يتولى في الأرض ليفسد فيها ويقطع الأرحام، وأيضا من يكتمون العلم ولا يظهرونه للناس، كذلك من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، كل هذه الأعمال جزاؤها عند الله اللعنة.

Upload by : altawhedmag.com

٩. **الخزي في الدنيا:** هناك أفعال توصل بالإنسان إلى درجات الخزي والتردي في هاوية الهوان، وهذه الأفعال تحددها الآيات المباركات: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة٨٥-٨٦]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة-١١٤]، ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ۞ فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر٢٥-٢٦]، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة-٣٣]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۞ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج٨-٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة٤١-٤٢]، من هذه الآيات المباركات نرى أن الأعمال الآتية جزاؤها الخزي في الحياة الدنيا

Upload by : altawhedmag.com

- المسارعة للكفر، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، وشراء الدنيا بالآخرة، وتحريف الكلم عن مواضعه.
- المجادلة في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير لإضلال النَّاس.
- محاربة الله ﷻ، ورسوله ﷺ، والسعي بالإفساد في الأرض.
- قتل النفس، وإخراج النَّاس من ديارهم بالإثم والعدوان.
- منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها.
- استماع الكذب وأكل السحت.

١٠. **الخسران وسوء المصير في الآخرة:** نذكر بعضا من آيات القرآن الكريم لبيان درجات الخسران لكل من شغلته الدنيا، ولم يعمل لما بعدها من أهل الكفر، والنفاق، والمعاصي، قال تعالى موضحا الأعمال الموصلة للخسران: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۞ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل ١٠٧: ١٠٩].

- **الخسران المبين:** أما عبادة الله على حرف، حيث يرضى العبد عن الله إذا ناله الخير، ويغضب ويسخط عن الله إذا آتاه ما يكره، فذلك خسران واضح، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْـمُبِينُ﴾ [الحج-١١].
- **الأخسرين أعمالا:** أما أشد الأعمال أن يعتقد الكافر أنه يحسن صنعا بينما هو في الواقع من المفسدين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف١٠٣: ١٠٦].

١١. **تزهق أنفسهم وهم كافرون:** المتاع كما قلنا الأموال والأولاد، فمن النَّاس من ينعم الله عليه بهما معا، ومنهم من يتلقى نعمة واحدة، قال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُـهُمْ وَلا

Upload by : altawhedmag.com

أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة-٥٥]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد-٢٠]، وتحذر الآية الأولى المؤمن أن تعجبه أموال الكافرين أو أولادهم، حين يرى أهل الكفر يتمتعون بإحدى المتعتين، وفي الآية الثانية يشير إلى تفاخر النَّاس بالأموال والأولاد، وفي الآيتين الإشارة أن هذه النعم شغلت النَّاس حتى تزهق أنفسهم وهم كافرون بالله وبنعمه عليهم، وهم لا يعلمون أنها متاع سرعان ما يزول.

ثانيا: نظرة المؤمن للدنيا

إذا استعرضنا آيات القران التي تصف المؤمنين وعطاء الله لهم في الدنيا نجد أن عددها أقل كثيرا عما ورد في شأن الكفار من آيات، ذلك لأن الحق واحد، والهدي الموصل إلى الجنة والصراط المستقيم واحد، بينما شعب الكفر وصور الضلال وطرق الظلمات كثيرة، فناسب ذلك وصفا تفصيليا من القرآن لأحوال الكفار، بالإضافة إلى ما يشرح الله به صدور المؤمنين لتكون بشرى لهم وعونا للثبات على النهج المستقيم، قال تعالى:﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر-١٠]، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل-٣٠]، ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم-٢٧]، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي الله مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل ٤١-٤٢]، ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس٦٢: ٦٤]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر-٥١]، فأهل الإيمان والتقوى لهم في الدنيا حسنة بأن يثبتهم الله بالقول الثابت بـ "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" شهادة التوحيد ليظل نهجهم مطابقا لهدي محمد ﷺ، ثم إن لهم

Upload by : altawhedmag.com

الأمن والسعادة والبشرى في الحياة الدنيا، فتقر عيونهم، وتنشرح صدورهم، وتطمئن قلوبهم، ثم إن لهم الفوز يوم يقوم الأشهاد.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

القسمة والنصيب

لما كان الخالق جل شأنه متصفا بالقدرة والحكمة فقد أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى وهو سبحانه وتعالى يقسم بين النَّاس معيشتهم في الحياة الدنيا، ويعطي كل خلق نصيبا معلوما وقدرا محكوما لأسباب يعلمها وحده لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف-٣٢]، فهناك قسمة قسمها الحق تبارك وتعالى، ومن أعدل من الله حكما، وهناك نصيب معلوم ناله كل مخلوق من هذا العطاء الإلهي لقوله تعالى: ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص-٧٧]، وقد وزع الله تبارك وتعالى المنح والمواهب على القلوب، كما وزع البلاء والاختبار على خلقه، ومن لا يصلحه الغنى خلق فقيرا، ومن يفسده الفقر جعله الله تبارك وتعالى غنيا، وأعطى هذا المُلك، وهذا الذرية الصالحة، وهذا الصحة والعافية، وذاك الزوجة البارة، وهذا العقل الراجح، وهذا النفس الأبية، وهكذا نال كل امرؤ ما يناسبه، وقد سُئل أحد الحكماء، فقيل له: "ما بالنا نرى العاقل محروما والأحمق مرزوقا؟ فقال: لو رزق العاقل وحرم الأحمق لظن الناس أن العقل يرزق صاحبه، فخالف ليعرف أنه الرزاق جل شأنه، وينظم الشافعي نفس المعنى شعرا، فقال:

تموت الأَسد في الغابات جوعا ولحم الضأن تأكله الكلاب

وعبد قد ينام على حرير وذو نسب مفارشه التراب

فكل مولود يبدأ منذ اللحظة الأولى من حياته على الأرض في الإنفاق من عمره واستهلاك مقادير العطاء الإلهي من متاع الدنيا الذي جعله الله تبارك وتعالى على أكمل صورة من صور الخلق، وحتى يبلغ الإنسان الدار الآخرة، وقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين وختم برسالة محمد ﷺ الرسالات، فأكمل به الدين وأتم به النعمة، ورضي لنا الإسلام دينا، فكانت الرسالة الخاتمة لأنها وضعت الأسلوب الخاتم والكامل للتعامل مع أي شيء في الكون بالصورة التي تأخذ من متاع الدنيا زادا ووقودا يدفع بالإنسان المسلم إلى الله ﷻ بأقوى دفع وبأقصى اتزان واستقرار بين عوالمه المختلفة، أما من أخذ قسمته ونصيبه من فضل الله وعطائه، ثم أنكر، أو رفض منهج الله في

Upload by : altawhedmag.com

التعامل مع النعم، فقد صرف نعمته لاستمتاع نفسه، وتخليد هواها، وسار خلف خطوات الشيطان الذي كان أول من سن الرفض والإنكار يوم أُمر بالسجود، فرفض واستكبر عن أمر الله ﷻ، فكان مآله الخسران.

إن من أخذ نصيبه من العطاء والمتاع في الدنيا، ثم أفنى عمره في الاستمتاع بغير الأسلوب الإلهي فقد جهل حقيقة الدنيا، كما أعرض عن حقيقة الآخرة، ولم يدرك أنه مسافر من مرحلة إلى أخرى، ولهذا تجده ينكر القبر وعذابه، والقيامة والبعث والحساب، ولا يصدق بالحقائق الإيمانية التي نزلت بها الشرائع السماوية، ويكفي أن نقول لهؤلاء انظروا في معنى كلمة الحياة الدنيا في اللغة العربية، فإنكم إن فعلتم لوجدتم أن كلمة الدنيا اسم مشتق من الدنو، وعلى وزن فُعلى، والمصدر فيها دني يدنو فهو دان بمعنى قرب، وسميت الحياة الدنيا لدنوها ولأنها دنت فهي الحياة الأقرب، وكلمة أقرب معناها الأقل قيمة فهي رخيصة دانية بينما تأخرت الآخرة، ويقال في اللغة: أدنى إذا عاش عيشا ضيقا بعد سعة، وكذلك من معاني كلمة الأدنى أي الأسفل، والدني: هو الشيء الساقط الضعيف الخسيس، ويقال: الودني أي المقصر عما ينبغي له أن يفعله، فالدنيا من الدناءة والحقارة وقلة الشأن.

وينسب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أنه قال: "الركون إلى الدنيا مع ما تعاين فيها جهل، والتقصير في حسن العمل إذا وثقت بالثواب عليه غبن، والطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار عجز".

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الخامس

- الحياة الدنيا كماءٍ أنزله الله إلى الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم لا تلبث أن يأتي وقت الحصاد، فكأنها لم تغنَ بالأمس.
- الكافر والمؤمن كلاهما له نظرته للدنيا التي تحدد سلوكه فيها، والتي تختلف عند كل منهما اختلافا بيّنا عن نظرة الآخر.
- المسلمون اليوم مطالبون بالانفتاح على الأمم، وصد الغزو الثقافي الذي يضرب عقيدتنا في الصميم.
- إذا تتبعنا مسلك من أعرض عن شرائع الله ولم يلتزم برسالة سيد الأولين والآخرين ﷺ، فإننا نجد سعيهم شتى.
- الحق واحد، والهدي الموصل إلى الجنة والصراط المستقيم واحد، بينما شُعب الكفر، وصور الضلال، وطرق الظلمات كثيرة.
- كل مولود يبدأ منذ اللحظة الأولى من حياته على الأرض في الإنفاق من عمره واستهلاك مقادير العطاء الإلهي من متاع الدنيا الذي جعله الله تبارك وتعالى على أكمل صورة من صور الخلق، والسعيد من أعانه هذا العطاء على بلوغ الجنة، والشقي من أغوته النعم حتى هوى في النار.
- إن من أخذ نصيبه من العطاء والمتاع في الدنيا، ثم أفنى عمره في الاستمتاع بغير الأسلوب الإلهي فقد جهل حقيقة الدنيا، فالدنيا مزرعة، وحصادها يوم القيامة

Upload by : altawhedmag.com

الباب السادس

حركة

المؤمن في الدنيا

١. أنواع حركة المؤمن في الدنيا

٢. المنهج يضبط إيقاع الحركة

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

وصفنا فيما سبق رحلة الإنسان عبر الزمان منذ بداية خلق الأرواح حين مسح الحق تبارك وتعالى ظهر آدم عليه السلام، واستخرج منه أرواح ذريته، وأخذ عليهم العهد والميثاق، حتى إذا قدر الله تبارك وتعالى تصوير الجنين في رحم الأم أمر ملك النفخ أن ينفخ الروح في الجنين، حتى إذا تمت أيامه في بطن أمه استهل صارخًا معلنًا بداية حياته على ظهر الأرض، ومنذ تلك اللحظة وحتى يقبض ملك الموت روحه ثانية يكون عمر الإنسان وأجله، وكلما تعاقبت أيامه نقص ما تبقى له واقترب من قبره، فتلك دنياه، وهذا ابتلاؤه، وعليه أن يستثمر أيامه في الحصول على رضوان الله تعالى وعمل الصالحات، ولهذا وصف الحسن البصري رضي الله عنه الدنيا فقال:" أما اليوم فعمل، وأما أمس فأجل، وأما غد فأمل"، وقال بعض الحكماء: "الأيام ثلاثة: فأمس صديق مؤدب أبقى لك عظة وترك فيك عبرة، واليوم صديق مودع أتاك ولم تأته، كان عنك طويل الغيبة وهو عنك سريع الظعن فخذ لنفسك فيه، وغد لا تدري ما يحدث الله فيه أمن أهله أنت أم لا". ويروى عن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال: "لا تهتموا برزق غد، فإن يكن غد من آجالكم فسيأتي فيه رزقكم مع آجالكم، وإن لم يكن غد من آجالكم، فلا تهتموا لآجال غيركم".

فالإنسان بين أمسه وغده يحيا يومه، وحركة النَّاس في حياتهم اليومية يختلف إيقاعها، فهي تبطئ أحيانًا وتسرع أخرى تبعا لمقاصدهم في سعيهم، ولما كانت ثمرة حركة النَّاس في حياتهم ينالونها، أما جنة نعيم أو عذاب مقيم لزم أن نرجع إلى كتاب الله عز وجل وإلى سنة رسول ﷺ؛ لنرى أنواع الحركة ومجال استخدام كل نوع منها، فنجد القرآن الكريم يستخدم الألفاظ التالية: المشي، والسعي، والسير، والمسارعة، والتنافس، والتسابق.

توجيها للمؤمنين وتعليما لهم حتى يستخدموا نوع التحرك المناسب الموافق لقدر الثواب الذي ينالونه في مراحل حياتهم بعد الموت، وإذا نظرنا إلى معاني هذه الألفاظ والمقصود منها علمنا أن منهج القرآن يستخدم طاقة المؤمنين أكفأ استخدام وبما يعود عليهم بأجزل ثواب، ولبيان ذلك ندرس كل لفظة على حِدة، ومعناها في اللغة واستخدام القرآن لها، ونوعية المقاصد المستعملة معها، فنقول وبالله تعالى التوفيق: إن أول أنواع الحركة للبالغ المكلف هو المشي:-

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

أنواع حركة المؤمن في الدنيا

أولا: المشي

المشي عكس السكون ومعناه الانتقال والمرور من مكان لآخر، وهو لفظ يستخدم مع الإنسان ومع غيره من المخلوقات التي خلقت من الأرض، وإليها تعود لقوله تعالى:﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور-٤٥]، بينما الملائكة المخلوقين في الملإ الأعلى نجدهم لا يقدرون على المشي مطمئنين على الأرض لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء-٩٥]، وقد رأينا كيف كان رواد الفضاء يسيرون خفافا على سطح القمر لاختلاف جاذبيته عما اعتادوه على الأرض، فمن خلق في موطن استقرت عوالمه عند أصلها، لذلكم تتنزل الملائكة بأمر الله من الملإ الأعلى في مهام محددة يعرجون بانتهائها إلى السموات العلى.

وقد اعترض الكفار على الأنبياء أنهم يمشون في الأسواق، ويحتاجون إلى طعام وشراب كباقي البشر: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان-٧]، فكان الرد من الحق تبارك وتعالى أنها سنته سبحانه، أن يكون الرسول من جنس المبعوث إليهم، إذ لو خالفهم في طبيعتهم ما استطاعوا أن يتبعوه ويقتدوا به، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان-٢٠]، فالمشي أذن حركة ضرورية للحياة، فالأسواق فيها مستلزمات وعناصر الحياة، لذا قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك-١٥]، فما تتطلبه الحياة لا يحتاج التسارع والتنافس، وإنما استخدم لفظ المشي والذي يتطلب التؤدة والروية؛ لأن القدر الضروري للحياة بسيط جدًا كَثَّرَهُ أهل الجهل وعشاق الدنيا، فرسول الله ﷺ يقول: ﴿من أصبح منكم معافى في جسده، آمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا﴾[1]، ولهذا حدد القرآن الكريم آداب المشي للحصول على مطالب

١ حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري يرويه عنه ابنه سلمة، وهو مجهول، أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢: ٨٤، والبيهقي في الزهد الكبير حديث ١٠٦، رواه ابن ماجه: ٤١٣١، والترمذي في سننه ٢٢٦٨، وقال: حديث حسن غريب، والطبراني ١٠:

Upload by : altawhedmag.com

الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء-٣٧]، ويقول لقمان وهو يعظ ابنه:﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان ١٨-١٩]، ووصف الله ﷻ عباده قائلا: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان-٦٣]، فالمشي في الأرض المصحوب بالتواضع والأدب هو نوع الحركة المطلوب للحصول على مستلزمات الحياة الدنيا، وهذا المشي إذا طابق هدي المصطفى ﷺ كان العطاء من الله نورا في الدنيا معينا لهم على الالتزام بالصراط المستقيم يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد-٢٨]، فالنور يمشي بين أيديهم ينير لهم السبيل، ويرافق ممشاهم في الدنيا، فإذا زادت سرعة المشي سمي سعيا، وهو ما نعرضه قائلين.

ثانيا: السعي

السعي في اللغة العربية المشي السريع، أو العدو دون الشَّدِّ، أي أنه درجة من درجات الحركة أسرع من المشي، ففي الحديث المتفق عليه: ﴿إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن ائتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا﴾[1]، وللزجاج رأي آخر، فهو يقول: السعي والذهاب بمعنى واحد، لأنك تقول للرجل وهو يسعى في الأرض وليس هذا باشتداد، وقال أيضا: أصل السعي في كلام العرب التصرف في كل عمل.

ويمكن الجمع بين هذه المعاني بأن نقول أن السعي هو المشي المصحوب بالهمَّة والقوة، وعكسه الكسل والخمول، وهذا المعنى نراه واضحا في الاستخدام القرآني لهذا اللفظ، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْـمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْـمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾

---

٢٨٩ وله شواهد من حديث أبي الدرداء الذي رواه ابن حبان وأبو نعيم في الحلية، وحديث ابن عمر الذي يرويه ابن أبي الدنيا، وحديث علي ﷺ أخرجه السهمي في تاريخ جرجان، وصححه الألباني حديث ٢٣١٨

١ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٦٠٠، ومسلم ٩٤٤، والترمذي ٣٠١، وأحمد ٦٩٣٢، والنسائي ٨٥٢، وأبو داود ٤٨٥، وابن ماجه ٧٦٧، وحديث ربعي بن خراش متفق عليه أخرجه البخاري ٥٩٩، ومسلم ٩٤٨، وأحمد ٢١٥٦٠، والدارمي ١٢٥٢

Upload by : altawhedmag.com

[القصص-٢٠]، ولا شك أن سعيه كان أسرع من المشي ولعله دون العدو حتى لا ينتبه النَّاس لأمره، كذا قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْـمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْـمُرْسَلِينَ﴾ [يس-٢٠]، ولذلكم سمي السعي بين الصفا والمروة وهو الذي يجمع بين المشي والهرولة بين الميلين الأخضرين.

السعي لفظ عام يستخدم في جميع المقاصد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل-٤]، وكذا قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم٣٩-٤٠]، فمن النَّاس من كانت همته وسعيه إلى ما يغضب الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ [المائدة-٣٣]، ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ-٣٨]، ومن النَّاس من كان سعيه لمرضاة مولاه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء-١٩]، وقد وصف القرآن حالهم يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْـمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد-١٢]، وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم-٨]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۞ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية٨-٩].

كما جعل الله تبارك وتعالى للمؤمنين نورا يمشون به في الدنيا، جعل نورهم يسعى بين أيديهم في الآخرة؛ لأن الله شكر لهم سعيهم في الدنيا، وأجزل لهم العطاء، وتعددت صوره، وتستطيع أن تراها وتحسها إذا قرأت سورة الإنسان، فإنك كلما قرأت هذه السورة المباركة حلقت روحك في أجمل وأكرم صور الكرم الإلهي وما أعده سبحانه وتعالى لعباده الصالحين، نسأله جل شأنه أن يجعلنا منهم، وختمت آيات تصوير الجنة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان-٢٢]، والأمر بالسعي جاء خاصا بالصلاة، قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْـجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الجمعة-٩].

ثالثا: السير

السير في اللغة الذهاب، ويقولون: سار القوم يسيرون سيرا ومسيرا، إذا امتد بهم السير في جهة توجهوا لها، والسيرة: أي الطريقة، يقال: سار بهم سيرة حسنة، والسيارة القافلة، ومن هنا

Upload by : altawhedmag.com

نرى فرقا واضحا بين المشي والسعي، وبين السير الذي هو حركة المسافر، فالسير يتضمن امتداد الحركة وطولها مما يستلزم دوام مراقبة الطريق للتأكد من صحة المسار.

وهذا المعنى نراه واضحا جليا في الاستخدام القرآني للفظة السير، فقد وردت ثلاث آيات بدأت بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ثم ختمت كل آية منها بقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم-٩]، ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر-٤٤]، ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر-٢١]، ثم وردت ثلاث آيات أخرى بدأت بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [غافر-٨٢]، ثم ختمت كل آية منها بقوله ﷻ: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر-٨٢]، ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد-١٠]، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف-١٠٩]، ولم يكتفِ القرآن بهذه الآيات التي تتساءل باستنكار داعية النَّاس أن يسيروا، بل جاء الأمر بالسير واضحا لا يحتمل التأويل في أربع آيات بدأت بقوله جل شأنه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾، يلي ذلك قوله في سورة [الروم-٤٢]: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾، وفي سورة النمل: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْـمُجْرِمِينَ﴾ [النمل-٦٩]، وفي سورة الأنعام، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْـمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام-١١]، وتستكمل الآية الأخيرة بأمر الله ﷻ: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت-٢٠].

فالسير إذن ليس حركة انتقال مادية ولا سعيا بدنيا فقط، وإنما هو حركة ممتدة تعمل فيها جميع عوالم الإنسان، فالبدن يمشي والحواس تدقق، والعقل يتأمل ويفكر، والقلب يتدبر، فالسير بهذا المعنى يفتح آفاق المعرفة، ولأهميته نجد الأمر به تكرر في القرآن أكثر من غيره، فالأمر بالمشي جاء مرة واحدة: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك-١٥]، والأمر بالسعي جاء مرة واحدة أيضا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْـجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة-٩]، ومرتبط بالصلاة يوم الجمعة وذكر الله فيها، أما في السير فجاء الأمر خمس مرات تصريحا بالإضافة إلى سبع مرات تلميحا، وفيها جميعا جاء الخطاب بالسير في الأرض، وقد نرى أن المقصود لأول وهلة هو السير على الأرض، ولكن إذا علمنا أن المراد من الخطاب معرفة كيف بدء الخلق؟ وكيف كان عاقبة من كانوا قبلنا؟ لأدركنا أن السير المطلوب هنا ليس على الأرض فقط، وإنما هو في الأرض وطبقاتها المختلفة بالدرجة الأولى، ولذلكم جاء

Upload by : altawhedmag.com

الخطاب بـ ﴿فِي﴾ ليشمل السير على الأرض والتنقيب في باطنها، وهذا أمر من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين بالسير المصحوب بالتفكر، وحدد لهم إطار الفكر وحدوده وفي موضوعات توصلهم إلى معرفة حقيقة الدنيا، فأين من كانوا أشد منا قوة وأكثر آثارا؟ تلك الآثار التي نقف مشدوهين أمامها ويجوب النَّاس الدنيا من أقصاها إلى أقصاها إلى حيث توجد آثارهم ليطالعوها ويعلنوا عجزهم حتى اليوم عن الإتيان بمثلها، فالسير في الأرض يبصرنا بعاقبة الطغاة، والجبابرة وأصحاب السطوة، ومن سعوا في الأرض فسادا، فكل ظالم وطامع لا تسعه الأرض على اتساعها، ثم سرعان ما تنتهي آجالهم، ويسعهم القبر على ضيقه.

إن التنافس في معناه الحقيقي يكون في طلب رضوان الله تعالى، وعدم الانبهار بمتاع الدنيا، وهذا محمد بن سيرين أحد كبار التابعين رضوان الله عليهم، يقول: "ما حسدت أحد على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار".

واستكمالا للبحث عن كلمة السير في القرآن الكريم نجدها لم ترد منسوبة إلى إنسان بعينه سوى مرة واحدة ومنسوبة إلى نبي الله موسى الكليم ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [القصص-٢٩]، وباستخدام القرآن الكريم لكلمة سار إعجاز بياني يوضح عظمة ودقة البيان الإلهي، فكلمة سار عبرت عن امتداد الحركة، فموسى عليه السلام عائد من ديار مدين إلى مصر، فالسفر طويل، كما أضافت وصفا لائقا بمقام موسى عليه السلام، فهو يسير متفكرا في قدرة الله وآياته من حوله، ولذلك حينما رأى نارًا من جانب الطور جاء التعبير القرآني بلفظ آنس، والأنس بشقه المادي لوجود نار التدفئة، ولكن قبله كان أكثر أنسا بالتأمل في مخلوقات الله ﷻ، مما جعله في أكمل حالات الاستعداد لتلقي وحي الله تبارك وتعالى وسماع خطابه.

رابعا: المسارعة

السُّرعة ضد البطء الذي هو حركة تنتج عن سكون، فالمشي إذا كان بهمّة سمي سعيًا، والسير يطلق عند السفر، فالمشي إذا كان ممتدا مصحوبا بالتفكر سمي سيرا، وإذا صاحبه عجلة تولدت السرعة، وهي كلمة تستعمل في الأجسام والأفعال، وأَسْرع أي طلب الشيء وتكلّفه

Upload by : altawhedmag.com

وتعجلّه، وتَسَرَّع بالأمر أي بادر به، وإذا أصبحت السُّرعة كبيرة في أغلب الأفعال والأجسام سُميت سرع وسرعت، والعرب تقول: سُرْعَان الخيل أي أوائلها وصولا، سُرعان النَّاس وسُرعانهم: أي أوائلهم، المستبقون إلى الأمر، بينما يستخدم لفظ المتسرع لوصف الشخص المبادر إلى الشر، ولهذا لم تكن السرعة محمودة على إطلاقها، فإن رسول الله ﷺ، قال: ﴿إن هذا الدين متين، فأوغلوا[١] فيه برفق، ولا تبغضوا إليكم عبادة الله، فإن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى﴾[٢]، ويؤكد نفسَ المعنى رسولُ الله ﷺ، في قوله: ﴿عليكم هديًا قاصدًا [ثلاث مرات]، فإنه من يشادّ الدين يغلبه﴾[٣]، فالإنسان مطالب بالتؤدة والسير القاصد في كل أموره، ولذلكم يستخدم القرآن الكريم صفة السرعة في المواضع المطلوبة لها والتي نعرضها فيما يلي:-

١. **سرعة الحساب يوم القيامة:** لا تعني السرعة هنا أن أحدا لن يأخذ حظه كاملا من العدل والقسط في الجزاء والحساب على ما قدمت يداه، يقول عز من قائل: ﴿لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم-٥١]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف-١٦٧]، والأمر ليس سرعة بل عدل ورحمة، يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر-١٧]، فكل نفس توفى حقها، فالفتيل، والقطمير، والنفير، والذرة، وأقل من ذلك يوضع في ميزان العبد يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء-٤٧].

٢. **سرعة البعث والنشور:** يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج-٤٣]، ويقول سبحانه ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [سورة ق-٤٤]، فالبعث لا يحتاج إلى مراحل كخلق السموات والأرض مثلًا، وإنما إذا جاء الأمر بالقيام للمثول

---

١ الإيغال: السير الشديد، والوغول الدخول في الشيء، والمراد: سر فيه برفق ولا تحمل على نفسك وتكلفها ما لا تطيق، فتعجز وتترك الدين والعمل، والمنبت الذي انقطع به سفره وعطبت راحلته.

٢ حديث محمد بن المنكدر مرسلا أخرجه وكيع في الزهد ٢٣٤، وله شواهد من حديث أنس وعبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا وموقوفا، أخرجه البيهقي في سننه ٣: ١٩، وابن المبارك في الزهد ٤٦٩.

٣ حديث بريدة الأسلمي أخرجه وكيع في الزهد ٢٣٥، وأحمد في مسنده ١٨٩٥٠، ٢١٨٨٥، ٢١٩٧٥، والطحاوي في مشكل الآثار ٢: ٨٦، البيهقي في سننه ٣: ١٨، وله شاهد من حديث أبي هريرة وعروة الفقيمي.

Upload by : altawhedmag.com

بين يدي رب العالمين بادرت الأعضاء واجتمعت الذرات والتأمت العوالم، فإذا هم قيام ينظرون، كما أن صفة السرعة استعملها القرآن الكريم مقترنة بمراد الحق تبارك وتعالى يوم القيامة، فكذلك جاءت صفة لأفعال الكفار ومسارعتهم إلى اقتراف المعاصي، يقول تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة-٦٢]، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون ٥٥-٥٦]، ويشرح القرآن الكريم سبب مسارعتهم في السيئات بقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة-٥٢]، ثم يصف القرآن أفعال المؤمنين، فيقول عز من قائل: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْـمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْـمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران-١١٤]، ويصف القرآن عددا من الأنبياء بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء-٩٠]، ويصف عباده الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون٦٠-٦١].

٣. المسارعة إلى الخيرات: فالله يطالب عباده المؤمنين بالمسارعة في الخيرات والمبادرة بها، بل والتنافس والتسابق إليها، فالموت يأتي بغتة، ولا مجال للتسويف والتأجيل لأمر لا تملكه، ولهذا قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1]، فمن أراد أن يحسن استغلال كل لحظة لا ينشغل بما لا يعنيه، وبهذا وعظ رسول الله ﷺ أصحابه، فقال: «إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ

١ رواه الحاكم ٤: ٣٠٦، وقال صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال العراقي: إسناده حسن، كما أخرجه وكيع في الزهد حديث رقم ٧ ص ٢٢٤، وابن أبي شيبة ٢: ٢٤٣، وأبو نعيم في الحلية ٤: ١٤٨، وعبد الله بن المبارك في الزهد: ٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٣: ٢٤٠، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل ٢: ١٣، ويقول عبد الرحمن الفريوائي محقق كتاب الزهد لوكيع: وخلاصة القول أن الحديث صحيح لغيره ٢٢٤

٢ حديث أبي هريرة رواه الترمذي في الزهد ٢٢٣٩، ٢٢٤٠ وقال حديث غريب، وابن ماجه ٣٩٦٦، وحديث الحسين بن علي رواه أحمد ١٦٤٢،١٦٤٦، ومالك في الموطإ ١٤٠٢

Upload by : altawhedmag.com

ببعض جسدي، فقال: ﴿كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، وعُدّ نفسك في أهل القبور﴾[١]، فقال ابن عمر لمجاهد رضي الله عنهما، وهو راوي الحديث: "إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدا"[٢]، وقد أجرى عمرو بن العاص ﷺ مقارنة بين معدل الحركة المطلوب للدنيا، فجعلها أقل معدل، بينما جعل معدل الحركة المطلوب لعمل الآخرة أقصى معدل ممكن، حيث قال: "واعمل عمل امرئ ليظن أن لن يموت إلا هرما، واحذر حذر امرئ يحسب أنه يموت غدا "[٣]، وهذا هو الفارق الذي نعنيه بين المشي والمسارعة.

٤. المسارعة إلى طلب المغفرة: وقد حدد لنا الحق سبحانه صفات عباده الذين يسارعون إلى مغفرة منه، قال جل شأنه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْـمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْـمُحْسِنِينَ ۞ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران ١٣٣: ١٣٦]، فالمسارعة إلى مغفرة الله وجناته تقتضي من عباده المتقين الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن النَّاس، والمبادرة إلى ذكر الله ﷻ، وطلب مغفرته إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم، حتى ينالوا ما سارعوا إليه ألا وهو المغفرة والجنات، ونعم أجر العاملين.

خامسا: التسابق والتنافس

إنه لمن المنطقي أن النَّاس إذا دعوا إلى المسارعة في أمر من الأمور أن يبادر أقوام ويتقاعس آخرون، ومن هنا جاء السبق، فالسبق في اللغة: "المقدمة في الجري وفي كل شيء، ويسبقه سبقا أي تقدمه، وسابقته فسبقته"، قال تعالى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات-٤]، قال الزجاج: هي

---

١ حديث عبد الله بن عمر أخرجه البخاري ٥٩٣٧، وابن ماجه ٤١٠٤، وأحمد في مسنده ٤٥٣٤، ٤٧٦٠، ٥٨٨١ والترمذي ٢٢٥٥

٢ حديث عبد الله بن عمر رواه الترمذي ٢٢٥٥، ورواه عبد الله بن المبارك في الزهد حديث ١٣

٣ أخرجه ابن المبارك في الزهد ٤٦٩، وأورده الحافظ ابن حجر في الفتح ١١:٩٧

Upload by : altawhedmag.com

الخيل، وسبقت الخيل وسابقْتُ بينهما، إذا أرسلتها وعليها فرسانا لتنظر أيها يسبق، وتسابق القوم إلى أمر أي بادروا، وتخاطروا، وتناضلوا، اجتهد كل منهم أن يكون السابق، والقرآن الكريم يستخدم الكلمة في المواضع الآتية:-

١. في قضاء الله: إذا قضى الله ﷻ أمرا فهو السابق لا محالة، يقول عز من قائل: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر-٥]، ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة-٦٠]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [سورة طه-١٢٩]، فأمر الله وقضاؤه سابق لا يدرك، ولهذا فسر العلماء كلمة سبقت في الآية الأخيرة بمعنى وجبت، والله أعلم.

٢. وعد الله للأنبياء والصالحين: وعد الله لا يسبقه شيء، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات١٧١: ١٧٣]، وكما صدق وعد الله مع أنبيائه وجنده في الدنيا، فكذلك ينال المؤمنون الأمن والأمان يوم القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء-١٠١].

٣. التسابق بالصالحات: جعل الله تبارك وتعالى للجنة ثمانية أبواب، وأنشأ فيها درجات يرقى بعضها فوق بعض، وجعل بين الدرجة والتي تليها كما بين السماء والأرض، ثم أمر عباده إلى التسابق لينال كلٌّ حسب عمله المضاعف له بفضل ربه، ولهذا حثنا على الحذر من الدنيا فهي دار البلاء، ودعانا لما فيه الفوز بجزيل العطاء، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة-٤٨]، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة-١٤٨]، ولم يقصر الدعوة على الطائعين بل جعلها عامة، فقال سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد-٢١]، فمن أخذ بهذا التوجيه الرباني وشمر عن ساعديه، وجد واجتهد في طاعة مولاه، قربه ربه وأعانه على نفسه ودنياه وشيطانه وهواه، وجاءه الفضل والكرم هرولة حتى يصل إلى مقام الإحسان فيصفه مولاه قائلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾

Upload by : altawhedmag.com

[الواقعة١٠: ١٤]، وهذا من عظيم كرم الله ﷻ، حيث لم يقصر هذا المقام على الأولين أصحاب رسول الله ﷺ فقط، بل جعل باب السبق مفتوحا حين قال ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾.

٤. السبق إلى الإسلام: حقق أصحاب رسول ﷺ السبق الحقيقي إلى الإسلام، فالذين أسلموا في دار الأرقم أولا، ثم المهاجرين إلى الحبشة، ثم في المهاجرين إلى المدينة، والأنصار الذين يحبون من هاجر إليهم، ويؤثرون على أنفسهم، ثم في أهل بدر، ثم فيمن حضر بيعة الرضوان، ثم من أسلم يوم الفتح. ولهذا علّمنا رسول الله ﷺ كيفية الأدب مع أصحابه رضوان الله عليهم، حيث قال ﷺ: ﴿لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه﴾[1]، فمن رحمة الله ﷻ أنه من اقتفى طريقهم، فإنه يُلحقه بهم بفضله وكرمه، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة-١٠٠]، فمن أراد أن يلحق بهؤلاء الأبرار فالتنافس في الطاعات يجب أن يكون سجيته، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۞ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۞ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين٢٢: ٢٨]، نسأل الله الكريم أن يجعلنا منهم، وأن يحشرنا في زمرتهم، إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب.

١ حديث أبي سعيد الخدري متفق عليه أخرجه البخاري ٣٣٩٧، ومسلم ٤٦١٠، والترمذي في المناقب ٣٧٩٦، وأبو داود ٤٠٣٩، وأحمد في مسنده ١٠٦٥٧، ١١٠٩٢، ١١١٨٠

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

المنهج يضبط إيقاع الحركة

مما سبق نرى القرآن الكريم يحدد مناهج حركة المؤمن في الدنيا بما يحقق أنسب قدر من الحركة في مقابلة أمور الدنيا، فقال عز من قائل: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك-١٥]، ففي طلب الرزق جاء الخطاب بالمشي، ولم يذكر المسارعة والتنافس مثلا، فالرزق كما يحدده القرآن الكريم ثابت للعبد مقرر من الله تبارك وتعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات٢٢-٢٣]، وليس هذا خاصا بالإنسان فقط بل كل مخلوق خلقه الله قدر له رزقه، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود-٦]، لذلكم علمنا رسول الله ﷺ أن نتحرك في طلب الرزق متوكلين على الله ﷻ، فقال ﷺ: ﴿لو أنكم كنتم توكلون [وفي رواية: لو أنكم توكلتم] على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا﴾[1]، فالعبد مطلوب منه التحرك في طلب الرزق، فالطيور لم تعتكف في أوكارها متوكلة على الله ﷻ، فذلك تواكل منهي عنه في الإسلام، بل هي تغدو وتروح، وبين ذلك يأتيها رزقها، ثم يأمرنا القرآن الكريم بزيادة معدل الحركة فوق مستوى المشي ودون العدو وذلك السعي، وينبهنا الحق تبارك وتعالى إلى أن النَّاس سيختلف مسعاهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل-٤]، فكل منا أمامه طريقان أحدهما إذا سعى فيه إلى ذكر الله وطاعته أوصله إلى الجنة والرضوان، والآخر إذا سعى فيه إلى شهوات نفسه وتحقيق لذّاتها أوصله إلى السخط والنيران، ويأتي بيان رسول الله ﷺ، قائلا: ﴿من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفَرَّق عليه شمله، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما قُدِّر له﴾[2].

١ حديث عمر بن الخطاب أخرجه أحمد في مسنده ٣٤٨ وابن ماجه في سننه ٤١٥٤

٢ حديث أنس بن مالك أخرجه الترمذي في سننه ٢٣٨٩، حديث زيد بن ثابت أخرجه الطبراني في الكبير ٥: ١٨٥، وأحمد في الزهد ٣٣، ووكيع في الزهد ٣٥٩، وابن ماجه ٤٠٩٥ ورواته ثقات، وابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن ٤٧،

Upload by : altawhedmag.com

فالدنيا في ذاتها ليست هدفا يجعله الجاهل الغافل غايته، والتمتع بها همه وبغيته، فمن كان هذا مسلكه أهلك نفسه ولا ينال من الدنيا إلا ما قدر له، ثم انظر إلى بيان من أوتي جوامع الكلم صلوات الله وسلامه عليه في قوله: "شتت الله عليه أمره، وفرق عليه شمله"، لأن من كان هذا حاله ضاع منه الهدف الحقيقي من الحياة، وتاه عنه التفكر في القبر والبعث ولقاء الله، لذا نرى رسول الله ﷺ يخاطبنا بقوله: ﴿من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبالِ الله في أيها هلك [وفي رواية: لم يبالِ الله في أي أوديتها هلك]﴾[1].

إذن فالغاية واضحة، فيجب أن تتلاشى كل الهموم إلا هم المعاد، ويجب أن تكون حركة المؤمن في الحياة وهو يسعى في طاعة خالقه ﷻ سيرا متأملا، ومتفكرا، في آثار قدرة الله وعظيم رحمته، هذا السير كما ذكرنا يستلزم دوام مراقبة الطريق، وتصحيح المسار إلى الله، ثم الاعتبار بالنظر في عاقبة الذين سبقوا، وذلك دفعا إلى الغاية الواحدة.

ثم يحثنا القرآن الكريم على زيادة معدل الحركة على مستوى السعي إلى مستوى السرعة في فعل الخيرات استغلالا لكل لحظة من عمر المؤمن، قال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون-٦١]، فالنَّاس يفرحون ببلوغ آمالهم من الدنيا، وما أدركوا أنهم أفنوا في مقابلها آجالهم، يقول داود الطائي: "يا ابن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوفت بعملك، كأن منفعته لغيرك"، ففعل الخيرات لا ينبغي التسويف فيه بل يتطلب المسارعة، ومنها ينتج التسابق بين المؤمنين، وبهذا جاء الأمر الإلهي: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد-٢١]، فمن حافظ على استمرار طاقة الحركة في أقصى معدلاتها طلبا لمغفرة ربه ﷻ، وحافظ على طاقة الحركة في أهدإ وأبطإ معدلاتها طلبا للرزق فقد أحسن استخدام أجله وعمره، فالله تبارك وتعالى قدر لكل منا أجلا معلوما، ثم أمرنا بطاعته، وتكفل لنا بالرزق، فما كان من الشيطان لعنه الله إلا أن دعا النَّاس إلى الاشتغال بالرزق، والتسابق، والتصارع في طلبه سواء من

والبيهقي في شعب الإيمان ٣: ٣٥٠،٣٥١، وصححه الألباني في الصحيحة ٩٥، ١: ٦٧١ وفي الباب عن أنس وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس، والخلاصة أن الحديث صحيح لشواهده ومتابعاته [الزهد لوكيع ٣: ٦٤١].

١ حديث عبد الله بن مسعود انفرد به ابن ماجه في سننه ٢٥٣، ٤٠٩٦، ورواه أحمد عن الحسن البصري مرسلا في الزهد ص ٤٢

Upload by : altawhedmag.com

حلال، أو من حرام، فشغل النَّاس عن الطاعة حتى وصفهم سيدنا الحسن رضوان الله عليه بقوله: "مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذها من حله حوسب عليه، وإن أخذها من حرام عذب به، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه ولا يفرح بمصيبته في دنياه"، ولذلكم خاطبنا الحق تبارك وتعالى جميعا بقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات-٥٠]، ولما تبين أن الإنسان في سفر دائم، ويتنقل من مرحلة إلى أخرى، وأن بقاءه في الدنيا شيء عارض ولمدة محدودة للغاية، وعلمنا أن الاختبار في الدنيا واحد، وإن تعددت صوره، وهو المتاع، ومن ثم أظهر الحق سبحانه في كتابه الحكيم أن سعي النَّاس شتى، فمنهم من يتلقى النعم والمتاع، وينكر أسلوب التعامل معها، وربما أنكر من أنعم بها وتفضل، ومنهم من يتلقى النعم، ويستقيم مسلكه قاصدا اجتياز العقبة، فلعله يفك بذلك من النار الرقبة.

ولا نقصد أن يفهم القارئ الكريم أننا نريد بقولنا هذا دعوة النَّاس إلى ترك الدنيا بالكامل والتفرغ للعبادة، فنحن نريد أن نوضح حقيقة الزهد في الدنيا كما يريدها الإسلام لأتباعه، فهو يريدهم أعلم النَّاس بأمور الدنيا، وفي شتى مجالاتها، فلو تفوق غير المسلم في أي مجال من المجالات العلمية، أو الهندسية، أو الطبية، أو الزراعية، أو الصناعية لأثم المسلمون جميعا، فاتباعنا لرسول الله ﷺ جعلنا خير أمة أخرجت للناس، ودانت لهم الدنيا وأتت صاغرة تحت أقدام أسلافنا، لأنهم جعلوها في أيديهم ولم تشغل قلوبهم بمفاتنها، لذا وجب التنبيه على ترك الدنيا بإخلاء القلب منها ومن متاعها، والزهد فيها بالجوارح والنفس، ولا نجد أوضح من حديث النبي ﷺ الذي يشرح فيه لأمته حقيقة الزهد في الدنيا، ما يرويه أبو ذر الغفاري،قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق مما في يدي الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أُبْقِيت لك﴾[1]، وفي رواية أخرى زيادة " لأن الله تعالى يقول: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد-٢٣]"، فمتاع الدنيا لا يحرمه أحد، والذي يقول عنه رسول الله ﷺ:

١ حديث أبي ذر أخرجه الترمذي ٢٢٦٢، وقال حديث غريب وفيه عمرو بن واقد القرشي وهو منكر الحديث، ورواه ابن ماجه ٤٠٩٠ من نفس طريق عمرو بن واقد القرشي، وضعفه الألباني ٣١٩٤، ٩: ٢٥، ٣: ٢١ وقال: ضعيف جدا

Upload by : altawhedmag.com

﴿إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال﴾[١]، فالمال الذي هو فتنة الأمة لا يأمر النبي ﷺ بتبديده، ولا يعتقد أحد أن إضاعة المال هو الزهد في الدنيا، إنما الزهد في الدنيا أن لا تعتمد على المتاع، ولكن أن تعتمد على المنعم، فتكون ثقتك بما عند الله أكبر وأوثق في قلبك من المال الذي في يديك، فلا تفرح بما جاءك من النعم، فتعطل أسلوب نفع الآخرين بها ممن أوجب الشرع الحنيف لهم حقوق، ولا تأسى على ما فاتك، وكيف يحدث هذا ممن عرف أن الله قسم بيننا معيشتنا، وأن ما كان لك سيأتيك، ولو اجتمعت الجنّ والإنس على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بما قد كتبه الله لك، وقد علمنا رسول الله ﷺ الأدب مع الله ومع قسمته التي قسم بها معايش النَّاس حيث قال ﷺ: ﴿انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم﴾[٢].

وفي حديث آخر يقول ﷺ: ﴿إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلْق فلينظر إلى من هو أسفل منه﴾[٣]، ولبيان معنى الزهد في الدنيا نتعرض أولا لمعنى كلمة الزهد في اللغة العربية، فالزهد ضد الرغبة والحرص، وشيء زهيد أي حقير وقليل، وعلامة الإمساك وعلامة الزهد الترك والإخراج، فإن أخرجت من اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط، فالزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو أفضل منه، والزهد في الدنيا هو الانصراف عن الرغبة في متاعها، وترك فضول الحلال والمباحات فيها.

وحقيقة الزهد في الدنيا أن يتلقى العبد من الله قسمته من متاع الحياة الدنيا التي جعلها الله له ليبلغه الدار الآخرة، فيتلقاه من المنعم، ولا يتصرف فيها بهوى نفسه، أو باتباع خطوات الشيطان، بل يوجهها لله تبارك وتعالى، ويتصرف فيها بالأسلوب الذي وضعه الله تبارك وتعالى، وعلمنا إياه رسول الله ﷺ، وأن يفعل العبد ذلك رغبة في الله دون ما سواه، وقد يزهد المرء عن حظوظ الدنيا رغبة في نعيم الآخرة من القصور، والجنات، والحور، والأنهار، وذلك مقام طيب يرضى عنه الله

---

١ حديث كعب بن عياض أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب ٢٢٥٨، وأخرجه أحمد ١٦٨٢٦

٢ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم في كتاب الزهد ٥٢٦٤، والترمذي في سننه حديث ١٧٠٢، ٢٤٣٧، وقال حديث صحيح، وابن ماجه ٤١٣٢، وأحمد في المسند ٧١٣٧، ٩٨٥٦. وفي الزهد صفحة ٢٥

٣ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٦٠٠٩ ومسلم في كتاب الزهد ٥٢٦٣، وأحمد في المسند ٧٨٠٠

Upload by : altawhedmag.com

ورسوله ﷺ، فأولئك أصحاب اليمين، إلا أن هناك مقام أعلى من ذلك وأرقى حيث يزهد العبد في متاع الدنيا، ويرى الدنيا على حقيقتها، ويتزود منها ما يلزمه حال سفره وانتقاله، ولكن قلبه متعلق بالله ولا يسكن فيه إلا حب الله والرغبة في رضوانه الأكبر، فهو يخشى النار، ويسأل الله الجنة ويتأرجح بين الخوف والرجاء، إلا أن قلبه محب لله، فهو زاهد في الدنيا راغب فيما عند الله، ولولا أن الجنة محل رضوان الله، ودار كرامته، وبها بشر أحبابه ما تعلق بها وما سألها وطلبها من الله، ومن تحقق بهذه المعاني أتته الدنيا راغمة صاغرة فلا يتلقاها إلا بيديه، فليس لها في قلبه مكان ولا مكانة، فإذا جاءته وأصبح قادرا على التمتع بها آثر بها إخوانه، وتركها حتى لا يأنس بها، فيكون بغير الله مستأنِسا، فأخذ منها ما يكفيه ليبلغ حاجته، ثم ترك التمتع بألوان متاع الدنيا رغبة في نعيم الآخرة، فكأنه استبدل ألوان طعام الدنيا وأشربتها بلذيذ طعام الجنة وأشربتها، وترك التمتع بالنساء طمعا في الحور العين، واستبدل خمر الدنيا بحقارتها، وخستها، بخمر الآخرة، ولذتها، ومساكن الدنيا بضيقها ومشاكلها بالقصور في عليين، ثم استبدل أهل الدنيا بالرفيق الأعلى الذي هو أشرف جمع يضم الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

ولذلكم فالأسلوب الأمثل لتعامل المسلم مع الحياة الدنيا يدور حول أصلين هما:

١. ترك ما في الدنيا مما لا ينفعه في الآخرة، وهو الزهد كما أوضحنا.

٢. وترك ما قد تخاف عاقبته حراما كان، أو تمتعا زائدا من الحلال وهو الورع.

فمن كانت عينه ناظرة إلى الزهد والأخرى ناظرة إلى الورع كان قلبه ممتلئا تقوى من الله ﷻ.

ونتحدث بمشيئة الله تعالى في الباب السابع وما يليه عن رحلة السلوك إلى الله ﷻ محاولين بتوفيق الله ﷻ أن نصف المراحل التي يمر بها الإنسان بجميع عوالمه حتى يصل إلى الدرجات السامية والفوز الأكبر.

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب السادس

- على الإنسان أن يستثمر أيامه في الحصول على رضوان الله تعالى وعمل الصالحات.

- اعترض الكفار على الأنبياء أنهم يمشون في الأسواق، ويحتاجون إلى طعام وشراب كباقي البشر: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان-٧]، فكان الرد من الحق تبارك وتعالى أنها سنته سبحانه، أن يكون الرسول من جنس المبعوث إليهم، إذ لو خالفهم في طبيعتهم ما استطاعوا أن يتبعوه ويقتدوا به.
- الدنيا في ذاتها ليست هدفا يجعله الجاهل الغافل غايته، والتمتع بها همه وبغيته.
- من المنطقي أن النَّاس إذا دعوا إلى المسارعة في أمر من الأمور أن يبادر أقوام ويتقاعس آخرون.
- إن التنافس في معناه الحقيقي يكون في طلب رضوان الله تعالى، وعدم الانبهار بمتاع الدنيا.
- كل منا أمامه طريقان أحدهما إذا سعى فيه إلى ذكر الله وطاعته أوصله إلى الجنة والرضوان، والآخر إذا سعى فيه إلى شهوات نفسه وتحقيق لذّاتها أوصله إلى السخط والنيران.
- حقيقة الزهد في الدنيا أن يتلقى العبد من الله قسمته من متاع الحياة الدنيا التي جعلها الله له ليبلغه الدار الآخرة، فيتلقاه من المنعم، ولا يتصرف فيه بهوى نفسه، أو باتباع خطوات الشيطان، بل يوجهه لله تبارك وتعالى، ويتصرف فيه بالأسلوب الذي وضعه الله تبارك وتعالى في كتابه، وبينه النبي ﷺ.

Upload by : altawhedmag.com

الباب السابع

سلوك الخليفة بعوالمه الخمس

١. الروح من أمر ربي

٢. الجسد وسلوكه على سلم الهداية

٣. تهـذيب النفـس

٤. ملكات العقل في خدمة السلوك

٥. العقل أصل الدين

٦. معطلات إعمال العقل

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

من البشر من يهتم بجسده منذ صغره، فيتعهده بالرعاية والتدريب على الرياضة، وتقوية العضلات، بأن يبدأ بحمل أوزان صغيرة في صباه، ويزداد ثقل ما يحمله مع الأيام، حتى إذا ما صار شابا متينا رفع بذراعيه أوزانا لا تخطر على بال من لم يدخل هذا المجال،ويحقق أرقاما قياسية مذهلة بالنسبة لغيره.

ومنهم من يهتم بالعلوم ودراستها، ويتعهد عقله بالتفكير والتحصيل، ما يجعله يكرس حياته للعلم والمعرفة، فيبتكر من فنون العلم ما يخدم أخاه الإنسان، ويستغل ذلك في عمارة الدنيا، أو يوجهه إلى عمارة الآخرة.

ومن البشر من يترك نفسه على هواها ويسعى وراء شهوتها، فيكون عبدا لأوامرها، وأسيرا لرغباتها، وسجينا بحريتها، فينغمس في شهواته حتى يصبح أحط قدرا من الدواب والبهائم.

ومنهم من يتولى نفسه بالتربية، ويتعهدها بما يصلح أمرها بالتهذيب والمخالفة، وينهاها عن هواها، فتصفو نفسه، وتظهر على حقيقتها التي خلقها الله ﷻ عليها.

ومنهم من يلزم باطنه الطهر ويتعهد قلبه بإزالة أدران المعاصي والذنوب ويسارع بالرجوع إلى مولاه وخالقه، فترتفع عن قلبه حجب المعاصي، وأستار الغفلة، فيرق قلبه حتى يمتلئ نورا من ربه وهدى ومعرفة بخالقه، حتى يصير عبدا ربانيا، يقول للشيء كن فيكون، فقد صارت الصلة بين روحه وقلبه صلة طاهرة نقية، فترى الروح في الرؤيا الصادقة من علوم الملك والملكوت، ومن مشاهدات الملإ الأعلى، ومن صور الإبداع الإلهي، وتطلع على حقائق الأمر، التي تلقى في القلب، فينشرح قلب العبد، ويتسع لأنوار ربه.

وعلى هذا فعوالم البشر متعددة ومؤهلة للتعامل مع كل شيء، وتسخير كل ما في الأرض من شيء، وإذا سلكت طريق الطاعة، واتبعت الصراط المستقيم استطعت أن تتعرف على الله ﷻ بكافة الأسماء والصفات، فكان وضع الميزان بين هذه العناصر ضروري لرُقِي العبد إلى الله منفذا أوامره تعالى، آخذا ما أحله الله، وتاركا ما حرم الله، ساعيا بها إلى مرضاته، مبتعدا عن سخطه وعقابه، وهذا من أصعب الأمور حتى أن السموات والأرض والجبال أشفقن من حمل هذا العبء، ولم يخلق لحمل هذه الأمانة إلا البشر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

Upload by : altawhedmag.com

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب-٧٢]، إنه كان ظلوما جهولا لتركه المنهاج الذي هيأه الله له، وسار وراء هواه.

وسنصف - بإذن الله تعالى - رحلة كل عالم من هذه العوالم خلال سلوكها إلى الله ﷻ من كتاب الله وسنة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وسنخصص فصلا مستقلا لكل عالم على حِدة.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

الروح من أمر ربي

وحين نتحدث عن بعض أمور تتعلق بالروح، لا نجد غنى عن أن ننقل موجزا عما ذكره الإمام عبد الجليل القصري في كتابه شعب الإيمان[١]، حيث يقول: "ربما يحتج كثير من الناس بقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء-٨٥]، على أن أمر الروح لا يُعلم، والصواب أن الآية حجة عليهم، ذلك أن الأسئلة أربعة أنواع هي: هل؟ ولِمَ؟ وكيف؟ وما؟

١. أما هل؟: فيُسأل بها عن حقيقة الشيء، وهل هو موجود أم معدوم؟ والإجابة تكون بنعم، أو لا.

٢. أما لِمَ؟ فيُسأل بها عن عِلة الشيء، أي لِمَ كان هكذا، ولَمْ يكن على كذا وكذا؟

٣. أما كيف؟ فيُسأل بها عن أحوال الشيء، وخواصه، ولواحقه اللازمة له؟

٤. أما ما؟ فيُسأل بها عن جوهر الشيء، وطبيعته، ومما هو".

ولنرجع إلى السنة المطهرة للتعرف على طبيعة سؤال اليهود، فنجد عبد الله بن مسعود[٢] ﷺ يقول: ﴿كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح: وقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئا على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال:

---

١ شعب الإيمان لمحمد عبد الجليل القصري ١:٦٥ - ٦٦

٢ حديث عبد الله بن مسعود متفق عليه أخرجه البخاري ومسلم وأحمد: وهذا السياق يقتضي أن آية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية. ويجاب عن هذا بأنها نزلت بالمدينة مرة ثانية كما نزلت بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس، قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾، وقال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار، قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود، وقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾.

Upload by : altawhedmag.com

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء-٨٥]، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه".

ويقول القرطبي: "وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال: المراد أرواح بني آدم؛ لأن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الروح، وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟ وإنما الروح من الله، فأتاه جبريل، فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[١]، وقال قتادة: الروح ههنا جبريل، وقال ابن عباس الروح: ملك"[٢].

ونعود للإمام القصري لاستكمال حديثه الذي يقول فيه: "وسؤال اليهود عن الروح لم يكن من الأسئلة الثلاثة الأولى: سواء هل الروح موجودة أم لا؟ لأنهم مقرين بوجوده، أو سؤال عن علة كون الروح على ما هي عليه دون أن يكون على غيرها، لأجابهم بأنه كان على حالة كذا أو كذا، لأجل كذا أو كذا، ولو سألوا عن كيفية الروح؟ أو صفته لأجابهم كما أجاب حين سألوه عن ربه، ونزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص-١]، وإنما أجاب القرآن على سؤالهم: ما الروح؟ فأجابهم القرآن الكريم أنها أمر من أمر الله، وأمر الله خلق، وإيجاد بكن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس-٨٢]"[٣]، وإذا كان سؤالهم عن كيفية عذاب الروح في الجسد؟ -مع زعمهم أن الروح من الله-، كانت الإجابة واضحة بأن الروح ليست من ذات الله، ولا نسب بينها وبين الله، وإنما هي أمر من أمره وخلق من خلقه، وفَصْلُ الخطاب في هذا الشأن: "أن الأرواح كلها مخلوقة، أو من أمر الله، بان[٤] الله منها، وبانت منه، وهي غير متناسبة، ولا متناسخة، ولا تخرج من جسم، وتبعث في غيره، تذوق الموت، وتتنعم بتنعم البدن، وتعذب لعذابه، هذا هو الشرع الذي جاءت به الكتب، ونطقت به الرسل، وما سواه باطل"[٥].

---

١ رواه القرطبي، وقال: قال: العوفي عن ابن عباس.

٢ الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي ننقله مختصرا.

٣ شعب الإيمان لمحمد عبد الجليل القصري ١:٦٥ - ٦٦

٤ بان، أو باين من البون وهو المغايرة والمخالفة، والمراد أن صفات الخالق لا تماثل، ولا تلتبس بصفات المخلوق.

٥ شعب الإيمان لمحمد عبد الجليل القصري ١:٧٠

Upload by : altawhedmag.com

ويكفينا قول أبو النصر السراج الطوسي الذي يعد أعظم مؤرخ ومؤلف صوفي في كتابه "اللمع"، حيث يقول: "وقد غلط أقوام وتاهوا في الحديث عن الروح"، ويوضح ذلك بقوله: "فقوم قالوا: الروح نور من نور الله، فتوهموا أنه نور ذاته فهلكوا.

وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة، وروح القدس من ذات الله تعالى.

وقوم قالوا: أرواح العامة مخلوقة، وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة.

وقوم قالوا: الأرواح قديمة، إنها لا تموت ولا تعذب ولا تبلى.

وقوم قالوا: الأرواح تتناسخ من جسم إلى جسم.

وقوم قالوا: الروح خلق من النور.

وقوم قالوا: الروح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت.

وقال آخرون: الروح روحان: روح لاهوتيه، وروح ناسوتيه".

ثم يصف هذه الأقوال جميعا بقوله: "وهؤلاء جميعا قد غلطوا فيما ذهبوا إليه، وضلوا ضلالا مبينا، وجهلوا ما يلزمهم في ذلك من الخطإ، وذلك من تعمقهم وتفكرهم بآرائهم فيما منع الله تبارك وتعالى قلوب العباد من التفكر فيه، والذي عليه أهل الحق، والإصابة عندي - والله أعلم - أن الأرواح مخلوقة، وهي أمر من أمر الله، ليس بينها وبينه تعالى سبب ولا نِسبة، غير أنها من ملكه وطوعه وقبضته، غير متناسخة، ولا تخرج من جسم فتدخل غيره، وتذوق الموت كما يذوق البدن، وتنعم بتنعم البدن، وتعذب بعذابه، وتحشر في الجسد الذي تخرج منه"[1].

١ اللمع لأبي النصر السراج الطوسي ٥٥٤ - ٥٥٥، الذي أعده الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله، حيث يصف السراج الطوسي بأنه: أعظم مؤلف صوفي في تاريخ التصوف - ارجع إلى مقدمته في تحقيق الكتاب.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

الجسد وسلوكه على سلم الهداية

كما تحدثنا في الباب السابق، وقلنا: إن الجسد هو الشق الترابي المخلوق من عناصر الأرض، والإنسان يستطيع من خلال فهمها أن يفهم طبيعة جسده، ومن ثم يصلح للخلافة عليها، وأن الجسد هو القالب الذي أفاض الله عليه بنعمة الحواس التي يدرك بها كيفية التعامل مع الماديات والمعنويات، وذلك بالتعاون مع باقي العوالم، وقلنا إن الإسلام حدد منهاجا واضح المعالم لحياة الجسد على الأرض، ولبيان ذلك تعالوا ننظر بدقة في المرحلة الثانية من رحلة الإنسان عبر الزمان حيث يبدأ اجتماع ماء الرجل والمرأة على هيئة لا يمكن رؤيتها إلا بمجهر مكبر، ثم تمر الأسابيع ويتشكل هذا الجنين، وخلال الحياة الدنيا يبدأ مراحل الطفولة، والشباب، فالرجولة، ثم الشيخوخة، والكهولة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر-٦٧]، ويقول عز من قائل: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل-٧٠].

فالإنسان مخلوق للخلافة في الأرض، وعبادة الله ﷻ، ولعمارة الدنيا، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود-٦١]، ومطلوب من الإنسان أن لا ينشغل بعمارة الدنيا عن عبادة ربه، ولا التفرغ لعبادة ربه تاركا الدنيا، فتلك دعاوى لا يعرفها أصحاب رسول الله ﷺ، ومن سار على نهج الإسلام عليه أن يقصد وجه الله ﷻ أثناء عمارته للدنيا، فيكتب له سعيه عبادةً لله ﷻ، وفي الأثر أن من بات كالًّا من عمل يده بات والملائكة تستغفر له، أو ما معناه.

كما يحثنا الحديث الشريف على العمل في سبل الكسب المختلفة، وقد أوضح لنا أن أفضل الكسب في التجارة وفي عمل الرجل بيده، سواء في الصناعة، والزراعة، والطب، والإدارة، وما إلى ذلك، سئل النبي ﷺ عن أفضل الكسب، فقال ﷺ: ﴿بيع مبرور، وعمل الرجل بيده﴾[1].

١ حديث أبي بردة هانئ بن نيار أخرجه أحمد ١٥٢٧٦ والطبراني والسيوطي في الجامع الصغير وصححه الألباني رقم ١١٦٢.

Upload by : altawhedmag.com

وأشرف الخلق كانوا يعملون؛ فنوح عليه السلام كان نجارا، وورد أن زكريا عليه السلام أيضا كان نجارا، وداود عليه السلام كان حدادا، ألان الله عز وجل له الحديد، وسيدنا محمد ﷺ كان تاجرا.

وقد جعل الله تبارك وتعالى سعادة الدنيا والآخرة في أمرين تلازما في القرآن الكريم عشرات المرات، هما الإيمان بالله والعمل الصالح، وقد أفسح الدين الإسلامي مجال العمل الصالح، لا ليكون العبادة الخالصة لله فقط، وإنما أضاف إليها الأعمال الصالحة النافعة في الدنيا، فشُعب الإيمان كثيرة ومعلوم أن أعلاها التوحيد الخالص، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

أولا: حياة الجسد بالطعام

جعل الله الغذاء، وما تخرجه الأرض، وما ينزل من السماء من ماء سببا في حياة الجسد، وقد أنبت الله تبارك وتعالى في الأرض من كل زوج بهيج، ولم يتركنا ربنا نكتشف ما يضرنا وما ينفعنا، وإنما بعث الرسل، فحددوا للناس ما ينفعهم من الغذاء: كَمًّا وكَيْفًا؛ فالطعام كله حلال طيب وطاهر، إلا ما حرم الله علينا، ولا بد من صحة وسيلة الحصول على الطعام الطيب الطاهر؛ ليكون هذا الغذاء حلالا، فإن اعتلت الوسيلة كان الطيب في ذاته حراما على مَنْ سلك سبيل المعصية للحصول عليه، فمن أكل طعاما حلالا أنتج في جسمه خلايا صالحة وفي قلبه نية صالحة، تحمل جسده في النهاية على عمل الصالحات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون-٥١].

وخاطب عبادة المؤمنين كما خاطب أنبيائه، قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لله﴾ [البقرة-١٧٢]، وقد كان الرجل من سلفنا الصالح لا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل لا يشبع، فالطعام للمؤمن ليس مظهرا من مظاهر الترف والسرف، وإنما هو زاده الذي يعينه على القيام لله بما أمر، أما الكافر فهو مشغول بلذات الدنيا، وهمه مُركز على أن ينال منها بالقسط الوافر، فقد روى البخاري، "أن رجلا كان يأكل أكلا كثيرا فأسلم، فكان يأكل أكلا قليلا، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فقال ﷺ: ﴿إن المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء﴾[1]، وكرره رسول الله ﷺ يوم شرب ضيفه الكافر حلاب سبع شياه.

---

١ حديث أبي هريرة متفق عليه خرجه البخاري ومسلم ومالك وابن ماجه.

Upload by : altawhedmag.com

وقد تغيرت عادات النَّاس، وتأصلت ثلاث وجبات في اليوم، وربما زاد البعض على ذلك، ولم يحدد الرسول متى نحصل على وجبة الطعام فقط، وإنما حدد كمية الطعام التي لا ينبغي للمسلم أن يتناول أكثر منها، وذلك قوله ﷺ: ﴿ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات [وفي رواية: أكيلات] يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه [وفي رواية: فإن كان لا محالة]، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه﴾[1].

هذا الحديث يجعل طعام المؤمن وسيلة لا غاية، كما يحدد حقيقة طبية غاية في الأهمية؛ فالجسم به ثلاث أنظمة تعمل على حياته، دورة الهضم، ودورة الدم، ودورة التنفس، فمن جعل ثلث المعدة طعاما، فقد أعطى دورة الهضم أنسب قدر من الطعام، فلا يحدث فيها اضطرابات، ومن جعل ثلثا للماء فقد أعطى الدورة الدموية قدرا من السوائل مناسبا لحركتها، فلا يزيد هذا النظام إجهادا فوق المطلوب، ومن ترك ثلث المعدة هواء، فقد ترك الحجاب الحاجز مسترخيا لأسفل، وبالتالي تكون الرئتان في أحسن حالاتها، حيث تأخذ أكبر كمية من الهواء في التنفس، أما من ملأ معدته، فإنه بذلك يجعلها تضغط على الحجاب الحاجز، فيضيق الحجم الذي تتمدد فيه الرئتان، وبالتالي ينقص حجم الهواء الداخل للإنسان مع كل نفس، وقول: "المعدة بيت الداء" مشهور بين النَّاس جميعا.

وإذا أردنا أن نرى ثمرة من أكل طعاما طيبا بأسلوب حلال صحيح، وبقدر لا إفراط فيه ولا تفريط، لوجدنا أن أبواب السماء تفتح له، كما ورد من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ عندما قال: يا رسول الله ادعُ الله لي أن أكون مستجاب الدعوة، قال ﷺ: ﴿يا سعد أطب طعمتك تستجب دعوتك﴾[2]، ﴿وأيما عبد نبت لحمه من السحت فالنار أولى به﴾[1].

---

١ حديث المقدام بن معدي كرب أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٠٢، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٠، ووكيع في الزهد حديث ٧٥، وابن المبارك في الزهد ٢١٣، وأحمد في الورع ٦٧- ٦٨، والطبراني في مسند الشاميين ٢٢٣، ٢٧٥، ٣٣٢، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان ٢: ٤٤، والحاكم في المستدرك ٤:٣٣١، ٣٣٢، والبيهقي في الشعب ٢:٢٦١، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣: ١٣٦ حديث ٢، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٢٦٥، وفي صحيح الجامع الصغير ٥٦٧٤، وفي الإرواء.

٢ حديث ابن عباس رواه الطبراني في الأوسط، وقال: فيه من لا أعرفه ٦٦٤٠، وأورده الألباني في سلسلة الضعيفة، وقال: ضعيف جدا.

Upload by : altawhedmag.com

كما أن للإسراف في الطعام آثار مادية سيئة على الإنسان، إلا أن الخطر الأكبر في تأثير ذلك على طاعة الله تبارك وتعالى، فقد روي أن لقمان عليه السلام، قال لابنه: "إذا ملئت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة"، ويقول أبو سليمان الداراني: "من شبع دخل عليه ست آفات: ثقل العبادة، وفقد حلاوتها، وزيادة الشهوات، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق؛ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع".

ثانيا: في النوم حياة الجسد

يقول الحق تبارك وتعالى في آيات كثيرة أن النوم في حياة الإنسان آية لازمة لاستمرار حياته، من هذه الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس-٦٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان-٤٧]، فالنوم راحة للبدن من عناء النهار، وفي نفس الوقت عودة للروح إلى الملإ الأعلى، ولهذا كان النوم هو الموتة الصغرى كما يفهم ذلك من القرآن والسنة، وأيضا فإن العقل يقوم بإعادة ترتيب المعلومات في الذاكرة حسب أهمية الاحتياج إليها، ويقوم أيضا بإعداد الذهن لتلقي معلومات اليوم الجديد، فالنوم حتمي لا بد منه صيانة للبدن، كما أن الطعام حتمي لحياته، وكما رأينا أن السلوك القويم يتطلب وضع الطعام في إطاره الصحيح، وجعل بذله للغير من أعظم القربات، كذلك النوم فالمؤمن وإن كان ينام ملء جفنيه طمأنينة بالله إلا أنه مطالب أن يستقطع من نومه على قدر استطاعته وقتا يتقرب فيه لمولاه تأسيا برسول الله ﷺ الذي كلفه ربه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء-٧٩].

وجاء وصف المؤمنين في قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات١٧: ١٩]، فالصالحون أعطوا من أموالهم لغيرهم، واستقطعوا من ليلهم لعبادة ربهم حتى يصل بهم الأمر إلى اقتسام ليلهم بينهم وبين ربهم، فناموا شطرا من ليلهم لتسكن فيه عوالمهم، وأقاموا شطره الآخر بين ركوع،

---

١ هذه الزيادة صحيحة حديث ابن عباس وشواهدها كثيرة عن جابر بن عبد الله وكعب بن عجرة، وأبي بكر الصديق، وخرجها المنذري في الترغيب والترهيب ٣: ١٥

Upload by : altawhedmag.com

وسجود، وتلاوة للقرآن، وذكر لله رب العالمين، يقول الله ﷻ واصفا حالهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة-١٦].

ثالثا: الطهارة تحفظ الجسد

الاغتسال والطهارة والوضوء أسلحة من أقوى خطوط الدفاع التي تحصن المسلم من الشياطين، فالثياب الطاهرة والمكان الخالي من القاذورات مهابط للملائكة، ومعلوم من حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: ﴿الطهور شطر الإيمان﴾[1] بيان مكانة الطهارة في السلوك، فما كان لله ولي يعيش في ثوب قذر، ويجلس في المزابل، ويسير مع الكلاب، وإنما كان الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى رأسهم سيد الأولين والآخرين، وإمام المرسلين صلوات الله وسلامه عليه قمة في الطهارة، أبيض النَّاس ثيابا، وأطيبهم رائحة، وأجملهم هيئة، وأعظمهم هيبة، السواك في فيه، والطيب من أحب الأشياء إليه، وهو القائل: ﴿إن الله جميل يحب الجمال﴾، فما منع بعضهم الفقر أن يكون في أنسب صورة لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة-٢٧٣]، فمن التعفف أن لا يظهر عليهم الفقر والحاجة.

١ حديث أبي مالك الأشعري أخرجه مسلم رقم ٣٢٨، وأحمد في مسنده ٢١٨٢٨، ٢١٨٣٤، والدارمي ٦٥١، والترمذي ٣٤٣٩، والنسائي ٢٣٩٤ بلفظ الوضوء شطر الإيمان.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

تهذيب النفس

اختلف علماء المسلمين حول النفس وطبيعتها والمهام التي تقوم بها، والتي تميزها عن القلب، والعقل، والروح، والجسد، وقبل أن نناقش هذا الاختلاف نتعرف أولا على المعاني الكثيرة المتباينة لكلمة النفس في اللغة العربية، فالعرب تُعَرِّف النفس أنها الجسد تارة، وبأنها الروح تارة أخرى، وتارة ثالثة أن النفس هي نفس العقل الذي يكون به التمييز، ومنهم من سوى بين النفس والروح، وقال: هما شيء واحد، وقال آخرون: إن هناك اختلاف بين النفس والروح، فالنفس هي التي بها العقل، فإذا نام النائم قبض الله نفسه، ولم يقبض روحه؛ لأن الروح بها تكون الحياة، ولا تقبض الروح إلا عند الموت.

ويقول الزَّجَّاج: "إن لكل إنسان نفسان إحداهما نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها، يتوفاها الله كما في قوله تعالى: ﴿الله يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْـمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر-٤٢]، والأخرى نفس الحياة، وإذا زالت معهما النفس والنائم يتنفس"، ومن ألطف ما قيل: "إن النفس معناها جملة الشيء وحقيقته"، ويقول ابن الأعرابي: "إن النفس هي العظمة، والكبر، والعز، والهمة، والأنفة، أي عين الشيء، وكنهه، وجوهره".

مما سبق يتضح أن النفس لفظ مشترك بين عدة معاني، ولهذا يختلف استخدام اللفظ حسب الموضوع الذي وردت فيه، وإذا أردنا أن نتعرف على الاستخدام القرآني للفظة النفس نجدها تحتمل جميع المعاني اللغوية، فمرة تأتي بمعنى الروح، وأخرى تأتي بمعنى العقل، وثالثة بمعنى النفس محل الشهوات والرغبات. ولهذا سنذكر الاستخدام القرآني مجملا، ثم نبين المعنى المخصوص للنفس في رحلة السلوك.

Upload by : altawhedmag.com

أولا: النفس محل التكليف والاختيار

قال تعالى: ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة-٢٣٣]، ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة-٢٨٦]، ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف-٤٢]، ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق-٧]، فالنفس هي محل التكليف الذي لا يكون إلا على قدر اتساع كل نفس، وعلى قدر ما آتاها الله من هذا الأتساع ومن العطاء، ولما كانت النفس هي المكلفة لذا فهي المسئولة عن تصرفات الإنسان من أقوال وأفعال، وعلى قدر ما كسبت واكتسبت يكون الثواب والعقاب، كما تشير إلى ذلك الآيات المباركات: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر-١٧]، ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام-١٦٤]، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران-٢٥]، ﴿لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم-٥١]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر- ٣٨].

إن الإنسان إذا عرف نفسه، وأدرك قدرها، فقد حاز الخير كله، وإذا غفل حقيقتها، فقد ظلمها، وأوردها موارد التهلكة، فدائرة الاختيار ناتجة عن استعداد النفس لتلقي التكليف، فمن تلقى شريعة الله ومنهاجه -الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام- بهمة وقبول، وجاهد نفسه، وغلب هواها، فقد سلك الطريق المستقيم، وسار على النهج القويم، ومن أنكر الأسلوب الذي وضعه الله، وكفر بشرعه، فقد غلبته نفسه، وسيطر عليه هواه، والآيات القرآنية المباركة نستلهم منها هذه المعاني لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْـمَأْوَى ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْـمَأْوَى﴾ [النازعات٣٧: ٤١]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس٧-٨]، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس-١٠٨]، فمن اهتدى إلى صفاته العبودية واضعا أمام عينيه صفات الله الربوبية فقد أقام نفسه في محراب العبودية، وسلك بها لمعرفة كمالات الربوبية، فيوجه الله ﷻ نعمه إليه، فإذا علم الإنسان أنه متصف بالفقر وشدة الحاجة، علم أن الله تبارك وتعالى غني عن العالمين، ومن أدرك أنه متصف بالضعف وقلة الحيلة علم أن الله هو القوي وجميع خلقه مفتقر إليه، وهو سبحانه ممد لهم في كل شيء، ومن كانت صفته الذل أيقن أن العزة لله وحده، ولرسوله، وللمؤمنين، ومن كانت صفته الخوف علم أن الأمن عند

Upload by : altawhedmag.com

الله، والطمأنينة والسكينة في تمام العبودية لله، وبدوام ذكره والتعلق بجنابه، ومن كانت صفته البخل شاهد من آيات كرم الله على من كفر به، وجحد نعمته ما تجعله يستلهم أبواب كرمه وعطفه على أحبابه بما تقر به عيونهم، ومن أدرك أن الفناء سيلحقه، أيقن أن الباقي هو الله وحده.

وقد جاء في الأثر: "من عرف نفسه فقد عرف ربه"، فمن اهتدى فإنما يهتدي لصفات نفسه، ومن ضل في طريقه إلى الله فإنما يضل عن نفسه وعلى نفسه، فيهوي بها في الجحيم، فالإنسان ابتلي بالدنيا ليعبر خلالها حتى يصل إلى الآخرة، وقد ملئت الدنيا بالمتاع الذي تعددت صوره، فكانت الدنيا قِبلة النفس حيث توجهت حواس الإنسان إلى صور المتاع المختلفة، فالعين تشاهد وتراقب صور الجمال المرئي، والأذن تستقبل صور الجمال السمعي، وكذلك الذوق، واللمس، وحاسة الشم، كل هذه الحواس تتعامل مع متاع الحياة الدنيا، وتصب كل هذه المشاهدات في النفس، فتنفعل النفس بها وتتأثر، فينتج ذلك عزما تبعا لهوى النفس ورغباتها، فتلقي النفس بما وصلت إليه كخاطر في القلب، والقلب إما قلب سليم في حضور مع الله وعلى ذكر وطهارة، أو قلب مغلف بآثار الذنوب وظلمات المعاصي، وتتجمع في القلب ما صب فيه من خواطر النفس على العقل، فإما أن يجد القلب عند العقل ما يعقل به النفس ويردها عن هواها، أو يجد تشجيعا وتأييدا لخاطر النفس، وتذليلا للصعاب التي تعترض طريق المعصية، ومن هنا ينتقل العزم إلى مرحلة إرادة وتنفيذ الفعل، فيتحرك الدم إلى العضلات، وتأتي الأوامر والتعليمات من العقل مطابقة لما استقر عليه القلب، فينتج من ذلك كله الفعل، ولا يعرف السالك إلى الله أن الدنيا دائمة التقلب؛ فهي تارة تضحك لنا، فإذا وجدت من أطاعها، وسار في ركابها، انقلب ضحكها بكاء، وأدبرت بعد إقبال، ولهذا يحذرنا الشاعر من تقلباتها، فيقول:

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره ... فسوف لعمري عن قريب

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وكثير من النَّاس يقبض يديه عند إقبال الدنيا عليه، وقد غاب عنه أن النعمة لا تدوم، فعليه أن يقرأ معنا ما يقوله الشاعر:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على النَّاس طرا إنها تتقلب

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هي تذهب

ونجد القرآن الكريم يقرر دائما أن الطاعة والمعصية راجعة على النفس وصادرة عن النفس.

Upload by : altawhedmag.com

١. اللسان والفرج أصل البلاء:

قبل أن نحاول الغوص في أغوار النفس البشرية ينبغي أن نلفت الأنظار إلى خطورة اللسان والفرج، والأحاديث النبوية الشريفة تحدد ذلك صراحة وبوضوح تام، واللسان من أخطر أعضاء الإنسان، وذنوبه ومعاصيه تصل في بعض الأحيان إلى مصاف الكبائر؛ فاللسان يزني وزناه الكلام في المحارم، فتأتي الغيبة، والنميمة، وقول الزور، والبهتان، والكذب، والأشعار الماجنة، والقصص الفاضح، وأفلام العري، والفيديو كليب، وكم أودى لسان بصاحبه، والعرب تعرف أن الجرح الذي يسببه اللسان قد يكون أعمق من جرح السيف، وقيل شعرا:

وجرح السيف تأسوه فيبرأ ... وجرح الدهر ما جرح اللسان

جراحات الطعان لها التئام ... ولا يلتئم ما جـــرح اللسان

ومن آفات اللسان تملق الحاكم، أو القائد بما ليس فيه، بل وتزيين ما يقول، وإن كان فاسدا، ومن الأقوال المنسوبة لعلي بن أبي طالب ﷺ: "الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد"، وفي الحديث الشريف أن رجلا مدح رجلا عند النبي ﷺ، فقال له ﷺ: ﴿ويحك قطعت عنق صاحبك﴾ مرارا يقول ذلك.

وإن تَقْوَى اللسان كفه عن أذى النفس وانشغاله بالذكر، وينقل لنا أبو ذر وصف رسول الله ﷺ للمؤمن التقي المخلص في الحديث الذي يقول فيه ﷺ: ﴿قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليما، ولسانه صادقا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فقمع، والعين بِمُقِرَّة لما يُوعَى القلب، وقد أفلح من جعل قلبه واعيا﴾[1]. ويقرر حديث عبد الله بن عمرو مرتبة التقوى، وأهمية طهارة القلب، وصدق اللسان، حيث يقول: قيل لرسول الله ﷺ: ﴿أي النَّاس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد﴾[2].

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ... فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدم

---

١ أخرجه أحمد في مسنده حديث رقم ٢٠٣٤٨، والبيهقي.

٢ حديث عبد الله بن عمرو أخرجه ابن ماجه في سننه حديث رقم ٤٢٠٦، ويقول زهير بن أبي سلمى.

Upload by : altawhedmag.com

وإن النفس تخفي شهواتها ولا يطلع على خباياها إلا الله تعالى، إلا أن معاصي اللسان والفرج شيء ظاهر، وإن أخفاه صاحبه، ويحذرنا رسول الله ﷺ من النساء، وفتنهن قائلا: ﴿أخوف ما أخاف على أمتي من فتنة النساء﴾، فالمرأة بما حباها الله تعالى من جمال لها تأثيرها وسحرها على أهواء الرجال، وكلما كانت المرأة جميلة كلما زاد خطرها، فالنظرة إليها سهم من سهام إبليس، وما هام الشعراء ودونوا الدواوين إلا في العشق، والصبا، واللوعة، والهجر، والفراق، والوداع، والوصل، والشهد، والرضاب، وكثر وصفهم للعيون والجفون، والشعر والجبين، والخصر والقد النحيل، لذلك كان من لطف الله بالعباد أن يقيهم هذه الفتنة وخطرها.

Upload by : altawhedmag.com

٢. آيات تحدد صور معاصي النفس

النفس تخفي شهواتها ولا يطلع على خباياها إلا الله ﷻ، فهو وحده الذي يعلم السر وما غاب في السرائر، واستتر في أغوار النفس، ولكنه عند الله كالعلانية، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة-٢٨٤].

- إن النفس هي محل الكبر والعتو، قال تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان-٢١]، والحسنة عطاء من الله، النفس مصدر السيئات، وهي التي تكتسبها: قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء-٧٩]، وبالتالي يعود الوزر عليها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء-١١١]، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح-١٠].
- والنفس محل الهوى والرغبات والشهوات، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم-٢٣].
- والنفس هي التي تسول لصاحبها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبأ-٥٠]، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه-٩٦]
- وعنها المرادوة، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف-٢٣]
- ومن الآثام ظلم المرء لنفسه، والشرك أكبر الظلم، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [الكهف-٣٥].
- وتعدي حدود الله من أكبر صور ظلم المرء لنفسه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق-١].
- وكذلك نجد النفس شحيحة بخيلة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد-٣٨]، وقد جعل الله تبارك وتعالى النجاة في توقي الشح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر-٩].

Upload by : altawhedmag.com

٣. آيات تحدد أثر الطاعات على النفس.

- إن شكر الإنسان لنعم الله ﷻ يعود أثره على النفس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل-٤٠]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان-١٢].
- وثواب الجهاد وأثره لا يعود على الأمة الإسلامية ككل، ولا على عزة الأوطان فقط، وإنما يعود أيضا على النفس، فللنصر ورفعة الإسلام حلاوة، ولهزيمة الباطل وذل أتباعه فرحة، كما أن للمجاهدين في الآخرة المكانة العليا والمنزلة السامية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت-٦].
- وكل أعمال الخير التي يتزكى بها المرء تعود على نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى الله الْمَصِيرُ﴾ [فاطر- ١٨].
- وإيثار الأخ المسلم على النفس من أفضل الأعمال، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر-٩].

وكأن المسلم قد اشترى جنة الله تعالى ببيعه نفسه وماله لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة-١١١]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله﴾ [البقرة-٢٠٧]، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب-٦]، فالشكر، والجهاد في سبيله، وتزكية النفس عن أدرانها، والإيثار، تجعل الإنسان يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، ولذلك كان ثوابهم الجنة.

٤. آيات تحدد سنة الله مع النفس البشرية.

لم يترك الله تبارك وتعالى الإنسان منفردا ضعيفا مع نفسه تأمره بالسوء فيستجيب لها، بل عززه الله تبارك وتعالى، وأنار له الطريق، وأرسل له الأنبياء والمرسلين، يلقون بالضوء على جوانب الحياة حتى يأخذ الإنسان بأسباب نجاته، ولا يضل في شعب الضلال، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام-١٠٤]، كما وضع الله

Upload by : altawhedmag.com

تبارك وتعالى الأسلوب الذي ارتضاه لعودة المذنبين إلى عفوه وكرمه بعد إعراضهم عنه، وجعل الاستغفار وطلب المغفرة من آكد الطاعات المقربة إلى الله ﷻ، والتي تفتح أبواب المغفرة والرحمة على عباده، فيقول عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء-١١٠]، كما لم يُقنط من أسرف على نفسه، ولم يرده عن بابه، ولم يطرده من جنابه، بل جعل له سبيلا إلى مغفرته ورضوانه، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر-٥٣].

ثانيا: النفس محل تذوق الموت

قلنا من قبل إن النفس كائن لطيف ينشأ عن نفخ الروح في الجسد، ويحيا داخل الخلايا، وقد يكون له قيادة مركزية سواء في المخ أو غيره مما لايعلمه إلا الله، وأن حجب ضياء الروح عن الجسم، معناه تذوق كل خلية من خلايا الجسم للموت، والموت هو نهاية مرحلة الحياة الدنيا وبداية حياة القبر، فالروح لا تفنى إذا غادرت الجسد، ولكنها ترقى في السموات إن كان عمل العبد مقبولا عند الله، وتترك جسدا ميتا وعقلا توقف عن التعامل مع الحياة الدنيا، وقلبا توقف عن النبض وعن تلقي تجليات الله تبارك وتعالى، حينئذ تُوفَى النفس ما عملت، فمن الذي يشعر بالموت وبسكراته وعظيم جذباته؟ إنها النفس لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْـمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت-٥٧]، ويقول سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْـمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء-٣٥]، ويقول جل شأنه:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْـمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران-١٨٥]، كما أن الموت لا يأتي من النفس ذاتها، وإنما من الله تبارك وتعالى إذا جاء أجلها، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران-١٤٥]، وبهذا عبرت الآيات الخاصة بالوفاة وقبض الروح، بوفاة النفس، أو موتها.

وكان الموت يعرف من الناحية التشريحية إلى عهد قريب أنه توقف القلب عن الخفقان، إلا أن هذا المفهوم قد تغير اليوم وأصبح الموت هو توقف جميع مراكز المخ عن إصدار الشحنات الكهربائية التي تسيطر على الجهاز العصبي، وأصبح ظهور خط مستقيم على جهاز رسم القلب الكهربي هو المؤشر الفيصل للحكم على وفاة الشخص.

Upload by : altawhedmag.com

وإذا أردنا أن ننظر إلى الموت وفهمه من الناحية الشرعية وفي ضوء المعطيات الأخيرة للعلم الحديث، فيمكننا أن نقول أن هناك ثلاثة أحوال هي:

١. الموت الطبيعي: وهو حجب ضياء الروح عن الجسم بأمر الله تعالى، مع توقف مراكز المخ عن إصدار النبضات الكهربية خلال الجهاز العصبي، وتوقف القلب عن الخفقان والجهاز التنفسي عن العمل، كل هذا يتم على التوازي، فيموت المتوفى وهو سليم معافى لا يشتكي من مرض أو خلافه.

٢. موت الدماغ: حيث يتوقف جميع مراكز المخ عن إصدار الشحنات الكهربية التي تسيطر على الجهاز العصبي، وبالتالي يتوقف الجهاز العصبي المركزي C.N.S.والجهاز الباراسمبثاوي، وتتعطل جميع أجهزة الأحشاء، والجهاز الإرادي فتتعطل جميع الأطراف P.N.S وقد يحدث في بعض الأحيان أن يظل القلب يخفق رغم توقف المخ، ومع هذا يعد الشخص ميتا من الناحية الطبية.

٣. توقف القلب Heart Failure ويمكن عودة القلب إلى الخفقان باستخدام الصدمات الكهربية، فإذا استجاب القلب خلال خمس دقائق كحد أقصى يعود المريض إلى الحياة، وإذا لم يستجب فإن المخ يفقد الغذاء الذي يقدمه له الدم، وبالتالي يتوقف هو الآخر عن إصدار الشحنات، فتتوقف أجهزة الجسم.

والذي يحدث في الحالتين الثانية والثالثة أن الإنسان يحيا لحظات طالما أن الله تبارك وتعالى يأمر الروح أن تضيء الجسد، وإذا أراد الله وفاة المريض فإن الروح تحجب ضياءها عن الجسد، فتتحول هذه الحالات إلى الحالة الأولى.

وفي جميع الأحوال السابقة فإن النفس التي تحيا داخل كل خلية هي التي تذوق الموت، لأنها تنزع من الخلية نزعا، فهي تتبع الروح حال حجبها وقبضها، ومن هنا نفهم وصف النبي ﷺ لسكرات الموت وجذباته وآلامه، نسأل الله أن يخفف عنا وعنكم سكرات الموت وأن يجعل خير أيامنا يوم لقائه.

Upload by : altawhedmag.com

ثالثا: النفس مشغولة بذاتها يوم القيامة

لما كانت النفس هي محل التكليف والمسئولية عن الأعمال، وهي التي ذاقت الموت وعانت من سكراته، ثم هي من يقف يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران-٣٠]، حتى إذا تسلمت كتابها ترى الذين عصوا الله ﷻ، وعصوا الرسول ﷺ، وجوههم مسودة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْـمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف- ٤٩]، فارتهنت نفس المجرمين بسوء أعمالهم، فهي بما كسبت موقوفة بين يدي الله ومسئولة، ولذلكم ترى الأنفس يوم القيامة مشغولة لا تجادل إلا عن نفسها، ولا يعنيها أمر غيرها لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل-١١١]، ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار-١٩]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة-٤٨]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة-١٢٣].

رابعا: مراحل تهذيب النفس

إذا تأملنا آيات القرآن الكريم وجدناه يخاطب النفس بصور متعددة، فإذا تحدث عن كونها محل التكليف فإن الحديث هنا إلى النفس التي هي محل الشهوات والرغبات، وإذا خاطبها بأنها محل الاختيار فالمراد العقل، وإذا كان الخطاب بأنها موقوفة ومسئولة بين يدي الله عن الأعمال، ومشغولة بما جنته في الدنيا، فالمراد عوالم الإنسان مجتمعة، وإذا كان الحديث عن الموت فذاك خاص بجميع العوالم ما عدا الروح حيث يحدث فراق إلى حين اللقاء يوم البعث والنشور، لذلكم لزم أن نوضح أن حديثنا خاص بالنفس التي هي محل الشهوات والرغبات كعالم يكمله عوالم أخرى، وتهذيب النفس اصطلاح يشير إلى رحلتها من الغفلة إلى الذكر والتهذيب، كما يقول ابن منظور في لسان العرب من معانيها [أي تهذيب النفس]: التنقية، والعرب تقول هذبه أي نقاه، وأخلصه، وأصلحه، والمهذب من الرجال المخلص النقي من العيوب، المطهر الأخلاق، وأصل كلمة التهذيب تنقية الحنظل من شحمه ومعالجة حبه حتى تذهب مرارته ويطيب لآكله، ومن

Upload by : altawhedmag.com

معاني التهذيب أيضا الإسراع، وتقول العرب: أهذب الإنسان في مشيه، والطائر في طيرانه، والفرس في عدوه، أي أسرع، وفي حديث سرية عبد الله بن جحش: أني أخشى عليكم الطلب فهذبوا: أي أسرعوا السير، فمن جملة المعاني السابقة جاء تعبير التهذيب، والمقصود به تنقية النفس من العلائق، ومعالجتها من العيوب حتى تذهب عنها تعلقها بما سوى الله، فتصلح بعد ذلك، وتخلص لله، ويطيب لها السير إليه، بقوة وهمة بلا راحة ولا هوادة إلا بما يبقي الظهر ويقطع الأرض، حتى تصل النفس بعد التزكية وصحة العبودية لله ﷻ إلى الفلاح المبين والفوز العظيم، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس٧: ١٠].

وإذا وصفنا النفس في مراحل تزكيتها نعرض تقسيما يصف خمس مراحل تعرج خلالها النفس من أرض المعصية إلى سماء القرب، والغرض من هذا التقسيم هو وصف كل مرحلة بغض النظر عن الاسم الذي أطلق على المرحلة، أو استخدام الصوفية لنفس المراحل والمسميات، وهذه المراحل هي:-

١. النفس الأمارة بالسوء:

أشار القرآن الكريم إلى هذه النفس على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف-٥٣]، وهذه النفس تركن إلى الشهوات وتميل بكلياتها إلى المعاصي والآثام، فيمتلأ القلب بالظلمات ويسكن فيه الشيطان، ويصبح هو الآمر الناهي، فلا وازع من الله ﷻ، ولا رادع يمنعه، فهي نفس لا تتأثر بالترهيب، ولا ترجع إلى الله بالترغيب، فهي لا ترى أمامها إلا طريق واحد هو الأمر بالسوء. ولذا قالوا: إن النفس في هذه الحالة في مقام ظلمة الأغيار[1]، والسمة الغالبة عليها الاستبشار بالمعصية والرضا عنها، واستغراق لذة الشهوة والشعور بحلاوة الاستمتاع بها، فقد أحاط الرين بالقلب، فلا بارقة من نور تدخله، ولا دافع للطاعات يصدر عنه.

ومن نظم أبو الأسود الدؤلي:

---

١ ظلمة الأغيار: اصطلاح يستخدمه الصوفية للدلالة على العبد الذي يعيش في ظلمة الانشغال بغير الله ﷻ.

Upload by : altawhedmag.com

لا تنه عن خلق وتأت مثـله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيهـا ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل وإن وعظت ويقتدي ... بالقول منك وينفع التعليـم

٢. النفس اللوامة:

ورد في القرآن الكريم إشارة إلى النفس اللوامة حين أقسم الحق تبارك وتعالى قائلا: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة١-٢]، فكل نفس يوم القيامة تلوم نفسها عن التقصير الذي أوقفها في المقام الأدنى، فلو زادت طاعتها لارتفعت درجاتها، ووصف النفس اللوامة هنا يشير إلى مرحلة تصل إليها النفس الأمارة بالسوء بعد أن عقدت النية الصالحة للسلوك إلى الله ﷻ، وجاهدت هواها، وبادرت بالتوبة عما سلف وكان، وكثر استغفارها بالأسحار، وقراءة القرآن الكريم، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد ﷺ، فهي نفس ارتقت بعد العودة للفرائض والأركان، ثم سارعت إلى النوافل تعويضا عما فات، فهي تسلك بالطاعات وتعرج بالنوافل حتى خرجت من ظلمة الأغيار، وهي نفس أذعنت باتباع الحق، وما زال لها ميل للشهوات، فهي تحن إليها، ولكنها تجاهد رغبتها وتنتصر عليها في كثير من الأوقات، وقد ترتكب بعض الأخطاء، ولكن حالها اختلف عن ذي قبل، فقد فقدت حلاوة اللذة وأصبحت تعرف أن الذنب ذنبا وتشعر بمرارته، لهذا تلوم نفسها على ضعفها ووقوعها في الخطإ، ولذلك تسارع إلى الاستغفار، كما أن القلب في هذا المقام زال عنه أكثر الصدأ، ودخله النور، فخرج الشيطان مطرودا، وبدأت كفة الصراع بين النور والظلام تميل ناحية النور، ولا بد للنفس أن تدرك في هذه المراحل حقيقة الزهد في الدنيا، وأحسن الشاعر حيث يقول:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيهـا ترك ما فيهـا
لا دار للمرء بعد الموت يسكنهـا ... إلا التي كان قبل الموت يبنيهـا
فإن بناها بخير طاب مسكنـه ... وإن بناها بشر خاب بانيهـا
أين الملوك التي كانت مسلطنـة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

Upload by : altawhedmag.com

والسالك في هذه المرحلة، تعزف نفسه عن شهوات الدنيا، ولا يعني ذلك العزلة والتزام رءوس الجبال، وإنما يخالط النَّاس ويسعى في الأرض، ويأكل من رزق الله من كسب يده، وإذا وقع منه الفعل الصالح حمد الله على توفيقه، وتمنى أن يزيد إخلاصه، فيلوم نفسه على عدم الزيادة، وإذا أساء بادر إلى الاستغفار والتوبة عن الذنب، ولام نفسه على تقصيرها، لهذا يسمى مقام السالك حينئذ بأنه مقام النفس اللوامة، وهي بدايات مقام الأنوار.

٣. النفس الملهمة:

لقد أشار القرآن الكريم إليها بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس٧-٨]، إلا أن النفس تلهم من الله تبارك وتعالى إلهاما يوضح لها سبيل الهداية، ويُظهر لها سبيل الفجور، ونظير ذلك في القرآن الكريم كثير منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان-٣]، وقد أُخذ اسم النفس الملهمة لوصف مرحلة من مراحل سلوكها، حيث تتسم النفس بأنها قويت على معارضة الشهوة، وابتعدت عن طريق الفجور، وسلكت سبيل التقوى، فزاد ميلها للطاعات، فتضاعف النور في القلب، واشتدت قوته حتى فاض على الجوارح، فلانت للمزيد من الطاعة، فجاءت الطاعات تعودا لا تكلفا، ورغبة فيما عند الله من العطاء، ورهبة من سطوته على العصاة، فسارعت إلى مغفرة الله ﷻ، وتنافست مع المتنافسين في تحصيل العلم النافع، وتصحيح العمل بميزان السنة اتباعا لسيد البشر ﷺ حتى وصلت إلى علم اليقين.

٤. النفس المطمئنة:

وقد أشار القرآن الكريم إليها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْـمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر٢٧-٢٨]، فالنفس توصف بأنها مطمئنة، ولا تصل النفس إلى مرحلة الطمأنينة حتى تنصهر في بوتقة العبودية حتى يسكن اضطرابها، فقد ردها عن الشهوات ولذتها الخوف من الجليل، فجاهدت ذميم أوصافها، ودامت على تزكيتها طلبا للفلاح عند مليكها، فتحققت بمعرفة ضعف صفات المخلوق، فذهب عنها خشية أي شيء، وبقى عليها الاطمئنان بالله ﷻ، وتلاشى عندها الافتقار لغير الله، وبقيت عليها حُلل الغنى بالله ﷻ، فلا تسكن النفس إلا لمراده سبحانه، فتبادر إلى طاعته باتباع نهج رسوله ﷺ وابتغاء لمرضاته، فعظم شأن الله عندها،

Upload by : altawhedmag.com

وتضاءلت قيمة الدنيا وخف ثقلها، فاطمأنت لرزق الله المقسوم وعطائه المكتوب، فزاد يقينها، فهي نفس بلغت حقيقة الإسلام، ومن ثم لا تقدر أن تفتر عن العمل.

ومن أوصاف تلك النفس التي تجاهد في سلوكها إلى الله تعالى أنها تسمى نفس راضية بعد وصولها إلى مقام الرضا بعد الاطمئنان بالله تعالى، فهي لا تحيد عن المزيد من النوافل والطاعات، فترى باليقين أن ذلك هو السبيل الوحيد إلى التقرب إلى الله ﷻ، وفي نفس الوقت ليس لها مع الله رغبة ولا اختيار إلا طلب المزيد من المحبة والرضوان، والنفس في هذا المقام آمنت أنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، وما جرت به الأقلام قبل الدنيا وما فيها، وتردد في إيمانها ما أوحى الله تبارك وتعالى به إلى داود عليه السلام كما جاء في الأثر: "يا داود: إن سلّمت لي ما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ولا يكون لك إلا ما أريد".

فالنفس لاحت عليها أنوار الحكمة، فشاهدت الخير والحكمة في جميع أفعال الله تبارك وتعالى، ورأت عظيم النفع وتمام الحكمة في التفكر في آلاء الله، فالنفس في هذا المقام ترتقي إلى بدايات مقام الوصال وحقيقة الإيمان، ومن بلغها لم يقدر أن يلتفت إلى العمل بغير قصد وجه الله ﷻ، وهذا هو مقام عين اليقين، فهي نفس راضية إن أُعطيت شكرت وآثرت، وإن حُرمت صبرت ورضيت، نفس ترى البعد عن الرحمة هو حقيقة الحرمان، وترى العمل بتوفيق الله هو حقيقة الوصال، وتمام رضاها بدوام السير اقتفاء لآثار الحبيب المصطفى ﷺ.

والنفس الراضية تظل تجاهد الابتلاء في الدنيا حتى تلوح عليها أنوار المنح والعطايا، فبعد رضاها بربها جاء الكريم فأرضاها، وتجلت صفات أسمائه الحنّان المنّان لها، وخصها ربها بمزيد الرضوان، فزاد تعلقها بالمنعم بعد أن ذاقت أنوار قربه وإحسانه، فهي نفس راضية اجتهدت وجاءت تمشي على قدر همتها، فجاءها الوهاب هرولة بعظيم فضله وكريم عطائه، فأنزلها ديار الوصال، ونقلها إلى مقام سام في رفعته، عظيم في درجته وفتح عليها من خزائن رحماته ما جعلها نفس مرضية، فهي نفس ارتقت من درجات الإيمان إلى مقامات الإحسان، ومن بلغ حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله ﷻ، وهذا مقام حق اليقين حيث تتذوق النفس من حقائق اليقين ما يزيدها رضا على رضوان، وفتحا على فتح، ونورا على نور، والقلب في هذا المقام موصوف بأنه القلب السليم، وكذلك الصدر يزداد انشراحه، والعلم تتسع أفاقه، والمعرفة تصبح الغاية، ولا يكون للنفس زاد إلا التقوى.

Upload by : altawhedmag.com

٥. النفس المحبوبة:

والنفس المحبوبة نجد ما يشير إليها في الحديث القدسي: ﴿من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته﴾[1].

واعلم أن أعلى درجات النفس المحبوبة هي درجات الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، فهم أهل الكمال البشري والقدوة والمثل المضروب للإنسانية عبر عمرها، ثم يليهم العلماء، كما في الأثر: "العلماء ورثة الأنبياء"، وهم الراسخون في العلم يحملون مشاعل الهداية من خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ جيلا بعد جيل، من الصحابة إلى التابعين إلى من صار على دربهم إلى يوم الدين، فغاية مراحل سلوك النفس البشرية ونهاية معراج تزكيتها وتهذيبها الوصول إلى محبة الله ﷻ، فمن أحبه الله أطلق محبته في السموات والأرض ووضع له القبول في النَّاس وعاش بينهم على بصيرة من ربه، فالله يتولاه بولاية عباده الصالحين المقربين، ويفتح عليه فتوح العارفين، ويمده بأنوار المعرفة، فيدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والله تبارك وتعالى يزكي مقامه بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْـمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت-٣٣]، وكلما ارتقى العبد إلى الله تبارك وتعالى وازداد علمه أدرك تقصيره فيما سلف منه، وشعر أن حسناته السابقة وأعماله التي أخلص فيها ما زالت تحتاج إلى مزيد من الخشية، فهو يرى صحة قول القائلين بأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ومن الضروري أن نشير إلى أن السالك إلى الله ﷻ ليس له ثبات على وصف واحد، أو حالة بعينها تلازمه، وإنما يتعرض في كل لحظة إلى الاختبار، فهو بين أن يجتازه بنجاح، فيرتقي إلى حالة أفضل ووصف أرقى، وبين أن يهبط إلى درجة أدنى، وإنما توصف النفس بحالة معينة إذا غلب على أوقاتها الاتصاف بصفات هذه الحالة، فمن غلبت على أحواله الطمأنينة مثلا كان في مقام

---

١ حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري ٦٢١، وحديث عائشة بلفظ قريب أخرجه أحمد ٢٤٩٩٧

Upload by : altawhedmag.com

النفس المطمئنة، وقد يعتريه وهو على هذه الحالة خاطر ظلماني يثير في نفسه الاضطراب، ولكنه إذا سارع إلى تذكر الله ﷻ والاستعاذة به من الشيطان ووساوسه، فإن الخاطر ينصرف عنه، وتعود نفسه إلى السكون، فيسري عليها وصف النفس المطمئنة، فإذا تمكن منه الخاطر، وأمره بالمعصية، سُميت نفسه أمارة بالسوء، ولا تعود إلى النفس المطمئنة حتى تستغفر الله، ولذلكم كان السلوك إلى الله ﷻ ملازما للعبد في كل لمحة ونَفَس.

وقد يختلف البعض على هذه المراحل الخمسة، فيراها سبعة، أو ثلاثة، أو غير ذلك، أو قد يرى لها أسماء أخرى، وغرضنا من عرض هذا التقسيم ليس تقديم المسميات، وإنما وصف النفس في سلوكها، الذي لا يختلف باختلاف المسميات.

وقبل أن ننتقل لبيان مراحل تدرج العقل حتى يصل إلى أسمى الدرجات نود أن نُبدي ملاحظة مهمة: هي أن الغالبية العظمى ممن يتولون تربية السالكين سواء بالتجربة، أو ممن كتبوا في هذا المجال يتحدثون عن التربية، ويحصرونها في إطار النفس فقط، وكأن الإنسان نفس فقط، ولذلكم جاءت دعوتهم ناقصة غير مكتملة، ولعلها أغفلت جوانب غاية في الأهمية، كما سيبدو ذلك في الفصل التالي بإذن الله.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الرابع

ملكات العقل في خدمة السلوك

قبل أن نبدأ حديثنا عن العقل، وكيف يرتقي في سلوكه حتى يصل إلى أسمى الدرجات، أود أن أنقل للقارئ الكريم بعضا من المشاعر والمفاهيم التي عشت أصدقها مدة من الزمن، فقد رسخ في اعتقادي آنذاك واعتقاد الكثيرين من السالكين أن العقل لا مجال لاستخدامه، وأن السلوك إلى الله ﷻ بالقلب، ومن جعل للعقل جانبا في سلوكه ضل وحجب، وما وصل إلى مقامات الفتح، فالعقل كما وصفوه لنا حجاب بين العبد وربه، وهو قاصر محدود، وكيف يتعامل القاصر والمحدود مع الله الواسع العظيم؟ فليخرج العقل من الساحة ليدعها للقلب فهو صاحب هذه المهمة، وقد سمعنا عددا من المشايخ يروون قولا موضوعا، "أن رسول الله ﷺ روى عن ربه قوله تعالى: ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن"[1].

وقد قرأت في كثير من كتب السلوك فما وجدت إلا النفس ومراتبها، والقلب وصفاته، أما العقل فليس له دور، أو في أحسن الأقوال دوره محدود، مصحوب بتحذير شديد من استخدامه، ويا ليت من كان هذا رأيه تدبر آيات الكتاب العزيز، وبحث عما تشير إليه استخدام القرآن للعقل، مثل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾، ﴿نَعْقِلُ﴾، ﴿قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾، ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾، ﴿لأُولِي النُّهَى﴾[2]، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾، ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، فسيجدون مئات الآيات التي تبرز دور العقل، ومن الإشارات القرآنية أن مشتقات العقل وردت في القرآن الكريم [٤٩] مرة، منها [٢٤] مرة بلفظ ﴿تَعْقِلُونَ﴾، و[٢٢]

---

١ ذكره الغزالي في الإحياء، وقال الحافظ العراقي: لم أرَ له أصلا، وقال ابن تيمية: هو مذكور في الإسرائيليات، وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ، راجع كتاب تمييز الطيب من الخبيث فيما اشتهر على ألسنة الناس من الحديث للشيباني الشافعي ١٦٨

٢ النهى: العقول والألباب.

Upload by : altawhedmag.com

مرة بلفظ: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ومرة واحدة: بالألفاظ: ﴿عَقَلُوهُ﴾، ﴿نَعْقِلُ﴾، ﴿يَعْقِلُهَا﴾، وهو نفس مرات تكرار مشتقات لفظ ﴿النُّورُ﴾[1].

خاطب الحق تبارك وتعالى خلقه بآيات بينات في الكون تدل على عظمته ووحدانيته، وقرر في القرآن الكريم أن العقل هو وسيلة الإنسان لمعرفة هذه الآيات، ولهذا طالبهم بالنظر في السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودعاهم لدراسة علم الفلك، كما أمرهم بدراسة علوم البحار، وكيف تجري الفلك في البحار والأنهار، وكذلك علوم النبات، والزراعة، والحيوان، والرياح، وجميع الظواهر الكونية من برق، وصواعق، وسُحب...، وخُتمت جميع هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]. ونضرب لذلك مثالا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة-١٦٤]، ومن هنا نشرع بتوفيق الله في بيان دور العقل في سلوك العبد إلى مولاه.

أولا: تعريف العقل

العقل: هو القوة المتهيئة لقبول العلم، والوسيلة التي يستخدمها الإنسان للوصول إلى ما يحتاجه، وثمرة العقل فَهْم الخطاب، وتَبَيُّن المقصود من الأمر. ومن معاني كلمة العقل في لغة العرب ما يشرحه ابن منظور في لسان العرب، حيث يقول:

العقل: هو الحِجْر، والنُّهى، وهو ضد الحمق، وسمي العقل عقلا؛ لأنه يعقل صاحبه عما لا يحسن، ورجل عاقل هو الجامع لأمره ورأيه، ويحبس نفسه ويردها عن هواها، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. والعقل هو التثبت في الأمور، وهو القدرة على التمييز الذي به يسمو الإنسان عن سائر الحيوان.

---

١ الإعجاز العددي في القرآن الكريم للدكتور عبد الرزاق نوفل ص ١٥٦

٢ راجع هذه الآيات في سور: "الرعد: ٤، والنحل: ١٠-١٣، والنحل: ٦٥-٦٧، والحج: ٤٦، والعنكبوت: ٣٤-٣٥، والروم:٢٤".

Upload by : altawhedmag.com

ومما يدل على شرف العقل وسمو مكانته أن العرب تقول: العقيلة من النساء أي الكريمة، وَعَقِيلَة القوم سيدهم، وعقيلة كل شيء أكرمه، وعقائل البحر دره، وواحدته عقيلة، وهي الدرة الكبيرة الصافية، وعقل إليه أي لجأ إليه، كما تسمي العرب: المعاقل حصونا، وقيل: العقل هو القلب، والقلب هو العقل، ويقال: لفلان قلب عقول ولسان سئول، وقلب عقول أي فهم، وعقل الشيء يعقله عقلا أي فهمه. "والعقل يعبَّر به عن العلم على وجه المجاز في سعة اللغة"[١]. ومن هذه المعاني التي تشير إليها كلمة العقل في مدلولها اللغوي نخلص أن العقل هو أكرم نعمة أنعمها الله على الإنسان وهو سيد النعم وأكرمها على الإطلاق، وأشرف درة منحها الله تبارك وتعالى للإنسان، وهو الأداة التي يلجأ إليها الإنسان لتحقيق مراده، وهو الحصن الذي به يحتمي من أعدائه، كما أن العقل يعطي الإنسان القدرة على تلقي العلم والتثبت في الأمور والتمييز والتفاضل بينها، ثم هو الأداة التي يستطيع الإنسان أن يجمع بها أمره ويحدد بها رأيه، ويحبس بها نفسه، ويردها عن هواها، ويمنعها عما لا يحسن.

ولابن القيم كلام لطيف عن العقل، يقول فيه: "والعقل به عُرف الله سبحانه وتعالى وأسماؤه وصفات كماله، ونعوت جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه، ورسله، ولقائه، وملائكته، وبه عُرفت آيات ربوبيته، وأدلة وحدانيته، ومعجزات رسله، وبه امتثال أوامره، واجتنبت نواهيه،.. وحث على الفضائل، ونهى عن الرذائل، فاستجلب ما يَزين، ونفى ما يشين"[٢].

وللعقل أسماء أخرى، فهو يسمى: حلما، ونُهى، وحِجْرا، وحِجًى، وأرقى أسمائه: اللب. وأولو الألباب هم العلماء بالله، وليس كل عاقل عالما بالله، وكل عالم بالله فهو عاقل، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت-٤٣][٣].

١ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب للحكيم الترمذي ص ٧٦

٢ روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ٧-٨

٣ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب للحكيم الترمذي ص ٧٦.

Upload by : altawhedmag.com

ثانيا: وصف مكونات العقل

يتكون العقل الإنساني من مكونات أساسية، ثم ملكات، منها الفطري الذي يهبه الحق تبارك وتعالى لكل البشر، ومنها ملكات كسبية، تتفاوت حسب ما قدره سبحانه، وما هيأ به صاحبه لتلقيها، وهذه المكونات هي:

١. مكونات أساسية.
٢. ملكات العقل الفطري.
٣. ملكات العقل الكسبي.

- **المكونات الأساسية:**

١. **المخ:** ويطلق عليه الذهن أو الذاكرة، ولتقريب المراد نقول: إنها الخلايا العصبية التي يمتلك المخ منها حوالي أربعة عشر بليون خليه، كل منها تستطيع تخزين المعلومات، وللعقل أن يستدعي أي منها عند الحاجة إليها، ويتكون المخ من فصين أحدهما على يمين الجمجمة، والآخر على يسارها، وكل منها يتكون من عدة مراكز، عَرِف الناس بعضها كمركز السمع، ومركز الإبصار، ومركز الشم، ومركز الحركة، والمركز السيكولوجي، ومركز الوجدان،... وما زال المخ يحتفظ بأسراره، ولا يصرح بها، وما تعلمه البشرية عن المخ ما زال في أطواره الأولى، وكل يوم تظهر أبحاث جديدة، وإمكانيات مذهلة، ويضم المخ أيضا ذاكرة أمامية يتعامل بها مع الأحداث اليومية الجارية، وذاكرة خلفية تحتفظ بالمعلومات القديمة، وصور الأشياء التي يتعامل معها، ويتسع مضمون كلمة صور الأشياء ليشمل صورة الأشخاص، وأصواتهم، وروائحهم، وأسلوب حديثهم، وطبائعهم، كما يحتفظ بالذكريات التي مرت بصاحبها على مدى سنوات عمره، كما يحتفظ المخ بثوابت لازمة لتيسير عمله، فهو يعرف من كثرة عشرته لأشخاص معينة – سواء من أصواتهم، أو من ملامحهم- متى يكونون صادقين معه؟ ومتى يكذبون عليه، أو على غيره؟ ومتى يخفون عنه بعض الأحداث؟ وهكذا..، كما تحتفظ الذاكرة بتجارب الحياة التي مرت بصاحبها، مقسمة إلى تجارب مفيدة، وما تعلمه المرء من هذه التجارب،... والذاكرة الإنسانية تحتفظ بالمعلومات على مستويين، ذاكرة أمامية، وذاكرة خلفية، حيث

Upload by : altawhedmag.com

يتم فيها تخزين المعلومات التي طال عليها الوقت، ويمكن أن نسمي هذه المعلومات بالتجارب السابقة في الحياة، وهذه المعلومات يتم تخزينها في داخل الذاكرة مبوبة إلى أشياء متعارف على حسنها وجمالها، وأشياء منكرة وقبيحة، أما الذاكرة الأمامية فهي التي يستخدمها الإنسان في التعامل المتكرر الذي يقع في الزمن القريب، فهذه المعلومات يكثر احتياج الإنسان إليها، ولهذا فهي موجودة وتحت الطلب الفوري في الذاكرة الأمامية، فإذا قل احتياج الإنسان لنوع من المعلومات، فإن المخ ينقلها أثناء النوم، أو ملخصا وافيا عن أهم ما فيها إلى الذاكرة الخلفية، ثم يمسح الذاكرة الأمامية ليتسع المجال لتخزين معلومات جديدة، وهكذا...والعقل البشري يمتلك قدرات أعظم كثيرا من قدرات الحاسب الآلي، وقد يتسع المجال يوما لعمل هذه الدراسة، وما يعنينا الآن أن نذكر أن الحاسب الآلي له ذاكرة، بل ويمكننا من زيادة طاقتها سواء بإضافة ذاكرة أخرى داخل الحاسب، أو ذاكرة خارجية على وسائط مغناطيسية Magnetic tape، أو Hard disk، أو وسائط ضوئية CD-ROM، وقد يُحسِّن من وظائفه بإضافة ذاكره فوريه Cash memory، أو وحدات RAMتساعده على سرعة عمليات الوصول للمعلومة، أو الحصول على معلومات من وحدات الإدخال والإخراج.

٢. **مراكز الحواس**:والحواس تقسم إلى حواس ظاهرة، وهي الحواس الخمس المعروفة من سمع، وبصر، وشم، ولمس، وتذوق، وهذه الحواس يقابلها أجهزة الأذن، والعين، والأنف، والجلد، واللسان، إلا أن هناك أيضا حواس باطنة خفية لا نعرف إلى اليوم الأجهزة التي تقوم بهذا العمل، ومنها حواس الوجدان: من الحب، والكراهية، والرؤية عن بعد Telepathy، والإحساس بالشيء قبل وقوعه، أو أن ما يقع أمامك حاليا سبق أن وقع معك كأنك تعيشه للمرة الثانية[1]، وقدرة الناس على التخيل، ومنهم من يعيش

١ وهذا الأمر يتكرر مع كثير من الناس، خاصة حين يسمع المرء حديثا، أو يجري حوارا مع أحد، أو ترى شخصا كأنك تعرفه وعشت معه بينما تراه لأول مرة، ويفسر الأطباء هذه الظاهرة مؤخرا على أنها تنتج عن خطأ في تخزين الواقعة التي يتوهم صاحبها تكرارها في مركز الذاكرة، فكأنما حدث@ تسجيل لها مرتين، وفي المرة الثانية يتخيل صاحبها أن ما حدث معه سبق أن حدث من قبل.

Upload by : altawhedmag.com

بكل وجدانه مع كلمة حنان، أو لحظة صفاء، فينتقل من واقعه الذي يعيش فيه إلى عالم من صنعه ومن صنع خياله، أو يرجع إلى أحاسيسه وذكرياته في زمان أو مكان آخر، وما إلى ذلك من القدرات التي لا يعلمها إلا الله تعالى... ومن المعروف أن هذه الحواس لها مواصفات محددة فحدة الإبصار مثلا تتفاوت حسب المسافة، وكمية الضوء، وزاوية النظر، وأيضا ترى ترددات معينة، ولا تتعامل مع الأشعة فوق البنفسجية، ولا الأشعة تحت الحمراء، وكذلك الأذن وإمكانيات السمع، وهكذا مع باقي الحواس. والإنسان يحاول عبر التاريخ أن يضاعف من قدرات بصره تارة بالميكروسكوبات لرؤية ما دق على عينه أن ترصده، أو بالتليسكوبات لرصد ما يحدث في الأفلاك والأجرام المتناهية البعد.

٣. **الجهاز العصبي**: وهو الجهاز الذي يوصل بين الحواس وبين ما يقابلها من مراكز في المخ، من خلال خطوط اتصال عصبية، ويتكون الجهاز العصبي من الأنظمة التالية: نظام عصبي إرادي يتولى إدارة الأطراف P.N.S، ونظام عصبي لا إرادي يتولى مثلا إدارة حركة الأحشاء، وعلاقة المخ بالأعضاء الداخلية [القلب، الكلى، الكبد،...] وينقسم هذا النظام العصبي [اللاإرادي] بدوره إلى نظام سمبثاوي يتولى السيطرة والتحكم في حالات الخطر واللحظات الحرجة [كالحرب، والحريق، والحوادث، وحالة الرعب،...]، ونظام باراسمبثاوي يدير الأعضاء في أثناء النوم، وفي الحالات العادية التي يسميها الأطباء وقت الرخاء، مثل: [الهضم، والتبول، والإخراج]، ويتم إرسال الإشارات من هذه المراكز إلى المخ، ثم تتلقى بدورها توجيهاته الفورية، وهذه الأوامر الصادرة من المراكز العصبية في المخ تنتقل فورا إلى العضلات، ويندفع الدم من القلب لهذه العضلات لتنفيذ التعليمات الصادرة من المخ.

ثالثا: معايير القياس العقلي

ومن أهم ما تحتفظ به ذاكرة كل إنسان ما يُحمد من الأمور، وما يعتقد هو أنه حسن، وما يُذَم من المفاهيم، أو الأخلاق، أو الطباع، وتقسيم هذه الحصيلة بهذا الشكل هو نتيجة يتوصل إليها صاحبها بعد أن يقيس هذه الأمور بمعايير تختلف من شخص لآخر، إلا أنها لا تخرج عن المعايير الخمسة الآتية:

Upload by : altawhedmag.com

١. معيار الحلال والحرام عند المرء نفسه، وقد يهلك البعض إذا تلقى معلوماتٍ مضللة عن الحلال والحرام، والمسلم الذي يتمسك بدينه حريص على ضبط هذا المعيار، وتلقيه عن الكتاب والسنة، وليس عن طريق شيخ للطريق، أو إمام لفرقة من الفرق المنحرفة، أو أمير من أمراء جماعات هذا الزمان، والمرء حين يجاوز الحلال والحرام في تصرفاته، فقد ابتعد أيضا عن العدل ودخل في الظلم، وقطع مراحل في مساوئ الأخلاق، وأصبح بعيدا عن مكارم الأخلاق.

٢. معيار العُرف والتمسك بما عليه الآباء والأجداد، وهو ما يمكن أن نسميه بالعادات والتقاليد، أو بالمعروف والمنكر في المجتمع الذي نشأ فيه. فما يراه الناس في أوروبا عن صداقة الشباب من الجنسين وممارستهم للجنس، تكون في مجتمعات أخرى رذيلة تستوجب القتل، وما ورثه المصريون اليوم عن أجدادهم من عشق لإجراءات الدفن والجنائز والقبور، لا تراه في مجتمعات أخرى كالتي نشأت في البادية، وهكذا.

٣. معيار التجارب السابقة: فمن التقى في حياته بالطيب من الناس، تتكون لديه القناعة بجدوى العمل الصالح، ومد يد العون للآخرين، بينما من التقى بالخبيث من الناس، الناكر للجميل، أو من يخدع الصديق، أو يخون الأمانة، نجده يتعامل مع الناس بحرص وحذر، ولا يبادر بالإحسان إلا في أضيق الحدود، ويفكر كثيرا قبل مصاحبة الآخرين.

٤. المصلحة الشخصية: وهي عنصر حاكم عند أغلب الناس، فقد يرى يوما تصرفا معينا لأن مصلحته فيه، ثم تدور الأيام فيفعل عكس فعله الأول، وقد يكون حادا في نقد ما سبق أن قام به بقناعة تامة، وما ذاك إلا أن مصلحته اليوم تتطلب منه تصرفا مخالفا.

٥. الهوى: فقد يرغب المرء في فعل يعرف أنه خطأ، إلا أن رغبته وهواه في عكس هذا العلم، كأن تكون رغبته في الانتقام من شخص أضره وأكل حقه، أو أساء إليه، فتراه يُقدم على هذا الفعل وهو ينكره بنفسه أشد الإنكار، ولا يرضاه لنفسه أبدا، ولا يسارع إلى فعله مع شخص آخر. وقد يكون هواه في حصول المنزلة عند الناس، فينزلق إلى جُبِّ الرياء ويسقط فيه، فتراه يفعل أمورا، أو يقيس الأشياء من منظور ما يعلي شأنه بين العامة والخاصة. يقول ابن القيم: "بينك وبين الفائزين جبل الهوى، نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطْوِ فضل منزل تلحق بالقوم".

Upload by : altawhedmag.com

ومن أصعب الأمور أن تتوقع رد فعل الإنسان – فالأمر ليس سهلا – فتارة يكون رد الإنسان بتغليب جانب الهوى، وتارة أخرى بتجاربه مع الآخرين، أو ربط الفعل، بحدث سابق حصل معه، أو تجربة مريرة له، أو يرد معتقدا أن الحلال والحرام في هذا الأمر أولى بالاتباع، أو يحسب العائد الذي يعود عليه إذا رد بصورة معينة، أو يكون قراره مبنيا على اتباع لعرف الأجداد والأسلاف، والتمسك بالعادات والتقاليد، وفي أغلب الأحيان يكون رد الفعل ناتج عن محصلة هذه المعايير الخمسة، بعد عمليات حسابية معقدة يقوم بها العقل بعد أن يضع وزنا معينا لكل معيار على حساب الآخر، وهذه الموازيين تختلف من موقف لآخر، ويتم ذلك في وقت سريع للغاية، تتناسب مع قدرات العقل البشري الفائقة.

ولما كلف الحق تبارك وتعالى العقل بالنظر في الكون، وحث الإنسان على استعمال الحواس وهبه عددا من الملكات يؤدي بها مهامه، وإذا نظرنا في كتاب الله ﷻ لوجدنا القرآن يُظهر هذه الملكات ويُحددها، ويلفت النظر إليها بما يلي:

رابعا: ملكات العقل الفطري

أول مقام العقل هو عقل الفطرة، الذي يتكون من ثلاث ملكات أساسية، وبها يخرج الصبي من بطن أمه، كما يخرج به الرجل عن صفة الجنون، وبالتالي يصير مكلفا، ومن فقد أي ملكة من هذه الملكات، فإنه يعد فاقدا للعقل، ويصير غير مسئول عن أفعاله، ويسقط عنه التكليف، ولا يأتمنه الناس على أموالهم وأعراضهم، وملكاته الثلاث هي:

١. ملكة التمييز بين الحسن والقبيح.
٢. ملكة معرفة عواقب الأمور.
٣. ملكة الإدراك والتحكم.

ورغم أن هذه الملكات هي من العقل الفطري، إلا أنها تزداد رسوخا بالتجارب، وتقوى مع الأيام، خاصة مع الإنسان الذي يراجع نفسه، ويحاسبها على النتائج التي وصل إليها، فقد يكون من ثمرة هذا التحليل لأحداث الماضي أن يعاد صقل هذه الملكات، بحيث لا يعيش صاحبها لحظات مرارة عاشها من قبل، وسنتناول هذه الملكات بالشرح لمعرفة دورها في بناء العقل الإنساني، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

Upload by : altawhedmag.com

١. ملكة التمييز بين الحسن والقبيح:

وهي ملكة تنشأ مع الطفل الوليد، ويعتمد عليها في كل لحظة من حياته، فبها يعرف أهله، وأقاربه، وجيرانه، ويكون منهم دائرة أحبابه، كما يميز بها بين الخير والشر، والطيب والخبيث، فيتعلم كيف يُحمد له فعل؟ ويُذم له عمل؟ فيدرك المتعارف على صحته، ويعي المتفق على إنكاره، وعلى حسب البيئة التي ينشأ فيها الوليد يقوم أبواه بهذا الدور الذي يتسع ليشمل المدرسة والحي والمجتمع كله في النهاية، ولكن العقل يستقبل ما يتلقاه، فإن كانت الأسرة، والمدرسة، والحي، والمجتمع، قائم على تطبيق شريعة الله تلقى هذا العقل منذ ولادته الحسن والقبيح كما حدده المنهج الإلهي، فاستقام من صغره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان نهجه سهلا ميسرا، أما إذا تلقى عن مجتمعه عادات وتقاليد تختلف عن منهج الله ﷻ، فإن العقل يعتادها منذ صغره ويتربى عليها، فإن هذه الملكة تميل مع ما نشأ عليه المرء، فإذا أراد الله هدايته، فإنه يتلقى علما نافعا، يستطيع باستخدام هذه الملكة التي منحها الله إياه أن يميز بين ما يرضي النَّاس ويغضب الله ﷻ، وبين ما يرضي الله ﷻ ويغضب النَّاس، وبقدر الجهاد المطلوب من هذا السالك إلى الله بقدر ما يكون عطاء الله له وفتحه عليه. ومن كان هذا مسلكه خرج من اختلاف النَّاس حول الحسن والقبيح، وخرج أيضا من حظ نفسه وهواها، وميز بين الحسن المطلق والقبح المطلق، ولهذا جاء الأمر الإلهي باتباع هدي النبي ﷺ، ففيه النجاة من النار والفوز الكبير برضوان الله تعالى، قال عز من قائل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر-٧].

٢. ملكة معرفة عواقب الأمور:

إن من أهم ملكات العقل استقراء المقدمات وصولا بها إلى النتائج الطبيعية، وقد يسميها البعض العقل التجريبي، وهذه الملكة أساسية حين تستخدم في الدنيا، فهي أصل كل تقدم علمي يحققه الإنسان، كما أنها أيضا لازمة وضرورية للنجاة يوم القيامة، فأنت حين ترى آثار الأقوام الذين عاثوا في الأرض فسادا، وكيف كانت عاقبتهم؟ فلا شك أن هذه السنّة الإلهية باقية لا تتغير، فكم من جبار وظالم وفاجر ملأ الدنيا - طولا وعرضا - ظلما حتى أصبح رمزا ومثالا

Upload by : altawhedmag.com

لأعوانه يأملون أن يكونوا على شاكلته، فإذا رأوا عاقبة أمره، ندموا على ما تمنوه بالأمس، كما في قصة كنوز قارون في القرآن الكريم التي يعلمها الجميع.

هذه الملكة لها دور أصلي في السلوك، فمن تدبر أحوال الأمم السابقة، وما حاق بهم مِنْ سخط الله عليهم، ومن رأى آثارهم وأدرك بطشهم وقوتهم، ومع ذلك لم يمنعهم هذا من وقوع العذاب عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت ٣٤-٣٥]، ويقول المولى ﷻ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [سورة طه-١٢٨]، وهنا نجد الربط بين ملكة معرفة عواقب الأمور وبين أولي النهى، ولبيان هذا الربط تعالَ نبحث عن معاني كلمة النُّهى من لسان العرب: النُّهى هو العقل، يكون واحدا وجمعا، وسميت بذلك لأنها تنهى عن القبيح، وقولهم: ناهيك بفلان معناه كافيك به أي حسبك، وتأويل ذلك أنه بجده وغنائه ينهاك عن تطلب غيره، والإنهاء: الإبلاغ، وأنهيت الرسالة أي أوصلتها إليه. وفي الحديث الشريف يرويه أبو وائل عن النبي ﷺ قال: ﴿علمت مريم أن التقي ذو نهية﴾[1]، أي ذو عقل، ورَجُلٌ منهاة أي عاقل حسن الرأي، وقال بعض أهل اللغة: ذو النُهية أي الذي يُنتهى إلى رأيه وعقله.

وهذه المعاني هي ثمرة استخدام ملكة المعرفة لعواقب الأمور حيث أنك ستمنع نفسك من فعل القبيح ويكفيك ما وقع لغيرك حتى تقف عنده حدك، كما أن التفكر في بدائع صنع الحق تبارك وتعالى خاص بأولي النهى، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ۞ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه ٥٣-٥٤]، وقد منَّ الله على عباده بذاكرة تحفظ العلم، والمعلومات، والتجارب التي مرت بالإنسان أو بغيره، ومن اتساع العلم في هذا الباب يتكون في ذاكرة المؤمن تجارب كثيرة يقسمها عقله إلى ما يحسن عاقبته، وما يقبح إتيانه وفعله، ومن هذه التجارب التي يجنيها أولو الألباب يمكنهم مساعدة الآخرين بالنصيحة، والتحذير من عواقب الأمور، ومن

١ أثر مقطوع، أخرجه البخاري تعليقا في كتاب تفسير القرآن وفي كتاب أحاديث الأنبياء باب: قول الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾.

Upload by : altawhedmag.com

شروط الاستفادة من تجارب الآخرين أن يكون الناصح لبيبا وصادقا في نصحه، وأن يكون المتلقي أيضا ذكيا حصيفا حتى ينتفع بتجارب الآخرين، ومن الحكمة قولهم: "قد ضل من كانت العميان تهديه"، فالنصيحة تعد إحدى ثمرات ملكة معرفة عواقب الأمور، وصدق الشاعر حيث يقول:

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بلبيب

وهذا يدلنا على الملكة التالية، وهي:

٣. ملكة الإدراك والتحكم:

وهذه الملكة هي مناط الفهم وإدراك حقائق الأشياء المادية والمعنوية فبها يدرك العقل الفرق بين: السيولة والصلابة، والحرارة والرطوبة، والبُعد والقرب، والكثرة والقلة، ومعاني الألفاظ وغايتها، وتكوين الجمل ومدلولاتها، كما تستطيع هذه الملكة تصور الأشياء التي لا تعرفها إما بمثيلاتها أو بأضدادها. كما أن ملكة التحكم هي قلب وأساس نظام العقل البشري وصميم كيانه، فهي الأداة التي تحقق الربط بين الحواس والنظام العصبي وخلايا المخ، والتي تصدر الإشارات للجوارح لتنفيذ ما استقر عليه رأي العقل، ونلاحظ أن كلمة: رأي العقل، مأخوذة مما تراه العين من أشياء، فيقال: رآه رأي العين، فما استقر في وجدان العقل سمي رأي العقل.

ونخلص مما سبق أن ملكة الإدراك والتحكم، وملكة التمييز بين الحسن والقبيح، وملكة معرفة عواقب الأمور هي ملكات أساسية بفقد أحدها لا يصير الإنسان عاقلا، ويسقط عنه التكليف فورا، ولهذا نقول: إن مجموع هذه الملكات الثلاث هو العقل الوهبي الموهوب من الله تبارك وتعالى، وقد يسميه البعض عقل مطبوع، عليه الإنسان جُبل، وكل هذه المسميات تشير إلى المعنى الذي أوضحناه من أن من حرم جزءا منه صار غير عاقل، ساقطا عنه التكليف.

وهذا العقل الموهوب بملكاته هذه مناسب لمهمة الإنسان في الأرض، كما أن جميع الموجودات لها قدراتها التي تناسب مهمتها في الكون، وقد يسميها البعض فطرة، ولكن ما يميز الإنسان عن جميع المخلوقات هو اتساع قدرات هذه الملكات بما يسمح بسيادة الإنسان على سائر المخلوقات ولذلكم تلقت هذه الملكات أمانة الخلافة في الأرض، وكما أن الله تبارك وتعالى منح العقل هذه الملكات الثلاث، وجعلها أصل العقل تفضل المولى ﷻ، ومنح الإنسان أربع ملكات

Upload by : altawhedmag.com

أخرى هي من أصل العقل، ولكن ليفتح الحق سبحانه للبشر باب التنافس في زيادة قدرات هذه الملكات، فمن سعى في ذلك ارتقي عقله، واكتسب صفة أسمى من العقل الوهبي، لذلك أطلق كثير من العلماء على هذه الملكات الأربع اسم العقل الكسبي؛ لأن باب تنميتها، وتدريبها، وحسن استخدامها، والارتقاء بها، ميسر للجميع بتوفيق الله ﷻ، ولا ينفع العقل المكتسب إذا لم يكن هناك عقل موهوب، كما لا تنفع الشمس وبصر العين ممنوع، فالعقل المكتسب هو حسن استخدام الموهوبات الأصلية، فإن لم يكن هناك عقل فكيف سيستخدم المفقود؟، وتشير العبارة التالية إلى العقل الكسبي، حيث تقول عن أعلم العباد إنه هو: "الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى".

خامسا: ملكات العقل الكسبي

١. **ملكة التأمل والتفكر**: يقول ابن منظور في لسان العرب: "الفكر هو إعمال الخاطر في الشيء، وهو التأمل، والتفكر اسم التفكير"، إن التفكر فريضة في الإسلام نصت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل هو الغاية المرجوة من الدين كله، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل-٤٤]، فأهل الفكر وأصحاب التأمل يجدون في آيات القرآن الكريم كل بيان ودلالة على وحدانية الحق تبارك وتعالى: فالتفكر هو الحد الفاصل بين العمى والبصر، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام-٥٠]، والتفكر مطلوب عند دراسة الأمم السابقة وأحوالهم، بل إن الحق تبارك وتعالى يضرب لنا الأمثال حتى يلفت الأفكار إلى التفكر في المراد منها، وأوجه الشبه بين المثل والممثل به، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس-٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام-١٧٦]، ويقول الفيروزابادي في باب الفكر: "الفكر هو القوة المُطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا

Upload by : altawhedmag.com

يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في العقل، وقد ورد في الأثر عن أبي هريرة: "تفكروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق، فإنه لا تحيط به الفكرة"[١]. ومما يرفع من قدر ملكة التفكر أن الله تبارك وتعالى وصف أهل الفكر بأنهم أولو الألباب، وأهل الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران١٩٠-١٩١]، فمن أعمل فكره في آلاء الله وصل إلى تنزيه الحق تبارك وتعالى، وأدرك من حكم الله التي أودعها في كونه وخلقه. كما حث الله تبارك وتعالى عباده على إعمال الفكر، فقال في آيات كثيرة: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة-٢١٩]، كما وردت مجموعة من الآيات تخاطب أهل التفكر، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، كما أوضحت الآيات القرآنية أن التفكر هو المراد والحكمة من ضرب الأمثال في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر-٢١]، وقد حددت الآيات الكريمة مجالات التفكر التي يدعونا إليها الدين الخاتم، وهي: التفكر في النفس، وفي خلق السموات والأرض، وما بينهما، وأن للحياة أجل مسمى، ورغم كل هذه المجالات فكثير من النَّاس بلقاء ربهم كافرون: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ الله السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم-٨]، وقد علَّم الحق ﷻ رسوله ﷺ فضل التفكر وإعمال الفكر، وكذلك تنصحنا المقولة الشهيرة: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة"[٣] بذلك أيضا، وقد سُئلت أم الدرداء أي عبادة أبي الدرداء كان أكثر، قالت: "التفكر والاعتبار"[٤]. وقيل:

"إذا اجتمع العقل واليقين في بيت العزلة، واسْتُحْضِرَ الفكر وجرت بينهم مناجاة:

أتاك حديث لا يمل سماعــه شهي إلينا نشره نظامه

١ تفسير ابن كثير.

٢ سورة الروم: ٢١، سورة الرعد: ٣، سورة الزمر: ٤٢، سورة الجاثية: ١٣

٣ ورد في "المصنوع" أنه ليس بحديث.

٤ حديث موقوف عن أم الدرداء رواه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد ٢٨٦ وابو نعيم في الحلية ١: ٢٠٨

Upload by : altawhedmag.com

إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المُعَنَّى ظلامه"

● **مجالات إعمال الفكر**: يقول الفيروزابادي في كتابه "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"، في باب: بصيرة في فكر[1]: إن مجال أفكار العقلاء ستة لا سابع لها، وهي:

١. التفكر في استحضار أدلة التوحيد وشواهده الدالة على بطلان الشرك واستحالته، واستحالة ثبوت الألوهية لاثنين، أو التوكل على اثنين، ولا العبادة لإلهين.
٢. التفكر في لطائف صنع الله [التأمل في الكون والمخلوقات].
٣. التفكر في معاني أعمال البشر وأحوال الأمم.
٤. التفكر للتمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي.
٥. التفكر للتميز بين النافع والضار.
٦. التفكر في سبل ما ينفع؛ ليسلكها العبد، وسبل ما يضر فيتركها.

٢. ملكة التدبر: والتدبر ملكة أسمى من ملكة التفكر؛ لأن التفكر هو التأمل في الأشياء فهو كالمقدمات، أما التدبر فهو كالنتائج، فالتدبر في اللغة: من الدبر وهو نقيض القبل، ودبر كل شيء عقبه ومؤخره، فمن دبّر الأمر وتدبره نظر في عاقبته واستدبره: أي رأى في عاقبته ما لم يرَ في صدره، وعرف الأمر تدبرا أي عرفه بآخره، لذلكم فالتدبر في الأمر أن تنظر إلى ما تئول إليه عاقبته: أي أن التدبر هو استمرار التفكر في الأمر حتى ينتهي إلى ما تصير إليه عاقبته، أما تدبير أمور الكون وما يحويه من مخلوقات منها الإنسان فهو أحد مهام الربوبية، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ﴾ [يونس-٣]، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله﴾ [يونس-٣١]، وقد أمرنا الله تبارك وتعالى بالتفكر في جميع آيات الكون وفي المخلوقات، وعندما تعلق الأمر بآيات القرآن الكريم جاء لفظ التدبر وليس التفكر، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد-٢٤]، وفي موضع آخر: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء-٨٢]، قد يظن جاهل باللغة، أو غير عارف بالنَّاسخ والمنسوخ، أو العام والخاص، أو المقيد والمطلق أن هناك اختلافا في آيات

١ بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي ٤: ٢١٢، ننقلها بتصرف، وتلخيص، وتوضيح.

Upload by : altawhedmag.com

القرآن، فإذا أمعن الفكر، حتى وصل إلى مرحلة التدبر، فتراه يدرك الحقائق وينتظم فهمه، ولذلك جاءت الآية القرآنية: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص-٢٩]، واللب هو ما ذكا من العقل.

٣. ملكة الحكم: ملكة الحكم هي بداية تنتهي إلى حصول صاحبها على الحكمة، وهي عبارة عن ملكة يعرف بها صاحبها أفضل الأشياء بأفضل العلوم؛ لهذا يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: رجل حكيم، كما أن الحكمة من أوجهها العدل ووضع الشيء في مكانه وفي موضعه، والعرب تقول: أحكم الأمر أي أتقنه، وأحكمته التجارب، واستحكم الأمر أي وثق، وحكم الشيء وأحكمه معناه: منعه من الفساد، كما تقول حكمت السفيه وأحكمته إذا أخذت على يده، وفي الأثر: " لا حكيم إلا ذو تجربة، ولا حليم إلا ذو عثرة"... ويقول أبو الفرج بن الجوزي: "الحكمة ضرب من العلم يمنع من ركوب الباطل"[1]، والعلم الذي يشير إليه ابن الجوزي هنا هو ما استفاده صاحب التجارب الكثيرة في حياته، بعد أن تأملها، وتفكر فيها، ووصل إلى نتائج وحقائق وثوابت لا تتغير، وبالتالي لا يقع في باطل، ولا يكون له [أي الباطل] مطية أبدا، وقال بعض العلماء: "الحكمة خروج نفس الإنسان إلى كمالها الممكن لها في حدي العلم والعمل، فحينئذ تنال الخلق الذي يسمى العدالة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة-٢٦٩]"... لهذا قلنا: إن ملكة الحكم ليست للجميع، ولكنها عطاء من الله تبارك وتعالى لمن أعمل ملكات عقله تفكرا، ثم تدبرا حتى يصل إلى هذه الدرجة الرفيعة.

٤. ملكة الرشد: ملكة الرشد هي الغاية العظمى في ملكات العقل، والدرجة التي لا تعلوها درجة، قال تعالى على لسان الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن-٢١]، وقال تعالى واصفا عطاءه للخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء-٥١]، والرشد هو الهداية ونقيضه الغي والضلال، ولهذا يقال: استرشد فلان لأمره إذا اهتدى له، والطريق الأرشد هو الأقصر الذي يسرع بك إلى هدفك

---

١ نزهة الأعين النواظر باب الحكمة لأبي الفرج بن الجوزي.

Upload by : altawhedmag.com

ومرادك، والرشيد اسم الحق تبارك وتعالى، وهو الذي أرشد الخلق وهداهم ودلهم على ما يصلحهم، وهو الذي تتابعت تدبيراته إلى غايتها على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا معونة وزير، وملكة الرشد أرقى من ملكة الحكم، فكل رجل رشيد على طريق الله ﷻ، وهدي رسوله ﷺ، ارتقى من صفة الحكمة إلى الرشد، وقد ترى رجلا حكيما عادلا عنده تجارب في الحياة، ولكنه على غير دين الإسلام، إلا أنه لا حظ له في الرشد، ولقد كان من أهداف الرسل والرسالات أخذ أيدي النَّاس إلى طريق الرشاد، يقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة-٢٥٦]، وكذلك قوله: ﴿وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات-٧]، ويقول على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر-٢٩]... وطاعة الله واتباع منهج رسله هو السبيل الموصل إلى الرشد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة-١٨٦].

مما سبق يتبين أن ملكة الرشد فوق كل الملكات من ملكة التمييز بين الحسن والقبيح، وملكة معرفة عواقب الأمور، وملكة الإدراك والتحكم، وكذلك أسمى من ملكات التأمل والتفكر، والتدبر، والحكم؛ لأنها استيفاء لجميع تلكم الوظائف والملكات، وعليها مزيد من النضج والتمام، والتميز بميزة الرشاد والهداية حيث لا نقص ولا اختلال، قال رسول الله ﷺ: ﴿اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي﴾[1].

واعلم أخي القارئ أن هذه الملكات الأربع [ملكات العقل الكسبي] تسمو فوق العقل الوهبي، ولا يرتقي إليها، أو إلى إحداها كثير من النَّاس لذلك سميناها العقل الكسبي، وبقدر ما تستنير هذه الملكات تصبح سمة غالبة على العقل، فإذا صارت الحكمة سجية من سجايا عقل الإنسان يقال له عقل حكيم، كأن هذه الملكة قد سيطرت على جميع ملكات عقله حتى صارت كلها موصوفة بالحكمة.

١ حديث عمران بن حصين، انفرد به الترمذي رقم ٣٤٠٥، وقال: حديث حسن غريب.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الخامس

العقل أصل الدين

بعد أن أخبرنا القرآن الكريم في عشرات الآيات عن: سمات العقل وخصائصه، وأنه نعمة كبرى من شأنها أن تفهم خطاب الحق سبحانه، وتلمح المقصود من الأمر، وقال بعض أهل العلم: "لما أهبط الله تبارك وتعالى آدم إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بثلاثة أشياء: الدين، والخلق، والعقل، فقال: إن الله يخيرك بين هذه الثلاثة، فقال: يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاء إلا في الجنة، ومد يده إلى العقل فضمه إلى نفسه، فقال للآخرين: اصعدا، فقالا: أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، فصارت الثلاثة إلى آدم عليه السلام"[1]. وبغض النظر عن صحة الخبر إلا أنه يدل على مكانة العقل، وأن الدين وحسن الخلق ملازمان للعقل، ويؤكد صحة معنى الخبر أن الشرط الأول بعد الإسلام للقيام بجميع التكاليف الشرعية هو العقل، وبمجرد فقد العقل تسقط جميعا، وقد فهم السلف الصالح أهمية العقل، فيقول مطرف بن الشخير: "ما أوتي أحد من النَّاس أفضل من العقل"[2]، وأن تتفكر في آلاء الله وبدائع قدرته وما أودعه في كونه من الآيات، وأن تتدبر روح هذا الدين ألا وهو الوسطية، وحول هذا المعنى يحدثنا الأستاذ عباس محمود العقاد قائلا:

"فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وَلِيّ، أو صاحب قداسة مطاعة، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل، ويقضي بالحرمان، أو بالنجاة، فليس في هذا الدين كهانة ولا وساطة بين العبد وبين ربه، ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب، ومن سلطان كهانها المتحكمين فيها بأمر الإله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى،... قال عز وجل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة-١١٥]".

---

١ روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ٩

٢ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٨: ٢٤٦، باب ٥٧ - ٢٤٦، أثر ٢٤

Upload by : altawhedmag.com

ويؤكد العقاد على ذات المعنى بقوله: "لا هيكل في الإسلام، ولا كهانة حيث لا هيكل، فكل أرض مسجد، وكل من في المسجد واقف بين يدي الله، ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه الخطاب – بداهة – إلى غير الإنسان العاقل، حرا طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم، كذلك يكون الخطاب في الدين الذي يُلزم كل إنسان طائره في عنقه، ويحاسبه بعمله، فلا يؤخذ أحد بعمل غيره ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر-١٨]، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور-٢١]، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم ٣٩-٤٠].

"فإذا كان في الأديان دين يجتبي ويفضل القبيلة بنسبها، أو يجتبي المرء قبل مولده لأنه مولود فيها، أو كان في الأديان دين يحاسب على خطيئة ليست من عمله، فليس في الإسلام إنسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد، ولكنه الدين الذي يوكل فيه النجاة والهلاك بسعي الإنسان وعمله، ويتولى فيه الإنسان هدايته بفهمه وعقله، ولا يبطل فيه عمل العقل، إن الله بكل شيء محيط، فإن من خَلَق للإنسان العقل لا يسلبه القدرة على التفكير، ولا يسلبه تبعة الضلال والتقصير"[1].

انتهى

فالإسلام دين وسط، يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة-١٤٣]، ونهجه السير على الصراط المستقيم بعيدا عن الغلو والتفريط، لذلك يحتاج ا لمسلم دائما إلى ميزان يزن به كل أفعاله وأقواله ومعتقداته، فيضع المسلم في إحدى كفتي الميزان ما ينوي فعله وفي الكفة الأخرى زنة هذا الفعل في منهج الله تبارك وتعالى، ويسأل نفسه: هل هذا الفعل معروف عند الله أنه حسن؟ فإذا كان كذلك وفعله العبد كان هذا الفعل حسنة للعبد عند الله، وإذا كان الفعل منكرا عند الله ولم يأمر به، بل نهى عنه، فهو فعل قبيح سيئ، فإذا فعله كان هذا الفعل سيئة للعبد وفي صحيفته يوم القيامة، لذلكم أنزل الله تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله الكتاب والميزان، قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن٧: ٩].

١ التفكير فريضة إسلامية لعباس محمود العقاد – مجموعة أعمال العقاد المجلد الخامس: ٢٩٥ – ٢٩٦

Upload by : altawhedmag.com

فمن تعلّم أن يزن أفعاله واستجاب لأمر الله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْـمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء-١٨٢]، ثقلت موازينه يوم القيامة، ومن تهاون في استخدام الميزان في الدنيا هوت رأسه في النار يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة٨-٩]، فالميزان إذن هو العلم والفقه في دين الله ومكانه العقل، وقد صح عن رسول الله ﷺ، أنه قال: ﴿من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين﴾[1]. وقد حث على طلب العلم، فقال ﷺ: ﴿ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة﴾[2]. وتلقي العلم يحتاج لملكات الإدراك والتمييز والتفكر والتدبر حتى يصل العبد للحكمة، فيهتدي إلى الرشد، ولهذا اتفق النَّاس على اختلاف مناهجهم أن العقل هو محل تلقي العلوم، والقرآن يحدد هذا المعنى أيضا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِـمُونَ﴾ [العنكبوت-٤٣].

مما سبق بيانه رأينا أن العقل هو أصل الدين فهو الأداة التي بها يحصل العلم والعلم يسلك بالعبد طريقا إلى الجنة، ويرفعه فيها درجات بقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْـمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة-١١]، فبالعلم يأتي الدليل على صحة الأعمال، وفهم المقصود من الأمر، والعامل على الدليل كالباني على أساس متين، أما من تعبد لله تبارك وتعالى بشيء ليس من جنس ما فرضه الله تبارك وتعالى، أو سنة رسول الله ﷺ، أو ما سار عليه خلفاؤه الراشدون فهو كاذب في دعواه أنه يعبد الله، فكيف يتقرب إلى الله بما لم يأمر به الله ﷻ، وقد حذر الله أمة الإسلام مما فعله اليهود والنصارى، فقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله﴾ [التوبة-٣١]، يقول عدي بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة حتى قرأ هذه الآية، قال: فقلت: يا رسول الله أنا لسنا نعبدهم؟ فقال ﷺ: ﴿أليس يحرمون ما أحل الله

---

١ حديث معاوية بن أبي سفيان متفق عليه رواه البخاري ٦٩، ومسلم ١٧١٩، والدارمي ٢٢٦، ٢٢٨ومالك في الموطإ ١٤٠٠، وابن ماجه في سننه ٩، وأحمد في مسنده ١٦٣٠٥، وحديث ابن عباس وأخرجه الدارمي ٢٢٧، والترمذي ٢٥٦٩، وقال: حديث حسن، وأحمد ٢٥٦٩

٢ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ٤٨٦٧، والترمذي ٢٥٧٠، وقال: حديث حسن، وأبو داود ٣١٥٧، وابن ماجه ٢١٩، والدارمي ٣٤٦، وأحمد في مسنده ٧١١٨، كما رواه البخاري تعليقا في كتاب العلم باب العلم قبل القول والعمل.

Upload by : altawhedmag.com

فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: قلت: بلى، قال رسول الله ﷺ: فتلك عبادتهم ﴾[1].

فمن تعبد لله بشيء ليس عليه دليل من الكتاب والسنة وإجماع الأمة فهو إما متبع لهواه عابد له، أو مقلد لغيره اتخذه كما اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، ولهذا صار العقل أصل هذا الدين، فهو معقل العلم ومركز مذاكرته وتدبره، والله تبارك وتعالى لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه- ١١٤]، وسنفرد بإذن الله فصلا خاصا بالعلم كأساس للسلوك إلى الله ﷻ.

١ حديث عدي بن حاتم أخرجه الطبري في تفسيره ١٠: ٨١، انفرد به الترمذي بين الكتب التسعة رقم ٣٠٢٠، وقال: حديث غريب.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل السادس

معطلات إعمال العقل

وقبل أن ننهي حديثنا حول العقل نود أن نبحث في المعوقات التي تمنع النَّاس من استخدام العقل، فنقول **هناك**:

أولا: معطلات شرعية

هناك معطلات شرعية لاستخدام العقل قررها الدين، وجاءت على لسان سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، فالله ﷻ الذي خلق العقل وجعل له حدودا لا يتعداها كلفه بأشياء ونهاه عن أخرى، أمره أن يعمل بكافة ملكاته في آلاء الله وآياته تدبرا وتفكرا، وعد ذلك من أفضل العبادات، ونهاه عن التفكر في ذات الله تبارك وتعالى، فليس كمثله شيء حتى يستطيع العقل أن يتفكر في مثيله أو نظيره وبالقياس يصل إلى الذات، فهذا باب أغلقه الشرع الحكيم وكان السلف الصالح يؤمنون بما جاء في القرآن الكريم عن الذات الإلهية، فيقول الإمام مالك في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه-٥]، "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"[١].

ومن الموانع التي أمر العقل أن لا يعمل في إطارها قضية القضاء والقدر، فلقد أمرنا بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، أما اعتراض النَّاس على القضاء وقولهم لِمَ كان هذا؟ وما حكمة ذلك؟ فتلك أمور لسنا مطالبين بها، ومن خاض فيها من الأمة تشعبت به الآراء، فمنهم من قال بالجبر، ومنهم من قال بالاختيار، فأهلكوا أنفسهم، والأمر الإلهي في هذا المجال للعقل أن لا يناقش هذه القضايا، فمن التزم فقد اهتدى ونجى، ومن تفلسف ولف ودار دارت عليه الشياطين وأحاطت به، كما أن الخوض في الأمور التي أخفاها الله عنا بنص صريح لا يؤدي إلا إلى الضلال، كالحديث عن الروح، أو خلق السموات والأرض، وكيفية ذلك، فليس للعقل ولا لغيره من عوالم الإنسان أن يقترب منها.

---

١ الأسماء والصفات للبيهقي صفحة ٤٠٨

Upload by : altawhedmag.com

ثانيا: معطلات من صنع البشر

ولنرجع إلى كتاب التفكير فريضة إسلامية للمفكر الكبير الأستاذ العقاد حيث يحدد موانع استخدام العقل قائلا:- "حين يكون العمل بالعقل أمرا من أوامر الخالق، يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله أو خوفا منه، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال، والموانع التي تعطل العقل - من هذا القبيل - كثيرة يستقصيها القرآن الكريم كما استقصى خطاب العقل جميع وظائفه وملكاته، ولكنها قد تتجمع في ثلاثة معطلات كبرى بمثابة الأصول التي تتشعب منها المعطلات المختلفة، فمن سلم منها أوشك أن يسلم من كل معطل يحجر على عقله، ويأخذ السبيل على تفكيره، فلا يهتدي إلى رأي سواه، وأكبر المعطلات في سبيل العقل هي:

١. عبادة الآباء، والأجداد، والأسلاف [التي تسمى بالعرف].
٢. الاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية.
٣. الخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية.

ثم يتحدث الأستاذ العقاد مفصلا كل معطل على حدة، فيقول:

١. **عبادة الآباء والأجداد والأسلاف**: كانت الدعوة الإسلامية تثير حنق أهل الجاهلية على الرسول القائم بها صلوات الله عليه، وأشد ما كان يثير حنقهم من دعوته أنه يسفّه بها أحلام الآباء والأجداد، فقلَّمَا كانوا يقولون في مقام الغضب منه والتحريض عليه: إنه يسفه أحلامنا ويستخف بعقولنا، وإنما كان غضبهم كله منه، وتحريضهم كله عليه، إذ يقولون عنه: إنه يسفّه أحلام آبائنا، ويستخف بعقول أسلافنا، ويقول عن أصول النسب التي يفخرون بها إنها كانت على ضلالة، وكانت لا تعقل ما تصنع من أمور الدين. ثم يستطرد [العقاد] قائلا: وحين يقول الإسلام للإنسان: يجب عليك أن تفتح عينيك ولا تنقاد لما يوبقك مغمض العينين، فكأنه يقول له: يحق لك أن تنظر في شأنك، بل في أكبر شأن من شئون حياتك، ولا يحق لآبائك أن يجعلوك ضحية مستسلمة للجهالة التي درجوا عليها، وإن الإسلام ليأبى على المرء أن يحيل أعذاره على آبائه وأجداده، كما يأبى أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد، وأنه لينعى [يعيب] على

Upload by : altawhedmag.com

الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مئونة الفعل لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة-١٧٠]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف٢٣-٢٤]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة-١٠٤]، ثم يشرح المانع الثاني قائلا:

٢. **الاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية**: فالأمر الذي لا مرية فيه أن التحذير من فساد الكهان والأحبار خليق أن يناسب الخطر الذي يخشى من فسادهم أينما كان، وكثيرا ما كان، وقد بدأ الإسلام بالتحذير الشامل من هذا الفساد فأسقط الكهانة، وأبطل سلطان رجال الدين على الضمائر، ونفى عنهم القدرة على التحريم والتحليل والغفران، ثم نبه إلى سيئاتهم وعاقبة الذين استسلموا لخديعتهم، وكثير منهم خادعون: قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة-٣١]، ثم يشرح المانع الثالث قائلا:

٣. **الخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية**: ويكاد الذين كتبوا في تاريخ العقائد يتفقون على تهوين خطر الحكم المستبد على الضمير الإنساني بالقياس إلى خطر العرف، أو خطر الخديعة من رؤساء الأديان، لأن الحاكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه، ولا يستهويه من باطنه كما يستهويه حب السلف، أو الاسترسال مع القدوة الخادعة من قبل رؤساء الدين. فهو مشكلة مكان لا مشكلة عقل أو ضمير، إما أن ينفضه الإنسان عنه في مكانه، أو يلوذ منه بمكان أمين،... وكثيرا ما يكون الحكم المستبد حافزا للضمير إلى المقاومة محرضا للعقل على الرفض والإنكار،.. ولا يزال الاستبداد على كل حال قهرا للعقل بغير إرادته يترك له الإرادة طليقة للمقاومة، أو الحيلة، أو الخضوع، فهو غير الانقياد للضلال إيثارا له ومحبة للمضلين. فمن هنا كان حق العقل في مقاومته - بحكم

Upload by : altawhedmag.com

الإسلام - كحقه في مقاومة سلطان العرف وسلطان الأحبار، ويزيد عليه أنه يلوم المسلم على الخضوع في مكانه إذا كان في وسعه أن يرحل منه إلى مكان بعيد من سلطانه: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء-٩٧][1].

ثالثا: مصير تعطيل العقل

حدد القرآن الكريم في أكثر من موضع خطورة عدم استخدام العقل، وذكر المبرر الذي يسوقه من يعطل عقله وحواسه التي أنعم الله عليه بها، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ۞ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة١٧٠-١٧١]، وقال كذلك: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال٢١-٢٢]، وفي موضع ثالث يقول عز من قائل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان٤٣-٤٤]، ونصت هذه الآيات وغيرها على أن تعطيل الحواس وعدم استخدامها هو السمة الغالبة على القوم الذين لا يعقلون، فالله ﷻ منح الإنسان سمعا، وبصرا، وقدرة على الكلام والبيان، وحباه عقلا مدركا يستطيع التمييز بين الحسن والقبيح، فوجد طائفة من النَّاس أن طريق الفهم والحجة والدليل والبرهان يتطلب جهدا لتحصيل العلم، فراحوا يبحثون عن الراحة في تقليد الآباء واتباع السادة والأكابر حتى لو كانوا يسيرون على غير هدي سيدنا محمد ﷺ، ومنهم من اتبع هواه واتخذه إلها فعبدوا الله بما لم يشرعه ولم يفترضه على خلقه، ومن فعل ذلك فقد جعل في عبادته شريكا مشرعا مع الله سواء أكان هوى للنفس، أو طاعة عمياء للسادة والكبراء، أو تقليدا للآباء لذا حصر القرآن أسباب دخول النار في أمرين لا ثالث لهما، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك-١٠]، وتقيم هذه الآية الحجة على من عطل السمع والعقل وتذكر أن مصيره السعير.

---

١ التفكير فريضة إسلامية لعباس محمود العقاد - مجموعة أعمال العقاد المجلد الخامس: ٢٩٨ - ٣٠٣

Upload by : altawhedmag.com

وقد حذرنا رسول الله ﷺ تحذيرا واضحا لا تأويل فيه وذلك في حديث جامع يقول فيه حذيفة بن اليمان: ﴿كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية، وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديِي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟، فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك﴾[1].

فالدخن الذي انتشر في سلوك النَّاس كما يصفه رسول الله هو أفعال قوم يهدون بغير هديه ﷺ، تعرف من أفعالهم أشياء تطابق المنهج الصحيح، وتنكر من أفعالهم أشياء تخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة، أشياء ساروا فيها وراء أهوائهم أو قلدوا فيها غيرهم، وعطلوا لذلك سمعهم وأبصارهم وعقولهم، والله مطالبهم يوم القيامة بالدليل والبرهان على صحة أفعالهم من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء-٣٤].

ولكن المؤمنين هواهم تبعا لمنهج الله، ليس لهم طاعة إلا من منهجه سبحانه، فالمشرع عندهم إله واحد، وهم دائما يرجعون إليه ينفذون أوامره ويتقربون بالطاعات له وحده، ويستمعون القول فيتبعون أحسنه، فهم لا يعطلون السمع ولا التمييز، ولذلك سماهم الله أولي الألباب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى الله لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ الله وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر١٧-١٨].

١ حديث حذيفة بن اليمان متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٣٣٣٨، ومسلم في الإمارة ٣٤٣٤، ٣٤٣٥، وأبو داود في الفتن والملاحم ٣٧٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٦٩، وأحمد في مسنده ٢٢١٩٥، ٢٢٢٣٩، ٢٢٣٠٠، ٢٢٣٣٣، ٢٢٣٣٥، ٢٢٣٥٢

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب السابع

- عوالم البشر متعددة ومؤهلة للتعامل مع كل شيء، وتسخير كل ما في الأرض من شيء، وإذا سلكت الصراط المستقيم استطاعت أن تتعرف على الله ﷻ بكافة الأسماء والصفات.
- جعل الله تبارك وتعالى سعادة الدنيا والآخرة في أمرين تلازما في القرآن الكريم عشرات المرات، هما: الإيمان بالله، والعمل الصالح.
- النفس لفظ مشترك بين عدة معاني، ولهذا يختلف استخدام اللفظ حسب الموضوع الذي وردت فيه.
- إن النفس هي محل التكليف الذي لا يكون إلا على قدر اتساع كل نفس، وعلى قدر ما آتاها الله من هذا الأتساع ومن العطاء، **وإذا عرف** الإنسان نفسه، وأدرك قدرها، فقد حاز الخير.
- إن النفس تخفي شهواتها ولا يطلع على خباياها إلا الله تعالى، إلا أن معاصي اللسان والفرج شيء ظاهر، وإن أخفاه صاحبه.
- لم يترك الله تبارك وتعالى الإنسان منفردا ضعيفا لنفسه ، بل أنار الله تعالى له الطريق.
- إذا تأملنا آيات القرآن الكريم وجدناه يخاطب النفس بصور متعددة.
- إن العقل هو القوة المتهيئة لقبول العلم، والوسيلة التي يستخدمها الإنسان للوصول إلى ما يحتاجه، وإن ثمرة العقل فَهْم الخطاب.
- إن التفكر فريضة في الإسلام نصت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل هو الغاية المرجوة من الدين كله، كما حث الله تبارك وتعالى عباده على إعمال الفكر.
- الدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وَلِيّ، أو صاحب قداسة مطاعة، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده ولا وسيط يملك التحريم والتحليل، ويقضي بالحرمان، أو بالنجاة.
- هناك معطلات شرعية لاستخدام العقل قررها الدين، ومعطلات من صنع البشر.
- حدد القرآن الكريم في أكثر من موضع خطورة عدم استخدام العقل، وذكر المبرر الذي يسوقه من يعطل عقله وحواسه التي أنعم الله عليه بها.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الثامن

القلب

وسلوكه لمولاه

١. تعريف القلب

٢. تقسيم القلوب

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

بعد أن تحدثنا عن الجسد والنفس والعقل كثلاث عوالم للإنسان، جاء دور الحديث عن القلب، والقلب يحوطه الصدر من الناحية التشريحية، التي توافق قول الحق سبحانه حيث قال: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج-٤٦]، وإذا كان القفص الصدري يمثل الحماية التي تصون القلب، وتمنع عنه أي خطر يأتي من خارج الجسم، فإنه يسمى أيضا من حيث السلوك صدرا؛ لأنه أول مقام القلب كصدر النهار الذي هو أوله، والصدر ينشرح بالتوحيد والطاعات، ويضيق بالشرك والمعاصي والوساوس، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام-١٢٥]، فهو محل للحرج والضيق، قال تعالى مخاطبا النبي ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود-١٢]، وقوله على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء١٢-١٣]، والصدر محل الحرج أيضا، قال تعالى: ﴿فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف-٢]، والصدر أيضا موضع الغل، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف-٤٣، الحجر-٤٧]، ومحل للكبر أيضا، قال تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر-٥٦]، وشفاء الصدور من الغل وغيره من الأمراض يكون باتباع الموعظة الربانية من كتابه وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس-٥٧].

كما أن الشيطان ينفث بوسوسته في صدور النَّاس، قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [النَّاس٥- ٦]، وهذا ابتلاء من الله ليمحص العبد ويجزيه على مجاهدته لنفسه وهواه، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ الله مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، والقلب يتلقى عن الصدر ما عقد عليه النية، فيجيء دور التمحيص، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران-١٥٤]، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ [الإسراء-٣٦]، وقبل أن نتحدث عن أنواع القلوب، وكيف يعرج القلب من أحط

Upload by : altawhedmag.com

الدركات إلى أعلى الدرجات، يجب أن نشير أولا إلى منزلة القلب نفسه بين عوالم الإنسان المختلفة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إن القلب في الإنسان كالمَلِك بين الرعية، وكالسيد بين أتباعه، وبهذا وردت أحاديث رسول ﷺ التي يقول فيها: ﴿الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما مُشَبَّهات، لا يعلمها كثير من النَّاس، فمن أتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب﴾[1]

نتعلم من هذا الحديث الحقائق التالية..

- أن القلب هو السيد والملك وباقي الجسم تابع له، فإذا صلح الآمر صلح المأمور وإذا فسد الراعي فسدت الرعية.
- أن صلاح القلب بمعرفة الله وطاعته فيما أمر ونهى، وبالابتعاد عن الشهوات والمشبهات.
- أن فساد القلب يترتب على انتهاك محارم الله، ومن تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود، وصدق الشاعر حيث يقول:

رَأيْتُ الذُّنُوبَ تُميتُ القُلُوبَ وقَدْ يـورِثُ الذُّلَّ إدْمانُهَـــا
وتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَـاةُ القُلوبِ وخَيرٌ لِنَفسِك عِصْيَـانُهَـــا
وهَـلْ أفْسَـدَ الدّيـنَ إلّا المُلُـوكُ وأحْبَارُ سوءٍ ورُهْبَـانُهَا

وقبل أن نتحدث عن القلوب، وما يُصلحها، وكيف يكون فسادها؟ نستعرض الآتي:

١ حديث النعمان بن بشير متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الإيمان حديث ٥٠، ومسلم في المساقاة ٢٩٩٦، والترمذي ١١٢٦، والنسائي ٤٣٧٧، ٥٦١٤، وأبو داود ٢٨٩٢، وابن ماجه ٣٩٧٤، وأحمد ١٧٦٢٤، ١٧٦٤٥، ١٧٦٤٩، والدارمي في سننه ٢٤١٩.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

تعريف القلب

القلب: عكس القالب، فهو بمنزلة اللب من القشرة، والقلب: هو تحويل الشيء عن وجهه، وقلّب الأمور بحثها ونظر في عواقبها، وتقلب في الأمور وفي البلاد أي تصرف فيها كيف شاء، ويقول الليث: جئت هذا الأمر قلبا أي محضا لا يشوبه شيء.

وقد كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: ﴿يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله ﷻ يقلبها﴾[1].

وقد يعبر بالقلب عن العقل، فالعرب تقول: ما قلبك معك؟ وما لك قلب؟، وأين ذهب قلبك؟ وهم يقصدون عقلك، ولهذا نجد القلب في وصفه مشترك مع العقل في ملكات، فتقليب الأمور والنظر في عواقبها والتصرف بين البدائل من سمات العقل [كما سبق بيانه في فصل ملكات العقل]، ومع هذا يوصف القلب أيضا ببعض هذه الأوصاف، مما دعا كثير من العلماء إلى اعتقاد التداخل في مهمة كل من العقل والقلب.

والقلوب في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: الروح أو النفس، بقوله تعالى ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب-١٠]، فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها؛ كما قال أمرؤ القيس:

أغركِ مني أن حبكِ قاتلي وأنكِ مهما تأمري القلب يفعلِ

الثاني: العقل في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق-٣٧]، أي لعبرة، ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: أي -والله تعالى أعلم- لب يعي به، وقال مجاهد: عقل، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: أي استمع الكلام فوعاه، وتعقله، وعقله، وتفهمه بلبه، وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾: يعني لا

---

١ أخرجه أحمد في مسنده: ١٣٢٠٠، ١١٦٦٤، ٢٥٣٦٤

Upload by : altawhedmag.com

يحدث نفسه في هذا بقلب، وقال الضحاك: "العرب تقول ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب"، ويقول القرطبي: أي عقل يتدبر به؛ فكُنّي بالقلب عن العقل لأنه موضعه؛ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف-١٧٩]، وقد ورد في كتب التفسير أن الله تعالى وصفهم، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي – والله أعلم- بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا، وقيل: يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله﴾ [الأحقاف-٢٦]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة-١٨]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة-١٧١]، ولم يكونوا صما ولا بكما ولا عميا إلا عن الهدى، وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر-١٤]، أي –والله أعلم- آراؤهم مختلفة.

الثالث: حقيقة القلب الذي في الصدر كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج-٤٦].

وإذا أردنا أن نعرف أقسام هذه القلوب التي في الصدور، فإننا نجد حذيفة بن اليمان يجيبنا بما سيلي:

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

تقسيم القلوب

قسم الصحابة رضوان الله عليهم القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان ﷺ في قوله: "القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس وذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمى، وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما"[1]، هذا التقسيم جعل القلوب أربعة أقسام، ويمكن ضم القسم الثاني مع الثالث فيكون تلك التقسيم كما يلي:-

- **قلب أجرد:** أي متجرد مما سوى الله ورسوله، فقد تجرد لله بسلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، ثم أن فيه سراج يزهر، وهو سراج الإيمان، ونور العلم.
- **قلب الكافر:** ويمكن أن نضم إليه أيضا قلب المنافق حيث أن قلب المنافق أشد خبثا من قلب الكافر، فهو يظهر الإسلام ويبطن الكفر.
- **قلب تمده مادتان:** لم تتمكن إحداهما فتستولي على القلب بالكلية، فتارة يكون للإيمان أقرب، وتارة يكون للكفر أقرب، والحكم للحال الغالب على القلب.

ونوضح فيما يلي أنواع القلوب وصفات كل منها، فنقول وبالله تعالى التوفيق:-

أولا: صفات قلوب المؤمنين

جاء وصف قلوب المؤمنين في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بصفات عديدة أول هذه الصفات الطُّهر، فشهادة التوحيد تطهر القلوب من رجس الوثنية ومن دنس الشرك، فإذا أقرت القلوب بالإيمان بـ"لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله" كان في ذلك حياتها ونورها، فإذا قام العبد بالطاعات صُب في قلبه أنوارها، فازداد لينا، وخشوعا، وإخباتا، ووجلا لله رب العالمين، ويصفها الحق بما يلي:

---

١ حديث أبي سعيد الخدري، انفرد به أحمد من بين الكتب التسعة حديث ١٠٧٠٥

Upload by : altawhedmag.com

* الطُهـر: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب-٥٣]، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة-٤١].

* الربـط: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف-١٤]، والربط هنا التثبيت وحفظ الإيمان.

* اللـين: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله﴾ [الزمر-٢٣].

* الخشوع: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله﴾ [الحديد-١٦].

* الوجـل: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج-٣٥].

* الإخبات: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج-٥٤]، وكلما ازداد تمسك العبد بمراد ربه سارع بالقيام بشعائر الله عبودية وتعظيما، وأصبحت طاعته والتزامه بالأوامر واجتنابه للنواهي مظهرا من مظاهر تقوى القلوب.

* التقـوى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج-٣٢].

* التـآلف: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال-٦٣]، فحين يجتمع الطائعون في بيوت الله معظمين لشعائر الله، وقلوبهم منيرة بأنوار الإيمان متصفة باللين والخشوع لله رب العالمين، فإذا ذكروا الله وجلت قلوبهم، ومنَّ الله عليهم، وجمع بين قلوبهم محبة في الله، فتتآلف القلوب في الدنيا كما تآلفت الأرواح في الملإ الأعلى، وكلما ازداد رُقي القلب زاد نوره حتى يطمئن بالله تعالى، فإذا استقر اطمئنان القلب بربه، وازداد معراجه على سلم السلوك إلى علام الغيوب، يصل القلب إلى مقام القلب السليم.

* الإنـابة: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [سورة ق-٣٣].

* الطمأنينة: ﴿أَلا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد-٢٨]، فإذا اطمأن القلب بالله، وفي نفس الوقت كان خاشيا لله ﷻ دائم الإنابة له، فقد اجتمع في القلب الخوف والرجاء، وتساويا واعتدلا، فأصبح القلب في سلوكه سليما.

* السـلامة: يقول سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء-٨٩]، هو الذي سَلِمَ بالتوحيد فنفى الشركاء، وسَلِمَ بالتنزيه فنفى الشبيه والنظير، وسَلِمَ بالإخلاص من أن يكون قاصدا في عبادته إلا وجه الله، وسَلِمَ بالعلم من ظلمات الجهل، فأصبح الإخلاص والمعرفة

Upload by : altawhedmag.com

للقلب عملا، وروي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: ﴿أنا أعلمكم بالله﴾[١]، ولما كانت المعرفة فعل القلب، فإن القلب السليم هو صاحب المعرفة الصحيحة، "أي أنه القلب الذي سَلِمَ من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، فَسَلِمَ من عبودية ما سواه، وسَلِمَ من تحكيم غير رسوله ﷺ، فَسَلِمَ في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده"[٢].

ويستطرد ابن القيم حديثه قائلا: "قال بعض السلف: ما من فعلة - وإن صغرت - إلا وينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟، أي لِمَ فعلت؟، فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه، هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من النَّاس، أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى، وابتغاء الوسيلة إليه؟ ومحل هذا السؤال: أنه، هل قصدت أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟ والثاني: سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد، أي: هل كان ذلك العمل مما شرعه الله ﷻ على لسان رسوله ﷺ، أم كان عملا لَمْ يشرعه ولم يرضه؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الأتباع، فبالإخلاص والمتابعة يصل المرء إلى سلامة القلب التي ضمنت له النجاة والسعادة"[٣]، وبعد عرضنا لوصف ابن القيم للقلب السليم تأكد لنا دقة وصف حذيفة بن اليمان حين قال: هو قلب أجرد فيه سراج يزهر.

---

١ رواه البخاري تعليقا في باب قول النبي ﷺ: ﴿أنا أعلمكم بالله﴾، وأن المعرفة فعل القلب ١: ٥٩

٢ إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية ١: ٩

٣ إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية ١: ١٠

Upload by : altawhedmag.com

ثانيا: صفات قلوب الكفار والمنافقين

ذكر القرآن الكريم ما يربو على العشرين صفة، وصف بها قلوب الكافرين والعصاة والمنافقين، وكل صفة جاءت في أكثر من موضع، فإذا استعرضنا هذه الصفات لوجدنا أن هناك نوع من التدرج فيها، فأقل هذه الصفات كفرا ونفاقا أن تراهم في:

* الغفلة: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف-٢٨].
* اللَّهو: ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء-٣].
* الريبة: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة-٤٥]؛ فالغفلة عن ذكر الله جعلت قلوبهم لاهية، ولما حلت ظلمات الغفلة واللهو في القلوب أصبح للريب والشك مكان متسع، وهذا الشك أورثهم الصفات التالية:
* الغيظ: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران-١١٩]، ويقول جل شأنه: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة-١٥].
* الضيق: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام-١٢٥].
* الزيغ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف-٥]، هذا الشك ملأ قلوبهم غيظا فزاد ظلامه، وازداد الصدر ضيقا، فزاغوا عن الحق حتى صار ذلك الزيغ سجية في قلوبهم، هذا الزيغ أوصلهم إلى:
* الإنكار: ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل-٢٢].
* الحمية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح-٢٦].
* الانصراف: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ الله قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة-١٣٧]، لما أنكرت قلوبهم وصفها الله بأنهم مستكبرون، وفي قلوبهم حمية، فالإنكار، والاستكبار، والحمية، جعلتهم ينصرفون عن الحق ذلك بأنهم قوم لا يفقهون.
* القسوة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة-٧٤].

Upload by : altawhedmag.com

* غمـــرة: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون-٦٣]، وكلما ازدادت صفات القلب إظلاما جاءت الأوصاف أكثر دلالة، فها هي قلوبهم أقسى من الصخر، وذلك لمرضها وسقطها وبعدها عن الإيمان، وسيرها في طريق الضلال، فهي في غمرة، والغمرة هي الماء الكثير المغرق، كأن القلوب غرقت في بحار اللهو، والغفلة، والحيرة، والضلال، فإذا نظرت إلى هذه القلوب وقد امتلأت بالظلام رأيت آثار ذلك على القلوب من الخارج أيضا، فمن ثم جاءت صفات:

* الـريـــن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين-١٤].

* الطبـــع: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف-١٠١].

* الغلـــف: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة-٨٨].

* الخـتـــم: ﴿خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة- ٧].

* أكـــنـــة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف-٥٧].

هذه الآثار تبدأ بالرين إذا ازداد، طبع الله على هذه القلوب، فهي في غلاف مختوم، فجاء وصف الأكنة وهي الحجب الكثيفة الحائلة بين القلب وبين الهدى، وهذه الصفات تدل على أن مرض هذه القلوب صار خطيرا لا شفاء له وأصبح الشفاء أملا بعيدا، فكل الدلائل والمؤشرات توضح قرب النهاية، فالظلام عم القلب وصار داخله وخارجه، ومن ثم جاء الوصف التالي:

ثالثا: القلب الميت

هو الذي لا حياة فيه، وكما أن الأجسام تمرض وتموت، فكذلك القلوب تمرض بالجهل وتموت بالكفر والنفاق، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْـمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [الروم-٥٢]، ومن علامات موت القلوب أنها تعمـــى عن رؤية الحق: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج-٤٦]، فمن عظم جهلها أنكرت

Upload by : altawhedmag.com

وجود الله ﷻ، أو وصفته بغير ما وصف به نفسه، وربما ادعت أن له شريكا في ملكه وأنه اتخذ صاحبة أو ولدا، ومن أمراض القلوب أيضا وصف الحق تبارك وتعالى بصفات المخلوقين، وربما وصفت قلوب أخرى المخلوقين بصفات الخالق، فادعت للبشر صفات هي لله الواحد الأحد الفرد الصمد، فهي بذلك أشركت في صفات الله ﷻ، فجعلت له شركاء في صفاته وهذا جهل بالتنزيه، كل هذه الضلالات لها دلالة واحدة أن هذه القلوب ماتت ولا حياة فيها.

هذا من ناحية الاعتقاد، أما من ناحية التعامل مع الدنيا، فالقلب الميت واقف عند شهواته تملكته الدنيا فأصبح أسيرا لها، استذله الهوى فصار عبدا له، واحتنكه الشيطان فصار تابعا وخادما، صادق عدوه [الشيطان]، واتخذه وليا ونصيرا، وبالتالي أصبح لا يبالي إذا رضي به أو سخط، فهو عابد لشيطانه في الحقيقة، إن أحب أحب لهواه، وإن تحرك تحرك لهواه، وإن أعطي، أو منع، أو وصل، أو قطع فما فعل ذلك إلا لهواه، فإذا أردت أن تصف سلوكه في دنياه لوجدته سائر والهوى أمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه ودليله، والغفلة مركبه، والذل والهوان مورده، والخزي نهايته، والنار مستقره ومنزله، ولذلك يقول صاحب الحِكم:-

- موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح في معاصي الله.
- وسبب حياة قلبه ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.
- وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فُعِل من الزلات، وصحبة الغافلين الأموات.

وذلك لأن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة، وصدور المعصية علامة على الشقاوة، فإن كان القلب حيا بالمعرفة والإيمان آلمه ما يوجب شقاوته، وأفرحه ما يوجب سعادته، أو تقول: صدور الطاعة من العبد علامة على رضا مولاه، وصدور المعصية علامة على غضبه، فالقلب الحي يحس بما يرضيه عند مولاه فيفرح، وما يسخطه عليه فيحزن، والقلب الميت لا يحس بشيء، قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية، لا يفرح بطاعة ولا موافقة، ولا يحزن على زلة ولا معصية، كما هو شأن الميت في الحس، وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: ﴿من سرته حسنته وساءته

Upload by : altawhedmag.com

سيئته فذلكم المؤمن﴾[١]، وقال عبد الله بن مسعود: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فطار"[٢]. ومن كان هذا حاله فقد حذرنا القرآن الكريم والسنة المطهرة عن صحبة أمثاله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام-٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة-١٣].

وجاء التحذير الشديد حتى لا يركن أهل الإيمان لأهل الظلم في قوله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ [هود-١١٣]، وقد أمرنا رسول الله ﷺ بمصاحبة الصالحين والابتعاد عن جليس السوء في الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك[٣]، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة﴾[٤].

"وكان الحسن البصري لا يتمثل ببيت من الشعر إلا هذا البيت

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

ثم قال: صدق والله: إنه ليكون حيا وهو ميت القلب"[٥].

وسئل إبراهيم بن أدهم فقيل له: "يا أبا إسحق إن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر-٦٠]، ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا؟ فقال: ماتت قلوبكم في عشرة أشياء:

أولها: عرفتم الله، ولم تؤدوا حقه.

---

١ حديث عمر بن الخطاب، أخرجه الترمذي في الفتن ٢٠٩١، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه أحمد ١٠٩

٢ حديث عبد الله بن مسعود موقوف، أخرجه البخاري ٥٨٣٣، والترمذي ٢٤٢١، وأحمد ٣٤٤٦، ٣٤٤٨

٣ الحذوة: العطية والمنحة.

٤ حديث أبي موسى الأشعري متفق عليه، أخرجه البخاري ١٩٥٩، ومسلم ٤٧٦٢ واللفظ له، وأبو داود ٤١٩١، وأحمد في مسنده ١٨٧٩٨

٥ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في الأحاديث والآثار ٨: ٢٥٨ باب ٦٢ حديث ٣٣

Upload by : altawhedmag.com

والثاني: قرأتم كتاب الله، ولم تعملوا به

والثالث: ادعيتم محبة رسول الله ﷺ، وتركتم سنته.

والرابع: ادعيتم عداوة الشيطان، ووافقتموه.

والخامس: قلتم نحب الجنة، ولم تعملوا لها

والسادس: قلتم نخاف النار، ورهنتم أنفسكم لها.

والسابع: قلتم إن الموت حق، ولم تستعدوا له.

والثامن: اشتغلتم بعيوب إخوانكم، ونبذتم عيوبكم.

والتاسع: أكلتم نعمة ربكم، ولم تشكروها.

والعاشر: ودفنتم موتاكم، ولم تعتبروا بهم".

رابعا: القلب المريض

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة-١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة-٥٢]، وإذا رجعنا إلى وصف حذيفة بن اليمان ﷺ عن القلب المريض الذي يقع بين القلب السليم والقلب الميت لوجدناه يقول: "هو قلب تمده مادتان، مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منها"، ويشرح ابن القيم ﷺ هذا الوصف قائلا: "ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به والإخلاص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو، والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين، داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا، وأدناهما إليه جوارا، فهذا القلب إما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى"[1].

١ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية ١: ١١

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الثامن

- إن القلب في الإنسان كالمَلِك بين الرعية، وكالسيد بين أتباعه، وباقي الجسم تابع له، فإذا صلح الآمر صلح المأمور وإذا فسد الراعي فسدت الرعية.
- إن صلاح القلب بمعرفة الله وطاعته فيما أمر ونهى، وبالابتعاد عن الشهوات والمشبهات.
- إن فساد القلب يترتب على انتهاك محارم الله، ومن تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود،
- قسم الصحابة رضوان الله عليهم القلوب إلى أربعة: قلب أجرد، وأغلف، ومنكوس، وقلب تمده مادتان.
- كما أن الأجسام تمرض وتموت، فكذلك القلوب تمرض بالجهل وتموت بالكفر والنفاق.
- وسبب حياة القلب ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.
- موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح في معاصي الله.
- وعلامة موت القلب ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فُعِل من الزلات، وصحبة الغافلين الأموات.

Upload by : altawhedmag.com

الباب التاسع

العلاقة

بين عوالم الإنسان

١. علاقة الروح والعوالم الأخرى

٢. علاقات القلب السليم

٣. علاقات القلب الميت

٤. علاقات القلب المريض

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

علاقة الروح والعوالم الأخرى

قلنا إن الإنسان يتكون من خمس عوالم هي الجسد، والنفس، والعقل، والقلب، والروح، وتحدثنا عن كل عالم من هذه العوالم على حدة، ولكن هذه العوالم متداخلة، وبينها ارتباط وثيق، وليس لأي عالم منها أن ينفرد بفعل أو قرار، وإنما الفعل للإنسان ككل فكيف تتعامل هذه العوالم بعضها البعض؟ وأين دوائر التداخل؟

ونبدأ أولا ببيان علاقة الروح بباقي عوالم الإنسان، فنقول: إن الروح كالشمس التي تُنير باقي عوالم الإنسان، وبالتالي تنبعث الحياة فيها.

- فإشعاع الروح على القلب يجعله دائم الخفقان، ومن الناحية التشريحية يمد البطارية الموجودة في الأذين الأيمن Pacemaker بالطاقة، وبالتالي تنقبض عضلة القلب، ويتحرك الدم، ويتدفق خلال العروق والشرايين إلى باقي أعضاء الجسم، ومنها الحواس.
- وإشعاع الروح على العقل حيث يمده بالطاقة التي تُصدر الشحنات الكهربية التي تقود الجهاز العصبي، وتبعث الحياة في خلايا المخ كما يمدها القلب بالغذاء من الدم أيضا -وغذاء خلايا المخ هو الأكسوجين والجلوكوز-، وبالتالي تستمر في عملها، ويعمل أيضا الجهاز العصبي، فيصل بين الحواس وخلايا المخ.
- كما أن إشعاع الروح على خلايا الجسم يبعث الحياة في النفس، فتتحرك الشهوات، أما إذا غربت الروح عن الجسد بالموت، فإن النفس تذوق ألم مفارقة إشعاع الروح لكل خلية من خلايا الجسم، وتتوقف الشحنة الكهربية التي تنبعث من خلايا الجهاز العصبي التي تصدرها خلايا المخ، وعندما يحين أجل المرء يأمر الحق تبارك وتعالى ملك الموت بقبض الروح، فيقوم ملك الموت مع أعوانه بقبض الروح عن الجسد.

وليس الموت حجبا لشعاع الروح عن عوالم الإنسان فقط، وإنما يصاحبه أمر بتوقف القلب عن الخفقان، وتوقف للنبضات الكهربية الصادرة من المخ إلى الجهاز العصبي، فبتمام هذه الأمور الثلاثة يموت المرء وتحدث له الوفاة.

Upload by : altawhedmag.com

ومن المعروف أن القلب إذا توقف عن الخفقان خمس دقائق، فإن الدم الذي يحمل الأكسوجين والجلوكوز لا يصل إلى المخ، وبالتالي يصاب المخ بخلل مدمر، فخلايا المخ ليست من النوع الذي يتجدد، أو يتكاثر فينتج بدلا من التالف، بل إن ما يتوقف في خلايا المخ عن العمل، لا يعود مرة أخرى، وحيث أن كل خلية من خلايا المخ لها تحكم وسيطرة على أحد أجهزة الجسم، فإن خللا ما يصيب الجسم بتوقف خلايا المخ، وقد نجح الإنسان في تشغيل قلب بعض المرضى بالصدمات الكهربائية، كما أمكن تشغيل حالات فشل التنفس باستخدام أجهزة Ventilator وهي عبارة عن مضخة خارجية تقوم بتشغيل الرئتين لتنقية الدم، حتى يتم ضخه بواسطة مضخة القلب، فيصل الدم إلى أجهزة الجسم. وبإيقاف هذا الجهاز عن العمل يتوقف إمداد الرئة بالأكسوجين، وبالتالي يضخ القلب دم فاسد فيحدث اختناق للمريض، يؤدي إلى وفاته نتيجة لفشل جهازه التنفسي.

- **سعادة الروح وانعكاس ذلك على العوالم الأخرى:**

وخلال الحياة تعيش الروح كل ما يحدث مع صاحبها، وتعيش معه لحظات نهاره، تسعد بطاعته لمولاه، ولكونها خلق لطيف خلق في الملإ الأعلى فهي دائما تحن إلى موطنها، وتسعد بكل طاعة تقرب صاحبها من هذا الموطن، ويكون تأثير سعادتها أن يشعر صاحبها أنه خفيف الحركة يمشي على الأرض هونا، كأن وزنه أخف، وحركته على سطح الأرض ألطف، كما تنعكس سعادتها على صفاء العقل، وانشراح الصدر، واطمئنان القلب.

Upload by : altawhedmag.com

- **حزن الروح وانعكاس ذلك على العوالم الأخرى:**

يتحول حال الروح إلى حزن إذا اقترف صاحبها ما يغضب مولاه، فتشعر بالثقل والتثاقل إلى الأرض، والبعد عن موطنها، فيصاب العقل بالتشتت والخمول، والصدر بالضيق والحرج، والجسد بالتثاقل والخمول والقلب بالسقم.

وعندما ينام المرء تعرج روحه إلى خالقها وتسجد تحت العرش، وتسعد بالعودة إلى موطنها، وتكون في نفس الوقت محتفظة بضيائها لعوالم الإنسان، وما تراه في عالم الغيب تعكسه في الرؤيا في نفس صاحبها، وترسل له الرسائل التي تحملها عمن قابلته من الأرواح خلال معراجها اليومي، وإذا قضى الله تبارك وتعالى موت النائم، فإنه يمسك الروح عنده في الملإ الأعلى، فيموت صاحب الروح من فوره، ومن كتبت له الحياة عادت إليه روحه.

وبعد أن تعرفنا على علاقة الروح بباقي العوالم، فإننا نستعين بالله ﷻ لبيان علاقة باقي العوالم بعضها مع بعض.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

علاقات القلب السليم

لقد ابتلي الإنسان بالدنيا ليعبر خلالها حتى يصل إلى الآخرة، ومُلئت الدنيا بالمتاع وتعددت صوره، والتي منها صور حسية وأخرى معنوية، وقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان، وخلق له جسدا من نفس العناصر التي خلق منها المتاع، كما أمده بحواس تشعر وتتذوق هذا المتاع، فإذا علمنا أن هذه الحواس متصلة بمراكز المخ من خلال الجهاز العصبي، فكأنما الدنيا بما فيها أصبحت قِبله للحواس: فالعين تشاهد وتراقب صور الجمال المرئي، والأذن تستقبل صور الجمال السمعي، وكذلك الذوق، واللمس، وحاسة الشم، كل هذه الحواس تتعامل مع صور متاع الحياة الدنيا وتصب كل هذه المشاهدات في العقل، فكأنما الحواس هي آلات إدخال معلومات إلى الذهن البشري الذي يحتفظ بذاكرة تتكون من مجموعة هائلة من الخلايا التي تخزن هذه المعلومات، وتجعلها تحت تصرف الإنسان.

ولما كان القلب هو سيد عوالم الإنسان لذا كان موقعه متوسطا بين العقل وبين النفس، وبافتراض أن التحكم المركزي في النفس من خلال المركز السيكولوجي الموجود في المخ، فإن هناك قناة اتصال مباشر بين العقل والقلب والنفس، وكل قناة تمد القلب بمادتها، فالعقل يُلقي نتاج استخدام ملكاته السابق بيانها، والنفس تُلقي في القلب احتياجات شهواتها ورغباتها تبعا لميل الهوى، والصدر ينقل وسوسة الشيطان بالقبيح والمنكر، فتجتمع في القلب كل هذه الأمور.

والقلب السليم مرجعه انقياده لنور الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات-٧]، وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة-٢٢]، وسعادة العقل بمعرفة الله رب العالمين بصفاته العلا وأسمائه الحسنى، والدلائل على وجوده، ووجوب تنزيهه بالعلم المعقول، وباستقرار توحيده في القلب، وقد حددت الرسالات التي جاء بها الأنبياء المنهج والتكاليف المطلوبة، ووصفت الحَسَن والقبيح، وميزت بين المعروف والمنكر، فقام العقل بدوره ووضع وحدات القياس والتمييز موضع التنفيذ كما جاءت على لسان رسول الله ﷺ.

Upload by : altawhedmag.com

● **مقاومة القلب لرغبات النفس:**

فكلما شاهدت الحواس من متاع الدنيا، وتعرفت على صور الذنوب والآثام نظر العقل إليها واستخدم وحدات القياس التي حددها الدين وأضاف إليها باقي معايير التقييم الخمسة التي ذكرناها سابقا، فيميز بين ما ينفعه في آخرته وبين ما يضره، مستخدما ملكة معرفة عواقب الأمور، ثم يقوم العقل بإمداد القلب بمادة غزيرة واضحة منيرة لا ريب فيها ولا شك ولا زيغ، فإذا كان في النفس بقية من شهوة فإنها تمد القلب بمادة إرادتها، فيعود العقل مشيرا بالفكر ومستخدما لملكات التدبر، والحكمة، والرشد، فيجد القلب نفسه مجذوبا ناحية قوة الجذب الأكبر وهي العقل، هذا بالإضافة إلى اعتياد القلب أن ينهى النفس عن هواها، كما أنه إذا وسوس الشيطان وسول للنفس رأيا، وحاولت النفس الأمارة بالسوء إلقاءه في القلب كظلمات وخواطر زينها الشيطان، نجد القلب -في حال ذكر الله ﷻ، وعندما يأتيه قياس العقل بما يُعقّل النفس ويردها عن هواها- لا يلبث أن يتخذ رأيا لا رجعة فيه، يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْـمَأْوَى ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْـمَأْوَى﴾ [النازعات٣٧: ٤١].

فإذا استقر عزم القلب انتقل من مرحلة الإرادة للتنفيذ، فيتحرك الدم إلى الجوارح والعضلات بموجب تعليمات من العقل مطابقة لما استقر عليه القلب، لهذا كان القلب كالملك، والعقل كالوزير يشير على مولاه، فإذا استقر قرار الملك على شيء معين فإن الوزير هو الذي يأمر بالتنفيذ، وبمجرد عقد النية الصالحة في القلب وجبت الحسنة من الله تبارك وتعالى، فإذا قام العبد بطاعة ربه نكتت في القلب أنوار تلك الطاعة حتى يصبح القلب منيرا في ذاته، مستعينا بأنوار العقل والعلم، ولذلك جاء الوصف القرآني: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور-٣٥]، ويحدثنا حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: ﴿تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض

Upload by : altawhedmag.com

مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا[١]، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أُشرب[٢] من هواه﴾[٣].

ويذكر الإمام النووي شرحا لهذا الحديث عن القاضي عياض، فيقول ما موجزه: "إن الفتن تعرض على القلوب كما تعرض الأعواد على ناسج الحصير، حيث يأخذها عودا عودا وكلما صنعه أخذ آخر، فأي قلب أُشربها أي دخلت الفتنة فيه حلت منه محل الشراب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة-٩٣]، أي حب العجل، فمتى أحب القلب الفتنة نكتت فيه نكتة سوداء، حتى يغلب عليه السواد، وهو معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه، والربدة غلبة السواد على البياض، فالأسود المربد أي الذي غلب عليه السواد وقوله كالكوز مجخيا أي قلب منكوس، أي المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه، فهذا وصف للقلب غلب على لونه السواد، ونُكس فسكب ما فيه من الأنوار، فأصبح لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما بقي من هواه وشهواته، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: "هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر"، أما القلب الذي رد الفتنة وأنكرها لا يتعلق به الظلم لشدة إيمانه وسلامته من الخلل، والفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه، كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، فصار القلب متصفا بالبياض من شدة نوره ﴿فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض﴾، وبهذا ختم النبي ﷺ حديثه عن القلب السليم.

١ مجخيا: مائلا منكوسا.

٢ أشرب: أي دخل حبه في قلبه، والمراد أنه تغلغل في ثنايا القلب، كما تتشرب التربة بالماء.

٣ حديث حذيفة بن اليمان أخرجه مسلم باب الإيمان - ذكر الفتن ٢٠٧، وأحمد في مسنده ٢٢١٩٣، ٢٢٣٤٣

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

علاقات القلب الميت

إذا كان القلب ميتا فإن ذلك يكون نتيجة لطغيان وارد النفس وقوة ميلها لأهوائها، فإذا تعاملت الحواس مع الدنيا وصبت مشاهدتها في العقل، وأراد العقل أن يرجع للذاكرة ليجد القياس الصحيح لهذه المشاهدات، وهل هي معرفة أم منكرة؟ نظرا لأن النفس تابعة للـهوى فهي تأمر بالسوء، وأول أمر بالسوء يقع في تجاهل قياس العقل للأمور، فيجد القلب نفسه وقد جاءه وارد النفس قويا، ومادة العقل ضعيفة فيميل القلب لما غلب عليه، فيقضى القلب بحكم الهوى، فيرى الحسن قبحا، ويرى الفحش جمالا، فيصدر القلب تعليماته للعقل أن يحتفظ بهذه المعلومات تحت هذا التبويب الفاسد، ومع الوقت، حتى إذا قاس العقل ما يحدث في يومه على سابق خبراته جاء الحكم من وجهة نظر الهوى؛ لأن الذي حدد المنكر والمعروف هي النفس الأمارة بالسوء، حيث أطبق الجهل على العقل فانطفأ نوره، وهوى بريقه في غيابات جب الشهوة.

فالقلب الميت، مات لأنه لم يجد عقلا يعقل النفس عن الاستبداد بهذا الكيان كله، فتحركت ملكاته وفق هواه، ولهذا تسأل آيات القرآن الكفار: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فبالرغم من وجود العقل إلا أن مادته التي يمد بها القلب لا تؤثر فيه، بينما حجبت النفس العقل عن وظيفته، ومن هنا كان تشبيهه لذات النفوس وعصيانها بالسكر والخمر؛ لأن كلاهما يحجب العقل: الخمر بتأثيرها المادي، والذنوب والشهوات بتأثيرها الظلماني، ومن هنا كان التناسب بين العقل والنور، وبين النفس والظلام، وكل هذا يصب في القلب، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس٧-٨]، ورغم أن القلب هو سيد عوالم الإنسان، إلا أن السمة الغالبة على الإنسان ذي القلب الميت هي توقف وظائف عقله عن العمل، وحين يخاطب الله تبارك وتعالى هذا القلب في القرآن، فإنما يحدثه بالسمة الغالبة عليه، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج-٤٦]، فجاء الوصف القرآني للقلب الذي في الصدر بعد العقل، فكان الخطاب للقلب وهو السيد والملك توبيخا له حيث لم يستخدم العقل، فسار في طريق الظلام، واقترف المعاصي والآثام، فكان من آثارها أن نكتت في

Upload by : altawhedmag.com

القلب نكت سوداء، فأصبح القلب مظلما في نفسه، كما انطفأ نور العقل، ومن هنا كان الوصف ظلمات بعضها فوق بعض، وأحسن الشاعر القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهلـه وأجسـامهم، قبل القبـور قبـور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشـور

ولعل سائلا يقول: ما المعطلات التي تمنع عودة الحياة إلى القلب الميت؟

وقد أجاب ابن القيم ﷺ بقوله: "أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة؛ فالكبر: يمنعه الانقياد، والحسد: يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب: يمنعه العدل والتواضع، والشهوة: تمنعه التفرغ للعبادة، فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر، والعفاف، والعبادة، وزوال الجبال الرواسي أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بُلي بها".

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الرابع

علاقات القلب المريض

إن السبب الأول لمرض القلب هو الخلل الواقع بين العقل والنفس، فهذا الصراع إذا تساوت فيه قوة جذب العقل إلى جانب الحق مع قوة النفس في جذبها إلى جانب الهوى، فإن القلب لا يستريح، فهو تارة يميل إلى الجنة وسبيلها، وتارة يسعى إلى النار وهاويتها، ولهذا قيل: "القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعري كما يعري الجسم ولباسه وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة، والمحبة، والتوكل، والإنابة، والخدمة ".

فمرض البدن حالة بين الحياة السليمة وبين الموت، وهو صراع بين الفناء والبقاء، بينما مرض القلب هو تنازع بين النور والظلام، فيغلب العلم تارة شهوات النفس، فينقلب القلب إلى الطاعات، فتنكت أنوارها في القلب، ثم تارة أخرى تغلب شهوات النفس ويكون واردها في القلب شديدا لا يستطيع الفكاك منه، فيقترف البدن المعاصي بعد أن تنعقد النية في القلب، فتنكت آثارها سوادا في القلب، وقد يستمر هذا الحال طويلا ولكن الخروج لا يكون إلا بالحياة والنور، فبالحياة تكون قوة القلب في الحق، وحياؤه أن يعصي الله وهو في قبضته وملكه وتحت قهره وسطوته، وكلما قويت الحياة في القلب، قويت فيه محبة المعروف وكراهية المنكر، وبالنور الذي هو القرآن الكريم، وما فيه من علم عن الله ﷻ، وبنور اتباع سيدنا رسول الله ﷺ يتم شفاء المرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى-٥٢]، وكذلك قوله: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة-٢٥٧]، فإذا قوي نور القلب وإشراقه انكشفت له الحقائق والمعلومات، فيدركها على حقيقتها، فيستبين حُسن الحسن وعاقبته، فيسعى لفعله فيقع أثره "نور على نور"، وينبغي أن يدرك السالك إلى الله تعالى أن القلوب يناالها السآمة والملل، يقول ابن مسعود ﷺ: ﴿كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام

Upload by : altawhedmag.com

مخافة السآمة علينا﴾[١]، ويقال أيضا: "أريحوا القلوب، فإن القلب إذا أكره عمي"، ويقول علي بن أبي طالب ﷺ: "إن هذه القلوب تملُّ كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة". ويقول أبو الدرداء: "إني لأستجم قلبي بشيء من اللهو، ليكون أقوى على الحق"[٢]، وهكذا حتى يُشفى ويصبح قلبه سليما، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام-١٢٢].

وحياة القلوب والأفئدة في العلم، ونور العقل والفهم في العلم، وموت القلب وظلام العقل بالجهل، إذن فالعلم هو الأصل الأول لمن أراد السلوك إلى الله ﷻ، وكما يقول الشافعي رحمه الله: "ليس العلم ما حُفظ، وإنما العلم ما نفع"، فمن سعى في سبيل تحصيل العلم فقد هدي إلى أول الصراط المستقيم، فهو مطالب بعد ذلك بالعمل به بما يعود عليه بالنفع، ثم يصحح مساره دائما بالإخلاص في الطاعات، ومتى كان العمل صائبا موافقا لهدي رسول الله ﷺ ومخلصا لله ﷻ كان الإخلاص والاتباع جناحيه اللذان يحلق بهما صاحبهما في روضات الجنة، ولهذا سنتحدث في الباب التالي عن أهمية العلم في طريق القاصدين لوجه الله الكريم.

١ أخرجه الترمذي ٢٧٨٢

٢ بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر القرطبي ١: ١١٥

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب التاسع

- عندما ينام المرء تعرج روحه إلى خالقها، وتسجد تحت العرش، وتسعد بالعودة إلى موطنها، وتكون في نفس الوقت محتفظة بضيائها لعوالم الإنسان، وما تراه في عالم الغيب تعكسه في الرؤيا في نفس صاحبها، وترسل له الرسائل التي تحملها عمن قابلته من الأرواح خلال معراجها اليومي.
- ليس الموت حجبا لشعاع الروح عن عوالم الإنسان فقط، وإنما يصاحبه أمر بتوقف القلب عن الخفقان، وتوقف للنبضات الكهربية الصادرة من المخ إلى الجهاز العصبي، فبتمام هذه الأمور الثلاثة يموت المرء وتحدث له الوفاة.
- ابتلي الإنسان بالدنيا ليعبر خلالها حتى يصل إلى الآخرة، ومُلئت الدنيا بالمتاع وتعددت صوره، والتي منها صور حسية وأخرى معنوية.
- القلب السليم مرجعه انقياده لنور الإيمان.
- إذا كان القلب ميتا كان ذلك نتيجة لطغيان وارد النفس وقوة ميلها لأهوائها.

Upload by : altawhedmag.com

الباب العاشر

دعائم السلوك

على الصراط المستقيم

١. العلم والفهم أصل السلوك

٢. أهمية العلم وغربة أهله

٣. صلة العالم بالمتعلم

٤. التقليد والاتباع

٥. كيف ساد المسلمون الأوائل وتأخرنا؟

٦. فكرة إنشاء مكتبة إسلامية

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

قد يتوقع منا القارئ الكريم أن نتناول دعائم السلوك إلى الله تعالى بالأسلوب التقليدي، الذي يركز على القيام لله تعالى بما أمر والابتعاد عما نهى، أو أن نشرح أركان الإسلام، أو نبين أخلاق المسلم التي يجب أن يتحلى بها؛ لأن الهدف من رسالة الإسلام هو: ﴿إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾[1]، ولكننا سنترك أركان الإسلام لكتب الفقه الإسلامي، وسيكون عرضنا لدعائم السلوك منصب على تلك العناصر التي لا ينبغي أن يسلك السالكون إلى الله بدونها، فكأنها شروط عملية، أو إن شئت قلت عناصر النجاة، من تحلى بها فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن سلك بغيرها سار بغير هدى من الله، فكيف يسلك دون أن يفهم المراد منه؟ وكيف يحقق المطلوب من وجوده؟ وما الأسلحة التي ينبغي أن يتسلح بها؟ وما زاد الطريق؟ وكيف يحكم السالك سفينته؟ فالطريق طويل، والعقبة كئود، ولولا فضل الله ورحمته ما زكى من النَّاس من أحد، ولذلك نبدأ عرضنا هذا سائلين المولى ﷻ أن يكون التوفيق حليفنا، والتيسير هدفنا، وكما يَسّر الرحمن القرآن للذّكر، فإنا نسأله أن ييسر لنا الفهم في دينه، وأن يجعل مسعانا إليه بتوفيق من عنده، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ونلخص دعائم السلوك في نقاط محددة هي:

١. العلم أساس السلوك:

وأهم العلوم هو ما يلقي الضوء على الطريق الذي يسلكه السالكون إلى الله تعالى، فبالعلم يعرف السالك الغاية والهدف، ويعرف المراد منه، ويصحح مساره أثناء سيره، فكأن العلم هو الخريطة وعليها المسار، والبوصلة التي بها نعرف سيرنا في الطريق، ومدى التزامنا في السير على مسار الرحلة، وبالعلم يتم تصحيح الانحراف عن المسار، فبدون العلم لا يقوم للسلوك قائمة، ولا تصح العبادة ولا تقوم للأعمال قائمة.

---

١ حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٢٧٣، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١: ١٩٢، والحاكم في المستدرك ٢: ٦١٣، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وابن عجلان، وقال ابن عبد البر: هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٤٥، ونتمنى من الله أن يطيل في أعمارنا، ويحسن في أعمالنا حتى نكتب في الأخلاق الإسلامية.

Upload by : altawhedmag.com

٢. التقوى:

وهي زاد الطريق وعدة السائرين على منازل عباد الله الصالحين، وبالتقوى يتحرى السالك مواضع الشوك على الطريق، ويتجنب الشبهات ويقطع المفازات، وينال القربات، فالتقوى أنيس السالكين، وسمير غربتهم بين الغافلين، وبالتقوى يقوى السالك، ويأخذ بالوقاية قبل العلاج، فلا يتعرض للمعوقات، ولا تفوته النفحات في أيام الفضل والتجليات.

٣. الإخلاص والمتابعة:

وهما جناحي السلوك، وبهما تقبل الأعمال أو ترد، فالإخلاص في العمل هو التطبيق العملي لمعاني "لا إله إلا الله"، والعمل بدون الإخلاص لا فائدة منه، فهو كالهباء أو الزبد الذي لا ينفع النَّاس، فإذا أضفنا إلى الإخلاص صدق متابعة رسول الله ﷺ كانا معا السبيل الوحيد لقبول العمل، وكل عمل لا يتابع فيه رسول الله ﷺ يؤاخذ عليه المرء، بل إن الأمر ليصل إلى حد عبادة غير الله، كما أخبر رسول الله وفد نصارى نجران بعبادتهم للأحبار والرهبان من دون الله، فكأن المتابعة هي التطبيق العملي لمعاني "محمد رسول الله"، فالإخلاص والمتابعة هما سر عقيدة التوحيد، وبهما يدخل السالك إلى جنات القرب، والفردوس الأعلى.

٤. الأخوة في الله:

واختيارنا لهذا الدعامة في السلوك ترجع إلى ضرورة أن يجد السالك من يؤنسه طوال سلوكه لمولاه، فالأخ في الله يذكرك إذا نسيت، ويوجهك إذا حدت عن جادة الطريق، كما أنه يدلك على عثرات الطريق وكيف النجاة منها؟ وبه يجد السالك الشيخ والأخ، وربما التلميذ الذي يحتاج إلى النصائح والتوجيه، وربما وفر لك الأخ في الله الجهد الكبير، ويسر لك بنصحه العقبة تلو الأخرى، فالأخ هو الصاحب الذي يسير معك أثناء غربتك في دنيا النَّاس، ويرافقك عند الشدة، ويوافقك عند المسرة، ويشجعك عند المحنة.

٥. ذكر الله على كل حال:

إن من أهم دعائم السلوك العملي للمسلم، أن يكون لسانه رطبا بذكر الله تعالى على كل حال، وفي كل حين، وكثير من الناس حصر صورة الذكر في أشكال ضيقة وأنماط محدودة، وسنعرض بتوفيق الله تعالى الذكر بمعناه الشامل، وكيف أنه المراد من كل السلوك؟ بل والهدف

Upload by : altawhedmag.com

الذي خلق من أجله البشر، بل إننا لا نبالغ حين نقول إنه الغرض من خلق الدنيا وما فيها، بل الكون وما يحتويه.

فهذه الدعائم الخمس هي التي سنتناولها بالتفصيل في الفصول التالية، وهي الأدوات اللازمة للسلوك فهي تجمع بين الخريطة والبوصلة، والزاد الذي تحتاجه، ودعوة لتحقيق معاني التوحيد بالإخلاص والمتابعة، ثم تدلك على من يرافقك في رحلتك، ويؤنسك في وحشتك، كما تقدم منهجا عمليا يتحقق به ذكر الله تعالى على كل حال، وفيه بتوفيق الله تعالى سعادة الدنيا والآخرة، ونسأل الله تعالى أن يمن علينا بالنية الخالصة، والمتابعة الصادقة، وبالعلم والتقوى، والأخ الصالح، وأن يكون لساننا رطب بذكر الله على كل حال، حتى نجتاز دنيانا على خير، وأن يختم لنا بحسن الخاتمة، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

العلم والفهم أصل السلوك

لا بد لرحلة الإنسان في هذا الكون من زاد يعينه ويبلغه الآمال، وقد نصحنا القرآن الكريم بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة-١٩٧]، فالتقوى أفضل زاد يتزود به السالك إلى الله تعالى، وربما لا يتفوق على التقوى في الأهمية إلا العلم، فالعلم بمثابة تحديد الهدف والبوصلة التي بها يتحدد سلامة المسار، والمعلومات التي يحتاجها المسافر عن كل شيء يعترض طريقه، فالتقوى تمثل الطاقة اللازمة للحركة، والعلم يمثل التخطيط ووسائل الأمان طوال الرحلة، وليس من قبيل المصادفة أن يكون موضوع الدرس الأول بين مبعوث الحق تبارك وتعالى وأمين وحيه جبريل عليه السلام، وبين محمد المبعوث رحمة للعالمين، هو العلم وأسلوب تحصيله، وذلك حين نزل بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق١: ٥]، وهذا الدرس يتكون من تسعة عشر كلمة، تضمنت ذكر الرب مرتين، والخلق مرتين، والإنسان مرتين، والعلم مرتين، والأمر بالقراءة مرتين، والقلم وهو وسيلة تلقي العلم مرة واحدة، والغاية هي نفي الجهل، وذلك قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ مرة واحدة، فالرب سبحانه هو الخالق والمعلم، والإنسان هو العبد المخلوق والمتعلم، والعلم ونفي الجهل هو الغاية، ووسيلته القلم والقراءة، بل إننا نلاحظ أن الدرس الثاني يؤكد على نفس معاني الدرس الأول وذلك قوله في اللقاء الثاني بين أمين الوحي جبريل عليه السلام وبين الصادق المصدوق: ﴿نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

ولذلك يُعد طلب العلم - في حد ذاته - طريقا من طرق الوصول إلى الجنة، فهذا رسول الله ﷺ يقول: ﴿ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما قعد قوم في مسجد يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه﴾[1]، ومما ينسب لعلي بن أبي طالب قوله: "كل وعاء

١ حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أخرجه مسلم: ٤٨٦٧، والترمذي ١٣٤٥، وأبو داود ١٢٤٣، وابن ماجه ٢٢١، وأحمد في مسنده ١٠٠٩١، والدارمي في سننه ٣٤٨

Upload by : altawhedmag.com

يضيق بما فيه، إلا العلم فإنه يتسع"، وقال أيضا: "إذا أرذل الله عبدا حظر عليه العلم"، ويقول الحسن البصري رحمه الله: "إن الرجل ليطلب الباب من العلم فيعمل به، فيكون خيرا له من الدنيا لو كانت له فجعلها في الآخرة"[1].

ولبيان أهمية العلم نقول:

١ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في الأحاديث والآثار ٨: ٢٥٦ باب ٦٢ حديث ١٥

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

أهمية العلم وغربة أهله

إذا علمنا يقينا أن رسول الله ﷺ أخبر أمته أنها ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة فقط هي الناجية، وإذا قرأنا في كتب التاريخ لرأينا الأمة وقعت فيما حذرنا منه ﷺ، بل إن افتراق الأمة بدأ بعد وفاة رسول الله ﷺ بأقل من ثلاثين عاما، وإن قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه – الذي كان غلق الفتنة – كان بداية دخول الفتن على الأمة، وكان ذلك بعد خمسة عشر عاما فقط من وفاته ﷺ، وقد حذر رسول الله ﷺ أمته من الافتراق حين قال: ﴿لتتبعن سنن مَنْ قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن !! ﴾[1].

وليس أدل على صدق هذا الحديث من تسابقنا على اتباع اليهود والنصارى أنك ترى المسلمين اليوم لا يرتدون الملابس إلا بعد ظهور أحدث الموضات في الغرب، فهم يحددون لنا الألوان، والأذواق، ومستوى العري الذي يسمحون به، فإذا صدرت التعليمات تسابقنا للتقليد الأعمى، وهذه الأمثلة التي شملت أغلب نواحي الحياة هي مظاهر لا ينكرها أحد منا، ولكن الأهم أننا نتبعهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وندخل وراءهم كل جحر دخلوه حتى في العقيدة نفسها، وقد لا يوافقنا على هذه النتيجة كثير من النَّاس، ولكننا سنثبت ذلك حتى نبين خطورة الأمر لمن ينكرها الآن.

ومما لا شك فيه أن الأربعة عشر قرنا التي مرت على هذه الأمة قد جعلت المسافة تتسع بين فرقها المختلفة، وكان من فضل الله ورحمته أن بعث جل شأنه على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، ويأخذ بأيديها من ظلمات البدع إلى نور الإتباع، وهذا حديث رسول الله ﷺ الذي

١ حديث أبي سعيد الخدري متفق عليه أخرجه البخاري ٣١٩٧، ومسلم ٤٨٢٢، وأحمد ١١٣٧٢، وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد ٧٧٩٠، ٩٤٤٣، ١٠٢٣٠، ١٠٤٠٧.

Upload by : altawhedmag.com

يبشرنا فيه بقوله ﷺ: ﴿لا تزال طائفة من أمتي على الحق، لا يبالون من خالفهم أو خذلهم، حتى يأتي أمر الله عز وجل﴾[١].

وفي رواية أخرى: ﴿لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك﴾[٢]، قال علي بن المديني: "هم أهل الحديث"، ولولا هذه البشرى لعم الظلام وساد الفساد.

ولبيان مدى الهوة بين الأمة في القرن الثامن الهجري وحالنا اليوم، نتأمل وصف ابن قيم الجوزية رحمه الله: لحال المسلمين آنذاك: "لما أعرض النَّاس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء، والقياس، والاستحسان، وأقوال المشايخ، وعرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم حتى ربا فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرا، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم، فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، ورياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض خير من ظهرها، وقمم الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة النَّاس"[٣].

---

١ حديث معاوية بن أبي سفيان أخرجه البخاري ٦٩، وابن ماجه ٢١٧، وأحمد ١٦٢٧٦، مالك في الموطإ ١٤٠٠، والدارمي في سننه ٢٢٦

٢ حديث ثوبان أخرجه مسلم ٣٥٤٤، والترمذي ٢١٥٥، وقال: حسن صحيح، وأبو داود ٣٧١٠، وابن ماجه ١٠، ٣٩٤٢، وأحمد في مسنده ٢١٣٥٩، وحديث قرة بن أبي إياس بن هلال أخرجه الترمذي ٢١١٨، وقال عنه أيضا: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في سننه ٦

٣ الفوائد لابن قيم الجوزية:٤٧

Upload by : altawhedmag.com

ولا ينبغي أن يفهم من هذا القول أنه لا فائدة، أو أننا من دعاة العزلة عن النَّاس، فهذا المنطق أضر بالأمة من آراء أهل البدع؛ لأن من وهبه الله فهما صحيحا في الدين لا يترك الساحة للأهواء، ويصعد إلى قمم الجبال، ولعل المعنى الذي يشير إليه ابن القيم أنك سترى نفسك في غربة، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: "طلب الحق غربة"[١]، ويقول عمر بن الخطاب ﷺ: "لم يبق الحق صديقا لعمر".

وإذا أردنا أن نتدارس حديث النبي ﷺ عن غربة الإسلام حيث قال: ﴿بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء"[٢]، لمقارنة غربة الإسلام قديما وحديثا، فشمس الإسلام حين أشرقت بدد نورها ظلمات الجهل والكفر، فأهل الأرض على أديان متبانية، فهم عبدة أوثان، وعباد كواكب وأجرام، وعباد نيران وعبدة صلبان، ويهود، وصابئة، وفلاسفة يدينون بقدم العالم ووحدة الوجود، فبدأ الإسلام غريبا في أول ظهوره، واستجاب لدعوة الإسلام أفرادا بين القبائل فلفظتهم قبائلهم وجمع بينهم نور التوحيد، فكانوا هم الغرباء حقا بين أهليهم وعشائرهم، إلا أن نور الهدى ملأ عليهم جميع عوالمهم حتى ظهر الإسلام بجهادهم ونصرتهم لله ولرسوله ﷺ، فأيدهم الله بنصره فانتشر الإسلام ودخل النَّاس فيه أفواجا وجماعات، فزالت تلك الغربة عنهم.

وعندما أعرضَ النَّاس عن الكتاب والسنة، وظهر إيثار الدنيا على الآخرة، وانبعثت المعتقدات التي هدمها الإسلام في أول ظهوره، وعادت تتسرب ببطء شديد حتى احتلت مساحة عريضة في اعتقاد الكثير من النَّاس، ومنها الإقامة الكاملة في المقابر أسبوعين أو أكثر، وتلك عادات الفراعنة ومن طقوسهم عن الموت، وقد قضى عليها الإسلام مع دخوله لمصر، فغابت عن النَّاس فترة من الزمان، ثم انبعثت في المجتمع، ومثال آخر – من محدثات الدولة الفاطمية – وهو الموالد والاحتفال بها لمدة أسبوع قبل الليلة الكبيرة، ورغم أن صلاح الدين الأيوبي قضى على دولة الشيعة بغلاتها، وأعاد مصر إلى اعتقاد أهل السنة، إلا أن عادة الموالد عادت، وأصبحت

---

١ كشف الخفاء ٢: ٥٣ أخرجه الهروي.

٢ رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم وابن ماجه والإبانة لابن بطة، ومستخرج أبي عوانه، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية عبد الله بن عمر، والطبراني في الأوسط من رواية أبي سعيد الخدري، والطحاوي في مشكل الآثار من حديث أنس بن مالك، وتمام في فوائده من حديث واثلة بن الأسقع.

Upload by : altawhedmag.com

ظاهرة خطيرة، فلم يعد مُحبو الموالد قادرين على وضع برنامج لزيارة المقامات الكثيرة المنتشرة في المدن والقرى المختلفة! وكثير منهم يعتمد على مجلة التصوف الإسلامي التي تذكر المريدين بمواعيد هذه الموالد، وبالتالي تزداد حصيلة النذور، ويرتفع رصيد الخلفاء وخدام الأضرحة!.

والحمد لله على توفيقه لعمر بن عبد العزيز ﷺ، فقد بادر بتكليف العلماء بكتابة أحاديث رسول الله ﷺ، ومنهم أبو بكر بن حزم حيث كلفه قائلا: " أنظر ما كان من حديث رسول ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم [أي ذهاب العلم]، وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول الله ﷺ، ولتفشوا العلم [أي انشروا العلم]، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا"[١]، وهذه الرسالة توضح فهم الخليفة العادل لأهمية العلم وتضع منهاجا للتعليم.

ويقول الإمام الشافعي ﷺ: "إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأني رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ"[٢]، وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم، فيقول: "هذه سرج الإسلام"، وكان يحمل المحبرة على كِبر سنه، فقال له رجل: إلى متى يا أبا عبد الله؟ فقال: " المحبرة إلى المقبرة"، فهذا هو الفهم لحديثي الفاروق عمر وعبد الله بن عمر حيث يقولا "قيدوا العلم بالكتاب"[٣]، وها هو سهل بن عبد الله يقول: " اكتب، إن استطعت أن تلقى الله وبيدك المحبرة والكتاب فافعل، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أفدني فائدة، فقال: الدنيا كلها جهل إلا ما كان علما، والعلم كله حجة إلا ما كان عملا، والعمل كله موقوف، إلا ما كان منه على الكتاب والسنة"[٤]، ويقول أيضا: "ما من طريق إلى الله أفضل من العلم، فإن عدلت عن طريق العلم خطوة تهت في الظلام أربعين صباحا "[٥]، ويقول علي بن أبي طالب ﷺ: "كل وعاء يضيق بما جُعِل فيه، إلا العلم فأنه يتسع"، ويقول كذلك: "إذا أرذل الله عبدا حظر عليه العلم".

---

١ رواه البخاري تعليقا في باب كيف يقبض العلم.

٢ تلبيس إبليس لأبي الفرج الجوزي ص ٣٦٩

٣ حديث عمر انفرد به الدارمي رقم ٤٩٧، وحديث ابن عمر في نفس المصدر رقم ٤٩٨

٤ تلبيس إبليس لأبي الفرج الجوزي ص ٣٦٥

٥ المرجع السابق ٣٦٣

Upload by : altawhedmag.com

ويقول الفيروزآبادي موضحا أهمية العلم: "والعلم منزلة من منازل السالكين، إن لم يصحبه السالك من أول قدم يضعه إلى آخر قدم ينتهي إليه، يكون سلوكه على غير طريق موصل، وهو مقطوع عليه، ومسدود عليه سبل الهدى والفلاح، وهذا إجماع من السادة العارفين، ولم ينهَ عن العلم إلا قطاع الطريق ونواب إبليس، قال سيد الطائفة وإمامهم الجنيد رحمه الله: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ"، وقال: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة"[١].

ويقول أحمد الرفاعي ناصحا للمريدين: "أي سادة، عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم الأولياء والعرفاء، فإن الطريق واحد، وهؤلاء وراث الشرعية وحملة أحكامها الذين يعلمونها النَّاس، وبها يصل الواصلون إلى الله، إذ لا فائدة بالسعي والعمل على الطريق المغاير للشرع، ولو عَبَدَ الله العابدُ خمسمائة عام بطريقة غير شرعية، فعبادته راجعة إليه، ووزره عليه، ولا يقيم الله له وزنا يوم القيامة، وركعتان من فقيه في دينه أفضل عند الله من ألفي ركعة من فقير جاهل في دينه، وإياكم وإهمال حقوق العلماء، وعليكم بحسن الظن فيهم جميعا، وأما أهل التقوى منهم العاملون بما علمهم الله فهم الأولياء على الحقيقة، فلتكن حرمتهم عندكم محفوظة، فهم سادات النَّاس وأشراف الخلق والدالون على طريق الحق"[٢]، ومن يتتبع أحوال الرفاعية وأتباع الجنيد لوجدهم أبعد الناس عن نصح مشايخهم.

ومما ينسب للشافعي رضي الله عنه قوله[٣]:

كل العلوم سوى القـرآن مشغلة إلا الحديث وعلم الفقه في الدين

العلم ما كان فيه " قال حدثنـا" وما سوى ذاك وسواس الشياطين

فالعلم الظاهر هو نور الكتاب والسنة، وحلاوة الإيمان في القلب هو علم باطن وهو أيضا نور الفهم في الكتاب والسنة، وبذلك وصف قلب المؤمن أن به سراج يزهر فهو نور على نور، ولا يستطيع الشيطان أن يدخل في هذه الأنوار، إذ هو لا يتمكن إلا في الظلام، كظلمة الجهل، "ولما

١ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي ٤: ٨٩

٢ البرهان المؤيد لأحمد الرفاعي.

٣ ديوان الشافعي ٨٨

Upload by : altawhedmag.com

خاف إبليس أن يعاود هؤلاء مطالعة الكتب، فربما استدلوا بذلك على مكايده، حسن لهم دفن الكتب وإتلافها"[١]، وصدق الله العظيم القائل في قرآنه الحكيم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر-٩]، لا شك في ذلك، لأن هناك بوْن شاسع بين العالم والجاهل يوضحه لنا قول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ۞ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر ١٩ : ٢٢]، وقد استلهم الشاعر هذا المعنى وأجاد حين قال:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امـــرؤ لم يحيى بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

ويا ليت من ينهون النَّاس عن العلم ومذكراته، ويعتقدون أنه يفتن السالكين إلى الله يسمعون قول معاذ بن جبل ﷺ، حيث يقول: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحرام والحلال، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة، وأئمة تقتفي آثارهم، ويقتدي بأفعالهم، وينتهي إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار في الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابع له، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء"[٢].

ومن أعظم أبواب العلم ومن أنفعها: معرفة مفاتيح الخير والشر، والتي لا يوفق لمعرفتها ومراعاتها إلا من عظم حظه وتوفيقه، فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكل خير وشر مفتاحا وبابا

١ تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي ٣٦٥

٢ حديث معاذ بن جبل رواه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثواب، وابن عبد البر، وقال: ليس له إسناد قوي، نقلا عن تحقيق إحياء علوم الدين للغزالي ١ : ٢٠

Upload by : altawhedmag.com

يدخل منه إليه، وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحا يفتح به، فجعل مفتاح الصلاة الطهور كما قال ﷺ: ﴿مفتاح الصلاة الطهور﴾[١]، "ومفتاح الحج الإحرام، مفتاح البر الصدق، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء، ومفتاح النصر والظفر الصبر، ومفتاح الزيادة الشكر، ومفتاح الولاية المحبة والذكر، ومفتاح الفلاح التقوى، ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة الدعاء، ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا، ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، ومفتاح الصلة بالله إسلام القلب، وسلامته له والإخلاص له في الحب، والبغض، والفعل، والترك، ومفتاح حياة القلوب تدبر القرآن، والتضرع بالأسحار، وترك الذنوب، ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده، ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوى، ومفتاح العز طاعة الله ورسوله، ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل، ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة.

ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل، كما جعل: الشرك والكبر والإعراض عما بعث الله به رسوله، والغفلة عن ذكره والقيام بحقه مفتاحا للنار، وكما جعل الخمر مفتاح كل إثم، وجعل الغي [الفساد] مفتاح الزنا، وجعل إطلاق النظر في الصور مفتاح الطلب والعشق، وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان، وجعل المعاصي مفتاح الكفر، وجعل الكذب مفتاح النفاق، وجعل الشح والحرص مفتاح البخل، وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير حله، وجعل الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ مفتاح كل بدعة وضلالة"[٢].

وينسب ليوسف بن الحسين رضي الله عنهما، أنه قال: "بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة ينال الزهد، وبالزهد تُترك الدنيا، وترك الدنيا يرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى".

نسأل الله أن يجعلنا من السعداء، وأن يرزقنا محبة العلم وأهله، والخالص من العمل بما نعلم، وأن يرزقنا القبول، إنه على كل شيء قدير، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

---

١ حديث علي بن أبي طالب رواه أحمد ٩٥٧، والدارمي ٦٨٤، والترمذي ٣، وحديث جابر: ﴿مفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الوضوء﴾، أخرجه الترمذي ٤، وأحمد ١٤١٣٥، وحديث أبي سعيد رواه الترمذي ٢٢١، وقال: حديث حسن.

٢ صحيح حادي الأرواح لابن القيم تحقيق د. عبد الحميد الدخاخني ٥٨ -٥٩

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

صلة العالم بالمتعلم

إن أخص علاقات الأخوة في الله، والحب في الله تظهر واضحة جلية بين العالم والمتعلم، وبين الأستاذ والطالب، أو الشيخ والمريد، وهذه العلاقة لا بد منها، كيف لا؟! وهي وسيلة نقل العلم والحكمة منذ خلق الله الدنيا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ولن تخلو الحياة لحظة من طالب علم ومن عالم يعطي مما أفاض الله عليه، وقد تختلف الأسماء بين النَّاس كما ذكرنا، ولكنها لا تغير من الأمر شيئا، وسيظل العلم إلى الأبد ينتقل من جيل إلى آخر، بانتفاع طالب العلم من اتساع علم معلمه، وقد ترك لنا السلف الصالح في كتبهم الآداب التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم، وكذلك آداب المعلم، ولم يتركوا لأحد أن يضيف عليها شيئا، حتى قالوا: "والله ما أفلح من أفلح، إلا بصحبة من أفلح"، ومن الآداب التي يجب أن يتمسك بها المتعلم احترام المعلم وتبجيله، وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله:

إن المُعلم والطبيب كلاهـمـا ... لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه ... واصبر لجهلك إن جفوت معلما

وقد وضعوا شروطا في العالم حتى ينتفع النَّاس بعلمه، وحتى يتصدر مجالس القوم بالوعظ والإرشاد، ومن أهمها أن يبدأ بنفسه، فقد ورد أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: "أن يا عيسى عظ نفسك، فإن اتعظت بها فعظ النَّاس وإلا فاستحيي مني"[1]، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "من نصب نفسه للناس إماما، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم النَّاس ومؤدبهم"، وقيل شعرا:

يـا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليـم

تصف الدواء لذي السقام وذي ... الضنا كيما يصح به وأنت سقيم

لا تنه عن خلق وتأتي بمثلـه ... عار عليك إذا فعلت عظيـم

١ رواه أحمد بن حنبل في الزهد من حديث مالك بن دينار صفحة ٧١

Upload by : altawhedmag.com

ابدأ بنفسك فانهها عن غيهـا فإذا انتهت عنه فأنت حكيـم

وأيضا حدّدوا شروطا في طالب العلم، ومن أراد الاطلاع على ذلك فالمكتبة الإسلامية غنية من فضل الله بجميع العلوم، ولكننا نود أن نناقش قضية مهمة، ألا وهي: إلى أي مدى يتابع الطالب أستاذه؟

ولبيان فهم السلف الصالح لهذه القضية، وإظهار خطورة ما قد يصل إليه الأمر إذا تركنا الحبل على الغارب، ولا سيما أن للناس في الأمر مذاهب، فمنهم من قال: "على الطالب أن يكون كالميت بين يدي الغاسل لا حراك له"، وقد يجد بعض النَّاس أن هذا القول صحيح على إطلاقه، وقد يراه البعض صحيحا في بعض الأحوال دون البعض.

والحق خلاف ذلك، ولبيان ذلك نقول وبالله تعالى التوفيق: لا شك أن هدف الرسل الأساسي وهو: البلاغ عن الله ﷻ، والعلماء مهمتهم الأولى البلاغ عن الرسل، وفي الحديث: ﴿إن العلماء ورثة الأنبياء﴾[1]، ومعلوم أن الأنبياء لا يورثوا مالا، ولا جاها، ولا عرضا من أعراض الدنيا، ولكنهم يورثون العلماء البلاغ عنهم إلى كل طالب علم، وفي الأثر لطيفة طيبة: فطالما العلماء ورثة الأنبياء فلا يسوغ عقلا أن يقولوا ما لم يقله الأنبياء إذ الوارث فرع والمورث الأصل، فكيف يأتي من الفرع ما لم يمد به الأصل؟ وهذا المعنى أيضا نستقيه من قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء-٥٩]، وأولي الأمر في مجال الدين هم العلماء الأتقياء، والله تبارك وتعالى أمر بقوله: ﴿أَطِيعُوا الله﴾ أي أن لله علينا طاعة مستقلة، ثم عطف على هذه الطاعة بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أن للرسول ﷺ علينا طاعة مستقلة تابعة لطاعة الله تبارك وتعالى، فالسنة المطهرة عن سيد الأنام شارحة للقرآن الحكيم، ونحن مطالبون بتنفيذ أمر الله بطاعة رسوله ﷺ، ولما جاء الأمر بطاعة أولي الأمر، لم يثبت لهم الله طاعة مستقلة، حيث لم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم، وإنما ورد ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، أي أن الطاعة في الأصل لله ولرسوله ﷺ، وأولي الأمر هم الورثة، ونحن مطالبون بطاعتهم، ما كان

١ حديث أبي الدرداء رواه الترمذي ٢٦٠٦، وأبو داود ٣١٥٧، وابن ماجه ٢١٩، وأحمد ٢٠٧٢٣، والدارمي ٣٤٦، والبخاري تعليقا في باب العلم قبل القول والعمل.

Upload by : altawhedmag.com

أمرهم واردا في الكتاب والسنة، أما أن ينفردوا، ويستقلوا، ويحللوا، ويحرموا من عندهم، فلا طاعة لهم على النَّاس.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الرابع

التقليد والاتباع

إن علاقة تلقي العلم بين المريد وشيخه[١] لا تخرج عن صورتين لا ثالث لهما وهما:

- التقليـد: هو أن يطيع المريد شيخه في أمر من الأمور، ولا حجة للشيخ، ولا سند عنده فيه، فالمريد في هذه الحالة مقلد لشيخه.
- الاتبـاع: هو أن يطيع المريد شيخه في أمر من الأمور بعد أن عرف المريد سندا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على صحة ما ذهب إليه الشيخ من نفسه، أو ببيان شافٍ منه، أو من غيره من العلماء، فالمريد في هذه الحالة متبع لشيخه، وشيخه متبع لرسول الله ﷺ، فأصبح المريد تابعا لرسول الله ﷺ في هذا الأمر.

ونريد الآن أن نستوضح موقف الدين من التقليد ومن الاتباع، وما ينبغي أن تكون عليه صلة العلم النافع والنهج المستقيم، ولهذا نرجع إلى كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، حيث يناقش التقليد والاتباع، ويعرض الموضوع عرضا شاملا[٢]، وسنحاول تلخيصه بإذن الله تعالى فيما يلي:

---

١ للاستزادة في موضوع المشايخ عند الصوفية راجع كتاب "عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة" الباب الحادي عشر، فصل "الحكومة الباطنية والأضرحة".

٢ إعلام الموقعين عن رب العالمين: وللمؤلف قصة لطيفة مع هذا الكتاب، فقد طال يوما النقاش بيني وأحد مشايخ الصوفية حتى الثانية صباحا، وكلما سقت الدليل من الكتاب والسنة بهت الشيخ، ولم يجد إجابة إلا تساؤله كنا نتبع شيخنا وهو وكيل كلية أصول الدين، وكان شيخ الطريق، وهو الذي أمرنا بهذه الأوراد، فكيف تأتي أنت وتعترض على العلماء؟ ولما عدت إلى بيتي مددت يدي إلى الجزء الثاني من كتاب إعلام الموقعين وفتح الكتاب من المنتصف، فوجدت ابن القيم يطرح سؤال الشيخ الصوفي، ثم يعرض الإجابة في مناقشة قضية الاتباع والتقليد في تسعين صفحة، وذكر فيه فوق الثمانين حجة لكل منها مؤيد بالآيات القرآنية المباركة وبالأحاديث النبوية المطهرة وبأقوال السلف ا لصالح رضوان الله عليهم، وفي اليوم الثاني أخذت الكتاب وقصصت على الشيخ ما حدث معي، وكم كانت دهشة الشيخ من عمق إجابة ابن القيم على الموضوع، ومن أراد الأصل فليرجع للجزء الثاني من صفحة ١٦٨ حتى صفحة ٢٦٠

Upload by : altawhedmag.com

أولا: ذم التقليد

لقد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع في كتابه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة-١٠٤]، ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ۞ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب٦٦-٦٧].

فإن قيل: إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، ولم يذم من قلد العلماء المهتدين، بل قد أمر بسؤال أهل الذكر، وهم أهل العلم، وذلك تقليد لهم، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل-٤٣]، وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم؟

فالجواب: إن العبد لا يكون مهتديا حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف-٣]، فأمر باتباع المنزل خاصة، والمقلد ليس له علم أن هذا هو المنزل، فإن كان قد تبين له الدلالة في خلاف قول من قلده، فقد علم أن تقليده في خلافه اتباع لغير المنزل، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء-٥٩]، فمنعنا سبحانه من الرد إلى غيره وغير رسوله، وهذا يبطل التقليد، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ الله وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة-١٦]، وليست هناك وليجة [بطانة وخاصة] أعظم ممن جعل رجلا بعينه مختارا على كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ، وكلام سائر الأمة، يقدمه على ذلك كله، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله، فما وافقه منها قبلهم لموافقتهم لقوله، وما خالفه منها تلطف في ردّه، وتطلب لهم وجوه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة، فلا ندري ما الوليجة؟

فإن قيل: إنما فيه ذم من قلد من أضل السبيل، أما من هداه السبيل، فأين ذم الله لتقليدهم؟ وهذا المنطق هو الحجة التي يستند عليها كل من يسلك طريقا لا يفهم كثيرا مما هو فيه، فهو يقول: أنا أقلد رجلا صالحا تقيا ورعا، وهو على هدى، فأنا في تقليده على هدى، ولعل هذه الأشياء لا يدرك معانيها إلا أهل الفتح والقرب والتسليم لهؤلاء أولى.

Upload by : altawhedmag.com

والجواب: إن العلماء احتجوا بالآيات الكثيرة في القرآن الكريم والتي نزلت في ذم تقليد الآباء والرؤساء، ولم يمنعهم أن الآيات تخاطب الكافرين من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلا فكفر، وقلد آخرا فأذنب، وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة، لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وإن اختلفت الآثام فيه، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، ثم نستشهد بالحديث النبوي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إني لا أخاف على أمتي من بعدي إلا من أعمال ثلاثة، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: أخاف عليكم زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوى متبع﴾[1]، ويقول ابن عباس: "ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل: وكيف ذاك يا أبا العباس، قال: يقول العالم من قبل رأيه، ثم يسمع الحديث عن النبي ﷺ، فيدع ما كان عليه [وفي لفظ]: فيلقى من هو أعلم برسول الله ﷺ منه فيخبره فيرجع، ويقضي الأتباع بما حكم"[2]، ثم يستطرد ابن القيم شارحا مضارّ زلة العالم، فيقول: والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله وبيان زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولا بد، إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة قول المعصوم فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض وحرموه وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين، فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين هذا وذاك.

ثم يستشهد ابن القيم بقول عبد الله بن مسعود: "اغد عالما أو متعلما، ولا تغد إمعة فيما بين ذلك"، وهذا هو عمر بن الخطاب ﷺ يخاطب أفضل قرن على وجه الأرض بقوله: "إن حديثكم شر الحديث، وإن كلامكم شر الكلام، فإنكم قد حدثتم النَّاس حتى قيل فلان، وقال فلان، ويترك كتاب الله، من كان منكم قائما فليقم بكتاب الله، وإلا فليجلس"، وروي عن سفيان بن

---

١ حديث عمرو بن عوف المزني رواه الطبراني ١٧:١٧ حديث ١٤، وفيه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف متروك الحديث، وقد حسَّن له الترمذي، ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١١٠، والجزء الأول من الحديث الذي يحذر من "زلة العالم" ورد موقوفا عن معاذ بن جبل وعمر بن الخطاب وأبي الدرداء وسلمان.

٢ رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١١٣

Upload by : altawhedmag.com

عينيه، قال: "اضطجع ربيعة مقنعا رأسه وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رياء ظاهر، وشهوة خفية، والنَّاس عند علمائهم كالصبيان في إمامهم ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروا به ائتمروا"، وقال عبد الله بن المعتمر: "لا فرق بين بهيمة تنقاد وإنسان يقلد"، ثم يقول: فإنا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجلا واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله، فلم يسقط منها شيئا، وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا، ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في عصر التابعين ولا تابعي التابعين، -فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ-، وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم في الكلام على لسان رسول الله ﷺ. انتهى كلام ابن القيم جزاه الله خيرا.

ونضيف إلى قوله أن أئمة الفقه قد حذروا النَّاس من تقليدهم:

- فها هو أبو حنيفة النعمان يقول: "علمنا هذا رأي لنا، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن منه فهو الصواب".
- أما مالك بن أنس إمام دار الهجرة، فيقول: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فإن وافق الكتاب والسنة فخذوا به وإلا فاتركوه".
- وكان الشافعي يقول: "لا تقلدوني في كل ما أقول، فانظروا في ذلك فإنه دين".
- ويقول أحمد بن حنبل: "لا تقلدوني، ولا مالكا، ولا الشافعي، ولا الثوري، وخذوا من حيث أخذوا".

ثانيا: مناظرة بين مقلّد وصاحب حجة

ننقل عن ابن القيّم وكتابه القيّم إعلام الموقعين عن رب العالمين مناظرة بين مقلّد ومتبع صاحب حجة، يقول فيها: يقال لمن قال بالتقليد: لم قلت به وخالفت السلف في ذلك فإنهم لم يقلّدوا؟

فإن قال: قلّدت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله، وسنة رسول الله ﷺ لم أحصها، والذي قلّدته قد علم ذلك، فقلّدت من هو أعلم مني.

قيل له: أما العلماء إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسوله ﷺ أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلّدت فيه بعضهم دون

Upload by : altawhedmag.com

بعض، فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض وكلهم عالم؟ ولعل الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه.

فإن قال: قلّدته لأني أعلم أنه على صواب.

قيل لـه: علمت ذلك بدليل من كتاب الله، أو سنة، أو إجماع؟

فإن قـال: نعم أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل.

وإن قـال: قلّدته لأنه أعلم مني.

قيل له: قلّد كل من هو أعلم منك، فإنك تجد من ذلك خلقا كثيرا، ولا تخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك.

وإن قـال: قلّدته لأنه أعلم أهل عصره، وربما فضله على من قبله مع جزمه الباطل أنه لم يجيء بعده أعلم منه.

قيل لـه: وما يدريك أنه أعلم الأمة في وقته؟ وأنت بشهادتك لست من أهل العلم، فإن هذا إنما يعرفه من عرف المذاهب وأدلتها وراجحها من مرجوحها، فما للأعمى ونقد الدراهم؟ وهذا أيضا باب آخر من القول على الله بلا علم.

فإن قـال: أنا أعلم أني قد أصبت، وإن لم أعرف الحجة، لأني قلّدت كبيرًا من العلماء، وهو لا يقول إلا بحجة خفيت علي.

قيل لـه: إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك، فتقليد معلم معلمك أولى، لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك، كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك.

فإن قـال: نعم، ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه، وكذلك من هو أعلى حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله ﷺ، وإن أبى ذلك نقض قوله.

قيل لـه: كيف يجوز تقليد من هو أصغر وأقل علما؟ ولا تجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علما وهذا تناقض؟

فإن قـال: لأن معلمي وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك.

قيل لـه: فأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي وابن مسعود، وأُبيِّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وعائشة، وابن عباس، وابن عمر ﷺ أفضل من صاحبك وأعلم بلا شك،

Upload by : altawhedmag.com

فلم تركت تقليد الأعلم الأفضل الأجمع لأدوات الخير والعلم والدين؟ ثم هل أنت في تقليدك هذا موافق لأمر الله ورسوله ﷺ أو مخالف لدين الله أو تقول لا أدري؟ ولا بد لك من قول من هذه الأقوال الثلاثة.

فإن قال: موافق لدين الله طولب بالدليل.

وإن قال: مخالف لدين الله أقام على نفسه الحجة.

فإن قال: لا أدري.

قيل له: كيف تسير في تقليدك لأمر أحسن أحواله وأفضلها لا أدري؟ ثم على أي شيء كان النَّاس قبل أن يولد صاحبك؟ أكانوا على هدى أم ضلالة؟

ومن عجيب أمركم أيها المقلدون أنكم اعترفتم وأقررتم على أنفسكم بالعجز عن معرفة الحق بدليله من كلام الله وكلام رسوله ﷺ مع سهولته وقرب مأخذه، واستيلائه على أقصى غايات البيان واستحالة التناقض والاختلاف عليه، فهو نقل مصدق عن قائل معصوم، فادعيتم العجز عن معرفة ما نصب عليه الأدلة وتولى الله بيانه، ثم زعمتم أنكم قد عرفتم أن صاحبكم أولى بالتقليد من غيره، وأنه أعلم الأمة وأفضلها.

وأعجب من هذا أنكم إذا وجدتم آية من كتاب الله، أو حديثا عن رسول الله ﷺ يوافق رأي صاحبكم أظهرتم أنكم تأخذون بها، والعمدة في نفس الأمر على ما قاله لا على الآية، وإذا وجدتم ما يخالف قوله لم تأخذوا بها وتطلبتم لها وجوه التأويل وإخراجها عن ظاهرها.

وإذا علمتم أن الله تعالى يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل-٤٣]، وأهل الذكر في علوم الدين هم أهل القرآن لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت-٤١]، فالأمر الإلهي لطالب العلم أن يسأل أهل الذكر الذين هم أهل القرآن، فالأمة واحدة، والطريق واحد، والقصد واحد، والمرجع واحد، ولكنكم توقفتم عند أقوال النَّاس، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۞ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون٥٢-٥٣]، والزُّبُر هي الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله به رسوله ﷺ، ثم إن الله سبحانه وتعالى ذم من إذا دُعي إلى الله ورسوله أعرض ورضي بالتحاكم إلى غيره، وهذا شأن أهل التقليد، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

Upload by : altawhedmag.com

[النساء-٦٥]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْـمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء-٦١]، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ الله إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِـمِينَ﴾ [القصص-٥٠].

أما الاتباع فقد أثنى الله تبارك وتعالى على أهله بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة-١٠٠]، فالتابعون لهم بإحسان حقا هم أولوا العلم والبصائر الذين لا يقدمون على كتاب الله وسنة رسوله رأيا، ولا قياسًا، ولا معقولا، ولا منقولا، ولا قول أحد من العالمين، ولا يجعلون مذهب أحد عيارًا على القرآن والسنن، فهؤلاء اتباعهم حق". انتهى كلام ابن القيم بتصرف واختصار جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

ثالثا: الصورة الصحيحة لتلقي العلم

لا بد من الإقرار بعد ما قدمناه بعده حقائق ثابتة لا مراء فيها، وهي:

- إن لله تبارك وتعالى علماء وأولياء وعباد صالحون أفاض الله تبارك وتعالى عليهم بكرمه وأختصهم بلطائف المنح، وبأنوار الفهم، وشرفهم باتباع سيدنا رسول الله ﷺ.
- أن العبد السالك لله ﷻ في أمس الحاجة إلى مجالسة أهل الله المقربين، فقد يقطع العبد في لقائه بهم أشواطًا عظيمة من الفهم لا يقدر على أن يجتازها وحده.
- لا بد أن يجمع الحب في الله بين العالم والمتعلم فذلك الأصل الأول في حقيقة الفائدة.
- ولا بد له من الأدب في حضرتهم، في ظاهره بطهارة الثياب، وترك المعاصي واللين في الأقوال، والاستفسار الطيب، والابتعاد عن الجدل، ثم التلقي الحسن، ثم المسارعة بالعمل بما تلقى من العلم، وفي باطنه بصدق النية، وشحذ الهمة، وطهارة القلب، وطرد الوساوس، والخواطر، والعلائق الدنيوية، والإقبال على الله ﷻ.
- أن يجعل كل شيء يتلقاه عن معلمه من باب الاتباع أي بطلب الحجة والسند والدليل، لا من باب التقليد الذي يفتح له باب أن يتعلم أشياء ليست من دين الله، وأن يبتعد عن الكلمات المزخرفة التي قد تحتوي على معاني سامة للعقيدة، وأن يبتعد عن الخوض في الفلسفات النظرية كنظريات وحدة الوجود، أو الدخول فيما أغلقه الشارع الحكيم من

Upload by : altawhedmag.com

أبواب: كالقضاء والقدر، والتشبيه، والغيبيات، فذلك لا طاقة للبشر أن تفتح أبواب حجبها الله عنا، ولكل من يقول منها بشيء إنما يتبع الظن، ويسير خلف هواه ولا سبيل له إلا الهلاك، وأن لا يردد أي أدعية بلغات أخرى غير عربية[1]، أو كلمات يقول من ابتدعها ومن قلدهم إنها أسرار وروحانيات عالية وفيوضات لأهل الخصوص فما طلبت عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأفعال الصحابة، وجاءك ما يوافق الدليل، فخذ به وعض عليه بالنواجذ، وما قيل لك هذا من قول فلان من الصالحين ولا يؤيده الدليل، فإياك أن تتعبد لله بما لم ينزله في دينه، ولذلك فالقول بأن: "المُريد بين يدي شيخه كالميت في يد الغاسل"، إذا أطلقناه في جميع الأمور فهو قول باطل مردود، وإذا قلنا إنه فيما يخص الاتباع أي أن يكون المريد تابعا للسند والدليل، ولكي يكون القول صحيحا يجب أن يكون المريد بين يدي رسول الله ﷺ وشرعه ومنهاجه كالميت في يد الغاسل لا حراك له".

١ راجع كتاب "عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة" الباب الثاني عشر: "الذكر في الفكر الصوفي"، فصل حقيقة الأسماء السريانية.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الخامس

كيف ساد المسلمون الأوائل وتأخرنا؟

يحث الإسلام أتباعه على طلب علوم العصر، ويدعوهم إلى السبق فيها حتى يحسنوا عمارة الدنيا، وينشروا العدل بين ربوعها، ولما فهم المسلمون الأوائل هذه الحقائق، وعملوا بها انتقلوا من أمة ترعى الغنم إلى أمة تقود الأمم، فجاد الزمان بعلماء أفذاذ في شتى العلوم والمجالات، دان لهم العلم بمقام الريادة، وأصبح الفتح الإسلامي بعثا جديدا للأمم التي دخلها، فدلهم على سعادة الدنيا والآخرة، وأخرجهم من عصور الظلام إلى عصور النهضة، هذه الطفرة العلمية التي أوجدها علماء الإسلام في تاريخ البشرية لا ينكرها إلا جاحد أو أحمق، والسبب في حدوث هذه الطفرة هو منهج الإسلام نفسه، فالدين الإسلامي يأمر الوالد أن يُعوّد ولده على الصلاة من السابعة من عمره، وحتى يتعلم الصلاة، فإنه يلزمه قراءة القرآن وتعلم قواعد فقهية للقيام بركن الدين وعماده، وكما أن حِرْص الأوائل على حفظ القرآن جعلهم يبدءون من الصغر في تعلمه وحفظه، فكان الصبي إذا بلغ العاشرة من عمره أصبح حافظا لكتاب الله ﷻ، والأمر ليس في مقدار الحفظ الذي يحفظه الصبي، وإنما الكسب الحقيقي أن تتفتح ملكات عقله منذ الصغر، ففي ذلك تدريب عظيم على كفاءة عمل ملكات التفكر والتدبر والحكمة، فالقرآن كلام الله ﷻ الذي يسره للذاكرين، وفي حفظ المسلم للقرآن في هذه السن المبكرة تعليم له للحلال والحرام، وفيه الأمثال، والحكم، والقصص، والسير، إلى ما لا ينتهي حصره، وإذا وضعت هذه العلوم في ذاكرة الصبي مُبَوّبة تبويبا صحيحا مستقاة من منهج الله مباشرة، جعلت له هدفا مهما يسعى لتحقيقه إثباتا لذاته بين قرنائه، فإذا تعلم علوم الحديث والفقه والسير وضع القدوة الخالدة أمامه، فمن قرأ في سِير الخلفاء الراشدين، والأنصار والمهاجرين، تعلقت همته بالسماء وسمت عزيمته للتأسي بهم، ووجد في سيرهم، لا نقول المعين الذي لا ينضب، ولكن نقول المحيط الذي لا ساحل له، فمن زرعت فيه هذه النزعات في قلبه، وعقله، ونفسه، واستقام على منهج الله تراه لا يتعامل مع الكون من باب الغفلة، ولكن من باب التفكر والحضور، إن التعلم بهذه الصورة يشكل الوجدان الإنساني بصورة سليمة، وأصاب الشاعر، حيث قال:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

Upload by : altawhedmag.com

وهذه السمات على بساطتها هي أساس العبقرية، وقد تم تنشئة المسلمين عليها في صدر الإسلام، حين علموا أبناءهم علوم الدين فملكوا في نفس الوقت علوم الدنيا، وذلك حين أطلقوا ملكات عقولهم على اتساعها منذ الصغر إلى آيات التفكر في الكون وآياته، فمن كان تاجرا أو صانعا أو زارعا انعكست هذه الملكات على عمله، فأضاف فكرا جديدا علّمه لأولاده، ومتى تهيأ في المجتمع ظروف التجديد والتطوير أنتج علوما تملأ جميع آفاق المعرفة من الفلك إلى العلوم الطبيعية، والكيميائية، والرياضية إلى آخر ما ظهر على أيدي علماء الإسلام منذ القرن الأول الهجري، فتحقق فيهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْـمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْـمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة-١١]، وفي الآية إشارات ودلائل عظيمة، ففيها أمر بتوسيع المجالس إذا أراد أن يدخلها راغب في العلم، فمجالس العلم عامة، وليست حكرا على طائفة معينة، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾، أي انهضوا للجهاد، أو للصلاة، أو لقضاء حق، أو لشهادة، وفي هذا دلالة على أن أهل العلم ليسوا في عزلة عن المجتمع، بل هم مشاركون في كل شئونه، فمن آمن وأحب العلم وعمل لمجتمعه بشره سبحانه بقوله: ﴿يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْـمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة-١١]، وهذه الرفعة تتحقق في الدنيا والآخرة، روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿من يرد الله به خيرا يفقه في الدين، وإنما العلم بالتعلم﴾[1]، وهذا الحديث يقرر أن العلم بالتعلم، واتخاذ أسباب تحصيله ومدارسته.

ويروي الدارمي حديثا يوسع فيه مفهوم العلم، ويرفع قدره فوق الاطلاع في الكتب إلى حقائق الإيمان، والتصديق واليقين، جاء فيه: قرأت في كتاب بلغني أنه من كلام عيسى عليه السلام: "تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل، وإنكم علماء السوء، الأجر تأخذون، والعمل تضيعون، يوشك رب العمل أن يطلب عمله، وتوشكون أن تخرجوا من الدنيا العريضة إلى ظلمة القبر وضيقه، الله نهاكم عن الخطايا، كما أمركم بالصلاة والصيام.

١ أخرجه البخاري تعليقا في باب العلم قبل القول والعمل - فتح الباري ١: ١٣١

Upload by : altawhedmag.com

- كيف يكون من أهل العلم من: سخط رزقه، واحتقر منزلته، وقد علم أن ذلك من علم الله وقدرته؟
- كيف يكون من أهل العلم من: اتهم الله فيما قضى له، فليس يرضى شيئا أصابه؟
- كيف يكون من أهل العلم من: دنياه آثر عنده من آخرته، وهو في الدنيا أفضل رغبة؟
- كيف يكون من أهل العلم من: مصيره إلى آخرته، وهو مقبل على دنياه، وما يضره أشهى إليه، أو قال:أحب إليه مما ينفعه.
- كيف يكون من أهل العلم من: يطلب الكلام ليخبر به، ولا يطلبه ليعمل به"[1].

أما حالنا اليوم، فمن أسباب تراجعنا عن المكانة السامية التي خلقنا الله لها: أسلوب التعليم الذي يضيع وقت الأطفال والصبية، فهم اليوم لا يتعلمون في سنهم المبكرة لا دنيا، ولا دينا، فأغلقنا عقولهم، وحاولنا إيجاد البديل في ألعاب شتى، نعتقد أنها تنمي فيهم قدرات كثيرة، إن ما أطرحه هنا يؤيده بعض المفكرين والعلماء في العالم المعاصر، فها هو فيكتور هوجو شاعر فرنسا وفيلسوفها في القرن التاسع عشر، يقول: "يجب أن يكون التعليم مبنيا على الدين، ليتخرج المتعلم رجلا صالحا"، ويقول فيكنور لوزان: "إن الشعوب والمِلَل أحوج إلى المبادئ الدينية منها إلى القوانين المدنية"، وقبلهما يقول جان جاك روسو: "إن أسوأ البلاد، بلد أصبح الخالق سبحانه فيه مجهولا، وتُرك الإيمان به في إهمال"، ويقول الفيلسوف الروسي تولستوي: "والدين يوجد الروابط بين المرء وبارئه الأعلى، ويهدي النَّاس إلى طريق مستقيم، وينير بصائرهم في أعمالهم، ذلك الدين الذي لولاه لأصبح النَّاس في مصاف العجماوات [أي الدواب]، بل أحط منها منزلة".

والحقيقة أننا تركنا تربية العقول والوجدان بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وسيرة رجالات الأمة، ونحاول بهذه الألعاب أن نجني نفس الثمار، ولهذا نجد خريج الجامعة يقضي في المتوسط سبعة عشر عاما في التعليم، يتخرج بعدها وقد نسي دروس الدين التي حصل عليها على هامش الجدول المدرسي، وبالتالي أصبحنا مثقفين في علوم الدنيا، أميين في علوم الدين، مفتقدين للقدوة الصالحة، ثم إذا سار بنا العمر وشغلتنا أعباء المعيشة من إعداد لبيت الزوجية ومطالب الحياة، يأتي دور وسائل الإعلام: التليفزيون، والأقمار الصناعية، وأجهزة الفيديو، لتقتل البقية الباقية من

١ أخرجه الدارمي: ٣٧٠

Upload by : altawhedmag.com

الوقت الذي يمكن أن نعرف فيه بعض حقائق ديننا، ونحن نفتقد الوسائل التي تعلمنا حقائق الدين، حتى خطباء المساجد ومن يتصدون للفتوى - إلا ما رحم ربك - يحفظون الخطب ويكررونها كل سنة، فللحج خطبة في أواخر ذي القعدة، وأوائل ذي الحجة، ثم خطبة لرأس السنة الهجرية، وثالثة ليوم عاشوراء، وهكذا تتحول خطبة الجمعة في كثير من المساجد إلى كلام مكرر لا جديد فيه، ومن الخطباء من لا يعرف قيمة أن يتحدث لمئات المصلين لمدة ساعة في المتوسط، فهو لا يبذل أي جهد لتحضير ما سيلقيه على آذانهم، وتمر علي وعلى غيري من المصلين الخطبة تلو الأخرى، ولا نعرف الموضوع الذي تاه من الخطيب، ويبذل جهده في البحث عنه فوق المنبر، ويخرج النَّاس من المسجد كما دخلوه دون أن يفهم عن دينه أمرا، أو يروي ظمأه من موضوع يشغله، وربما يشغل النَّاس جميعا، إلا أن الجدول السنوي للخطيب لا يسمح له أن يتجاوزه إلى ما يَعِنُّ للمسلمين سواء في بلده، أو وطنه، أو أمته الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

فكيف يتلقى المسلم اليوم أي قول ويعمل به؟ وليس عنده خلفية تصحح معتقدا، أو ترد ضلالا، أو تعرف معروفا، وتنكر منكرا، فحين حاول البعض أن يدرس الدين ويعرف روحه تسربت إليه البدع والأهواء، ووقع بين شقي الرحى:

١. فريق التفريط: يدعي الولاية والتسليم للأولياء والتأويل الباطني، وطرق التصوف ومن ورائها فرق الشيعة والباطنية.
٢. فريق التشدد والغلو والإفراط أتباع الخوارج القدامى وأنصار تكفير المجتمع والحكام والمحكومين، ومن يحرمون مخالطة النَّاس والتعامل معهم.

فأصبح النَّاس في حيرة بين من يجعل الدين يسرا ويتمادى في التيسير حتى يخرجك عن الدين، وبين من يراه صلبا جامدا، وتطرفا أعمى حتى يخرجك عن الدين، فهذا يتساهل وهذا يتشدد، والنَّاس ليس عندها المنهج الذي يقيسون عليه.

وقد نجد الحل في عبارة ابن القيم من كتابه القيم "الفوائد"، حيث يقول: عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها:

١. علم لا يعمل به.
٢. وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء.

Upload by : altawhedmag.com

٣. ومال لا ينفق منه، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة.

٤. وقلب فارغ من محبة الله ﷻ، والشوق إليه، والأنس به.

٥. وبدن معطل من طاعته وخدمته.

٦. ومحبة لا تتقيد برضا المحبوب وامتثال أمره.

٧. ووقت معطل عن استدراك ما فات أو اغتنام بره وقربه.

٨. وفكر يجول فيما لا ينفع.

٩. وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ﷻ، ولا تعود عليك بصلاح دنياك.

١٠. وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه ضرا، ولا نفعا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا.

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة:

إضاعة القلب... من إيثار الدنيا على الآخرة.

إضاعة الوقت.... من طول الأمل.

فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل السادس

فكرة إنشاء مكتبة إسلامية

لذلك يلزمنا أن نُنشئ نواة لمكتبة إسلامية نرجع إليها ونتعلم منها، ونصحح عليها مفاهيمنا عن الدين، وصدق رسول ﷺ حيث يقول: ﴿من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة﴾[١]، ﴿من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع﴾[٢]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة"[٣].

يجب على المسلم ولا سيما الدعاة منهم والذين يتصدرون مجالس العلم أن يكون لهم مورد يتلقون منه العلم الصحيح، ولا تعارض بين صحبة الصالحين والمشايخ وبين تحصيل العلم من أمهات الكتب الإسلامية، فالكتاب في حقيقته حلقة علم خاصة تبدؤها وقت ما تريد، ومع من تريد من علماء الأمة، دون أي تقيد بزمان أو مكان، فأنت في لحظة واحدة باختيارك لكتاب تقرؤه تطوي الزمان والمكان، وتلتقي بكاتبه وهو في أحسن حالاته، وقد انتخب لك أطيب ما عنده، وسطره لك في أبلغ صوره، وعلى هذا يتحول الكتاب من صفحات تقلبها إلى لقاء روحي وعقلي وقلبي وفكري، وكلما توغلت في صفحات الكتاب فإنك تزداد صلة وقرب مع كاتبه، وأطيب ما في هذه اللقاءات، وما يميزها عن لقاء الصالحين أنك تستطيع أن توافق الكاتب، وأن تخالفه فيما يذهب إليه دون أن يغضب لذلك، بينما تجد بعض المشايخ إذا لم توافقه في كل ما يذهب إليه صرت خارجا، ومعترضا، ومنكرا، وربما توعدك بالويل، والثبور، وعظائم الأمور.

---

١ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ٤٨٦٧، وأبو داود ١٢٤٣، وابن ماجه ٢٢١، وأحمد ٧١١٨، والدارمي في سننه ٣٤٨، ورواه الترمذي ٢٥٧٠، وقال حديث حسن، وحديث أبي الدرداء رواه الترمذي ٢٦٠٦، وابن ماجه ٢١٩، وأبو داود ٣١٥٧، وأحمد ٢٠٧٢٣

٢ حديث أنس بن مالك رواه الترمذي ٢٥٧١، وقال: حديث حسن غريب.

٣ رواه الطبراني في الأوسط.

Upload by : altawhedmag.com

كما أن من مميزات الكتاب أنك تستطيع أن تعقد اجتماعا بين مجموعة من العلماء عاشوا في أزمنة متباعدة، وفي أماكن متباعدة، وقد يكون لكل منهم رأي، أو اجتهاد في أمر من الأمور، وهذا الاجتماع تعقده في بيتك دون أن يشعر بك أحد، وما عليك إلا أن تقرأ آراءهم التي سطروها في كتبهم، وستجد لذلك لذة ومتعة روحية لا توصف، فالعلم من أشرف صور الذكر، والبحث فيه يعد عملا في سبيل الله، وقد يسر الله تبارك وتعالى أساليب النشر ووسائل الطباعة، ولا يمنعنا من تذوق هذه النعمة إلا أمرين هما ثمن الكتب، وفراغ الوقت للقراءة، ولا يعتقد المسلم أن هذين المانعين يصعب التغلب عليهما، فإذا عقد المسلم النية الصادقة وحولها إلى هِمة وعزيمة حقيقة، فإنه سيجد من الله العون والتوفيق، وسيجعل الله له المخرج، فمن النَّاس من يستطيع شراء الكتب، وأكثرهم لا يقدر على ثمنها، ولكنه إذا استعان بإخوانه وزملائه سواء في العمل، أو رواد المسجد الذي يصلي فيه، أو بين أهله، وعائلته، فإنهم يستطيعون بالتعاون فيما بينهم إنشاء مكتبة لهم يتبادلون الانتفاع بها.

ومن العجيب أن ثمن المكتبة المقترحة للمبتدئ أقل بكثير مما ينفق فيه أمواله مما لا طائل من ورائه، ويمكن للمبتدئ أن يشتري كتبه على أمد طويل حسب قدراته المادية، كتاب واحد في كل مرة وهكذا، حتى يجتمع عنده ما يشرح له دينه ويصحح له عبادة ربه، وترى المماطلون يقولون: من أين لنا بجنيهات نشتري بها كتبا بينما أساسيات الحياة نعاني، ونكابد للحصول على ثمنها؟!

وإذا دخلت بيوت هؤلاء تجدها عامرة بالأجهزة الكهربائية، وتجده حين يخطط للحصول على ما ينقصه منها فهو الخبير الذي يحسن التدبير، وما ذلك إلا لأن الدنيا شغلتنا، واستحوذ علينا متاعها، فمن أراد الآخرة فعليه أن يسعى لها سعيها، ولا يكون السعي إلا على ركيزة العلم، وقد قسمنا هذه المكتبة إلى موضوعات متنوعة، كل منها مطلوب، ولا غنى لنا عنه، وقد حرصنا في هذا التقسيم أن يكون متعدد المشارب، ففيه ما يصحح العقائد والعبادات، وما يشوق القلوب ويدفع الهمم إلى صدق التوجه، وأيضا ما يحدو بالأرواح إلى أنوار الإيمان ومقامات الإحسان، وكذلك جعلنا للمكتبة ثلاثة مستويات، الأول للمبتدئ، ثم إذا أنهى قراءات هذا المستوى يبدأ في قراءة كتب المستوى الثاني، كما جعلنا المستوى الثالث للمتخصصين، والذين أقامهم الله ﷻ في مقام الدعوة إليه، كما أود أن أحدد أنني لم أنتخب هذه الكتب وحدي، وإنما استعنت بحمد الله

Upload by : altawhedmag.com

بآراء كثيرة كما أنها مكتبة لا تعبر عن اتجاه معين، أو فكر خاص لجماعة معينة، وإنما هي مكتبة نافعة بإذن الله لكل من يريد الوصول إلى فهم الدين، والتعبد لله ﷻ على بصيرة. وصدق القائل:

وإنما الفخر لأهل العلم إنهمو ... لمن استهدى على الهدى أدلاء

وقيمة كل امرئ ما كان يحسنه ... والكافرون لأهل العلم أعداء

ففز بعلم تعش به حيا أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقد تم تصميم المكتبة بحيث تضم العلوم الإسلامية المختلفة، ومقسمة إلى ثلاث مستويات ثقافية، مستوى المبتدئ: ويشمل أبسط وأيسر كتاب في موضوعه، ومن قرأ الكتاب المقترح، وأراد المزيد من المعلومات فعليه أن يختار المستوى الثقافي، ثم المستوى الثالث.

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب العاشر

- لا بد لرحلة الإنسان في هذا الكون من زاد يعينه ويبلغه الآمال.
- يُعد طلب العلم – في حد ذاته – طريقا من طرق الوصول إلى الجنة.
- أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بافتراق الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة.
- أهل الحديث هم الطائفة الناجية من هذا التفرق والتشرذم، وشعارها الأساسي هو " ما أنا عليه وأصحابي".
- إن أخص علاقات الأخوة في الله، والحب في الله تظهر واضحة جالية بين العالم والمتعلم، وبين الأستاذ وطالب العلم.
- الإسلام يحث في طلب العلم على توقير الشيخ دون الوصول إلى تقديسه وتقليده بلا حجة.
- ذم الإسلام التقليد، وحث اتباعه على اتباع الحجة والدليل.
- يحث الإسلام أتباعه على طلب علوم العصر، ويدعوهم إلى السبق فيها حتى يحسنوا عمارة الدنيا، وينشروا العدل بين ربوعها، ولما فهم المسلمون الأوائل هذه الحقائق، وعملوا بها انتقلوا من أمة ترعى الغنم إلى أمة تقود الأمم، فجاد الزمان بعلماء أفذاذ في شتى العلوم والمجالات.
- الإسلام في طريقه للحث على العلم وسط بين نقيضين، بين متشددين يحرمون مخالطة النَّاس والتعامل معهم، ومفرطين يدعون الولاية والتسليم للأولياء والتأويل الباطني، وطرق التصوف ومن ورائها فرق الشيعة والباطنية.
- يجب على المسلم ولا سيما الدعاة منهم والذين يتصدرون مجالس العلم أن يكون لهم مورد يتلقون منه العلم الصحيح، ولا تعارض بين صحبة الصالحين والمشايخ وبين تحصيل العلم من أمهات الكتب الإسلامية.
- يلزمنا أن نُنشئ نواة لمكتبة إسلامية نرجع إليها ونتعلم منها، ونصحح عليها مفاهيمنا عن الدين، ويقدم الكاتب قائمة بأنسب الكتب في الموضوعات الإسلامية المتعددة، ومقسمة حسب المستوى المعرفي للقارئ.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الحادى عشر

التقوى خير زاد

١. بيان حقيقة التقوى

٢. درجات التقوى ومراتبها

٣. أعمـال المتقين

٤. ثواب المتقين في الدنيا

٥. ثواب المتقين في الآخرة

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

أشرنا فيما سبق أن الحياة الدنيا مرحلة من مراحل عمر الإنسان، وأنها دار الاختبار، كما ذكرنا أن الإنسان مجموعة عناصر وعوالم مختلفة، وأن النفس هي محل الاختبار من بين عوالم الإنسان، وأن تهذيبها ومخالفة هواها، واتباع شرع الأنبياء، وهدي المرسلين هو سبيل النجاة الوحيد عبر الزمان، منذ أن خلق الله الدنيا إلى أن يقوم النَّاس لرب العالمين وصدق الله العظيم القائل الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس٧-٨]، وصدق رسوله الكريم ﷺ، حيث قال: ﴿إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، النَّاس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب﴾[1]، فالنفس أمامها سبيلان، وتستطيع أن تسلك على أحد دربين: إما الفجور، وإما التقوى.

ومن معاني الفجور في اللغة: الانبعاث في المعاصي والمحارب، وفجر فجورا أي فسق وفجر إذا كذب، وأصله الميل، والفاجر أي: المائل، ولا يفجر أمر الله، أي: لا يميل عنه، فلا يتركه، وفجر الرجل بالمرأة أي زنى، وقيل: فجر فلان إذا ركب رأسه، فمضى غير مكترث، وكذلك فجر إذا كَلَّ بصره، والفجور: الركون إلى ما لا يحل، وأصله الميل عن الحق، ويفجر بمعنى يعصى ويخالف، وفجر أمر القوم إذا فسد، وأيضا الفجور: الربا، وأفجر الفجور أي أعظم الذنوب، لقول ابن عباس ﷺ في العمرة: "كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور".

فالنفس أمامها سبيلين ولا شك أنهما متناقضان، وفي اتجاهين مختلفين:

- الفجور: بمعنى انبعاث المعاصي، والمحارم والميل عن الحق، والكذب، والزنا، واتباع الهوى، والمخالفة، والفساد، والريبة، وكل هذه المعاني تستخدمها العرب مندرجة تحت لفظ الفجور.
- التقوى: فلزم أن يكون من معاني التقوى التزام الطاعات، والبعد عن المحارم والثبات على الحق، والصدق، ومخالفة الهوى، والإصلاح وعمل الصالحات، والإيمان واليقين، وهذه المعاني مستقاة من عكس معاني الفجور.

---

١ حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي ٣٨٩٠ وقال: حديث حسن غريب، وأبو داود ٤٤٥٢

Upload by : altawhedmag.com

أما المعاني المباشرة للفظ التقوى فهي من باب الاتقاء والاحتماء، وذلك من الخوف، وأخذ الوقاية أي الصيانة عما يضر في الآخرة. قال رسول اللهﷺ: ﴿لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس﴾[1]، ويقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: "التقوى هي اجتناب كل ما تخاف منه ضررا في دينك، والذي يُخشى على الدين من ضرره أمران: محض الحرام والمعصية، وفضول الحلال".

ومراتب التقوى متعددة لتعدد مراتب الضرر:

- فأولهـا: التوقي عن الشرك.
- والثاني: تجنب الكبائر.
- والثالث: توقي الإصرار على الصغائر حتى يصل العبد إلى مرتبة الورع، فيدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس.

ولبيان حقيقة التقوى، ودرجاتها، ومراتبها، وأعمال المتقين، وأنواعها، ووصف ثواب المتقين في الدنيا والآخرة، نستعرض بحول الله وقوته الآيات القرآنية التي جاءت في ذكر الحكيم عن التقوى.

١ حديث عطية السعدي أخرجه ابن ماجه ٤٢٠٥، والترمذي ٢٣٧٥، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

بيان حقيقة التقوى

التقوى هي جماع الخيرات، وحقيقتها الوقاية بطاعة الله من عقوبته، فكل جارحة أنعم الله بها على العبد لا بد له الاتقاء والتحرز بطاعة الله في استخدامها حتى لا تنقلب عليه نقمة يوم القيامة:

- فالعين تزني وزناها النظر، وتقوى العين في غض البصر عن محارم الله.
- واللسان يزني وزناه الغيبة، والنميمة، والزور، والبهتان، والكذب، وتقوى اللسان كفه عن أذى النفس وانشغاله بالذكر.
- والأذن تزني، وزناها تتبع عورات النَّاس، والتجسس عليهم، والتسمع لما يؤذيهم، وتقواها في استماع القول واتباع أحسنه.
- واليد تمتد إلى المال الحرام، وتبطش بالمسكين وتحرمه من رزق الله الذي أتاه وتعيث في الأرض فسادا، وتقوى اليد في البذل والعطاء ومساعدة المحتاج وكف الأذى عن الضعفاء
- والقلوب تصدأ كما يصدأ النحاس، بل وتمرض، وتذبل، وقد تموت، أو توضع في أكنة الذنوب وغلاف وحجاب الغفلة، وتقوى القلوب في الخوف من الجليل، ومداومة الإنابة والرجوع إلى الله، والانشغال به عما سواه حتى تلين الجوارح للعمل بالتنزيل، فقلوب المتقين لا يحركها إلا رضا الله، وهذا عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "والله لقد لان قلبي في الله حتى لهو ألين من الزبد، ولقد اشتد قلبي في الله حتى لهو أشد من الحجر".

ويشير القرآن الكريم إلى أعمال تقوى الجوارح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْـمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِـهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْـمَحْرُومِ﴾ [الذاريات١٥: ١٩]، وصدق علي بن أبي طالب، حيث يقول: لا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل ما يتقبل؟" ولذلك استحق المتقون جنات النعيم وما أعده الله لهم من الإنعام والتكريم.

فالمتقون: كانوا في الحياة الدنيا محسنين، تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وقليلا ما يهجعون، أسهروا ليلهم طاعة لربهم، فهم بين راكع، وساجد، وتالٍ للقرآن الكريم، وذاكر لله تبارك وتعالى،

Upload by : altawhedmag.com

ومتفكر في آياته، ومتأمل نعمه سبحانه على نفسه وأهله، وبين خائف من ذنبه وما قدمت يداه، وهو يقطع الأسحار بمداومة الاستغفار، حتى إذا جاء النهار رأيت في أموالهم وما آل إليهم من نعم الله حقا معلوما للسائل والمحروم، ومن لم يسألهم له عندهم نصيب مفروض، فهؤلاء يوم القيامة في جنات وعيون، والتقوى تقيد صاحبها، وتمنعه من الانتقام، والجبروت، والظلم، وغير ذلك مما يشفي غيظ البعض، ويقرر ذلك عمر بن الخطاب ﷺ بقوله: "من اتقى الله لم يشفِ غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون"، ويشير القرآن الكريم إلى أعمال تقوى القلوب في قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۞ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [سورة ق ٣١: ٣٥]، إن من يخشى ربه بالغيب، يخاف من اطلاعه عليه في حال المعصية، يقول علي بن أبي طالب ﷺ: "اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم"، وحول نفس المعنى قال وهيب بن الورد: "اتقِ الله أن تسب إبليس في العلانية، وأنت صديقه في السر".

ومن التقوى تعظيم شعائر الله، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج-٣٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ الله أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ الله قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات-٣]، فالمتقون وعدهم الله بجنات وعيون، لأن قلوبهم تخشاه سبحانه بالغيب، ثم هي دائمة الإنابة والرجوع إليه جل شأنه، وتحفظ عهده، وترعى أوامره، وتجتنب نواهيه، حتى تلقاه يوم القيامة بقلوب منيبة، فيلقاهم ربهم راضيا مستبشرا يتجلى عليهم في الجنة بما يشاءون، ولهم أيضا يوم المزيد، يوم العطاء من الله والنظر إلى وجهه الكريم، فهم يعظمون في قلوبهم شعائر الله وهم يتأدبون مع رسول الله ﷺ.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

درجات التقوى ومراتبها

أولا: في القرآن الكريم

تتفاوت درجات التقوى، فأصل التقوى اتقاء الشرك، ثم اتقاء المعاصي والسيئات، ثم اتقاء الشبهات، ثم اتقاء الفضول من الحلال، وجميع هذه الآثام توصل إلى النار وما أُعد للعصاة والمذنبين، وإلى هذه المراتب يشير القرآن الكريم: فمرة تأتي التقوى محددة باتقاء يوم القيامة حيث يرجع فيه النَّاس لرب العالمين، ويقومون بين يديه، يسألهم عما قدمت أيديهم، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا تجزي نفس عن نفس شيئا، لقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله﴾ [البقرة-٢٨١]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة- ٤٨، ١٢٣].

ومرة أخرى نجد القرآن الكريم يحدد مرتبة الخوف من النار: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة-٢٤]، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران-١٣١]، ومرة ثالثة نجد أن القرآن الكريم يحدد مرتبة أخرى للاتقاء وأخذ الوقاية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة يس-٤٥]، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال-٢٥]، ثم جاء في بضع وسبعين موضعا من آيات القرآن الكريم ذكر تقوى الله بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله﴾، أو ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ، أو ﴿فَاتَّقُونِ﴾، نذكر منها الآيات التي يرتبط فيها أمر الله لنا بالتقوى مع بالعلم، فارتباطهما في آية واحدة لا بد أن تظهر لطائف المعاني في درجات التقوى، يقول عز من قائل:

* ﴿وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة-١٩٦].
* ﴿وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة-٢٠٣].
* ﴿وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة-٢٣١].
* ﴿وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة-٢٣٣].
* ﴿وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة-٢٢٣].
* ﴿وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة-١٩٤].
* ﴿وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة-٢٨٢].

Upload by : altawhedmag.com

فأولى المراحل: أن يتعلم المتقون أن الله شديد العقاب، وفي هذا تحذير من مخالفته بدءًا بالشرك، وانتهاءً باللمم، ثم إننا جميعا إليه محشورون، وهو سبحانه وتعالى بكل شيء عليم ومطلع على أعمال عباده، وبصير بخبايا النيات وأسرار القلوب، ثم أننا جميعا ماثلون بين يديه، فمن أحسن وأطاع فله البشرى، ومن عصى وأساء، فالنار مثواه، ثم تأتي البشرى، إن المتقين في معية الله المخصوصة بالفضل والرحمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْـمُتَّقِينَ﴾، فبعد البشرى بمعية الله تأتي آية من أرجى آيات القرآن الكريم حيث يتولى الحق سبحانه تعليم المتقين: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة-٢٨٢]، مفيضا عليهم من بحار علمه، ما يروي قلوبهم، وتسعد به أرواحهم، حتى يلقونه في جنات القرب، وحدائق الاختصاص، ورياض الجود والعطاء، وينصح علي بن أبي طالب ﷺ المتقين بقوله: "اتقِ الله بعض التقى وإن قل، واجعل بينك وبين الله سترا وإن رقَّ".

كما يجدر هنا الإشارة إلى أشد آية من آيات التقوى على قلوب صحابة الرسول ﷺ حين نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران-١٠٢]، يقول سعيد بن جبير: "لما نزلت اشتدت على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم، فأنزل الله تبارك وتعالى تخفيفا على المسلمين قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن- ١٦].

ثانيا: درجة التقوى ومقام المتقين عند رسول الله ﷺ

روي عن عائشة أنها قالت: ﴿ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تُقًى﴾[1]، وتقول كذلك: ما يرويه الطبراني: ﴿كان رسول الله ﷺ لا يزيده ذا شرف عنده ولا ينقصه إلا التقوى﴾.

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه، ويوجه المسلمين إلى هذا الميزان الدقيق، فيجعل التقوى أساس التعامل بينهم، فمن كان على تقى فهو أهل للصحبة والمعرفة، وأهل أن يدخل بيوت إخوانه يقول

١ مجمع الزوائد عن أبي يعلى.

Upload by : altawhedmag.com

ﷺ: "لا يأكل طعامك إلا تقي، ولا تصحب إلا مؤمنا"[١]، كما أوصى رسول الله ﷺ أصحابه في أول خطبة له في المدينة المنورة في أول جمعة صلاها: فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال ﷺ: ﴿من يطع الله ورسوله ﷺ فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى﴾[٢]، "وفرط وضل ضلالا بعيدا، وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما يبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكرى في عاجل أمره، وذخرا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق-٢٩]، واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه من يتقي الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرا: ﴿وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء-١٣]، وإن تقوى الله توقي مقته وسخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، والإنسان في ابتلاء طالما يعيش على ظهر الأرض، فعلى المسلم أن يأخذ بحظه ولا يفرط في جنب الله، بعد أن تلقى منهج الله، فالهدف من الفتنة والاختبار هو معرفة الصادقين من الكاذبين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت-٣]، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، ﴿وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج-٧٨]، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال-٤٢]، ولا قوة إلا بالله، وأكثروا من ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله، يكفيه الله ما بينه وبين النَّاس، ذلك بأن الله يقضي على النَّاس ولا يقضون عليه، ويملك من النَّاس ولا يملكون

---

١ حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، والبيهقي في شعب الإيمان، والخطابي في العزلة، والكلاباذي في بحر الفوائد المعروف بمعاني الأخيار

٢ أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٣٨

Upload by : altawhedmag.com

منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[١]، وقال رسول الله ﷺ: "يا أيها النَّاس اتخذوا تقوى الله تجارة، يأتيكم الرزق بلا بضاعة ولا تجارة ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق٢-٣]"[٢]، وقال رسول الله ﷺ: ﴿لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس﴾[٣].

وقد حدد الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ أن التقوى هي الأساس الوحيد للتفاضل بين النَّاس، فقد جاء في الكتاب العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات-١٣]، وفي هدي المصطفى ﷺ حيث قال: "المسلمون أخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى"[٤].

١ ابن جرير الطبري في تفسيره، وابن كثير في البداية والنهاية ونقلا عن كتاب خطب المصطفى.

٢ حديث معاذ بن جبل رواه الطبراني في العجم الكبير ٢٠:٩٧، حديث ١٩٠ وفي مسند الشاميين، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، وأبو الشيخ الأصبهاني في أمثال الحديث، وذكره ابن كثير في جامع السنن والمسانيد حديث ٨٥٧٢

٣ حديث عطية السعدي أخرجه ابن ماجه ٤٢٠٥، والترمذي ٢٣٧٥، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

٤ تفسير ابن كثير، رواه الطبراني ٤: ٣٥٤٧

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

أعمال المتقين

أولا: التمسك بالكتاب والسنة

أول أعمال المتقين التمسك بكتاب الله ﷻ، واتباع ما جاء به، وأخذ الوقاية في متابعة أحكامه ومراعاة حدوده، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، فإن ذلك موصل لرحمة الله لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام-١٥٥]، ولا ينفصل كتاب الله عن سنة رسوله ﷺ؛ لذلك تمسك المتقون باتباع رسول الله ﷺ، قال عز من قائل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر-٧]، ومن لطيف الإشارة أن الآية الأولى الخاصة بالتقوى المصاحبة لاتباع القرآن الكريم ختمت بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أما الآية الثانية الخاصة بالتقوى المصاحبة لمتابعة ما جاء به سيدنا محمد ﷺ ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، فالأولى جاءت من باب الترغيب، والثانية من باب الترهيب، وحتى لا يجد البعض أدنى حجة يتوقف عندها مع سنة الرسول ﷺ، فترك السنة والاكتفاء بالقرآن الكريم مردود عليه بأن الله شديد العقاب، والصراط المستقيم واحد والسبل كثيرة، والمسلم مطالب بالسير على نهج رسول الله ﷺ، وما جاء به عن ربه وما كلفه الحق تبارك وتعالى ببيانه للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام-١٥٣].

والفلاح مرتبط باستمرار أعمال الطاعات والصبر عليها، والمرابطة على التقوى، وأخذ الوقاية مما يخاف ضرره يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران-٢٠٠]، كما أن اتباع النهج الإسلامي فيه سعادة الأمم والجماعات في الدنيا قبل الآخرة، وفي تطبيق أحكام الدين بين النَّاس أمان لهم من شرور أنفسهم، وموصلا لهم إلى درجات التقوى، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة-١٧٩]، ومن الأعمال الموصلة لحقيقة التقوى: أن تأخذ الأمم بمنهج الله لها بقوة وإخلاص، وتلتزم به فيما بينها، لقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة-٦٣] و[الأعراف-١٧١].

Upload by : altawhedmag.com

ثانيا: مداومة ذكر الله ﷻ

إن من أعمال المتقين الانشغال بذكر الله تبارك وتعالى، ومن صفاتهم دوام حضورهم مع الله ﷻ، وإذا غفلوا عنه سبحانه طرفة عين، لا يستطيع الشيطان أن يقترب منهم، ولكنه قد يتراءى طائفا من بعيد، يدعوهم إلى الدنيا، أو إلى حظ من حظوظ النفس حال غفلتهم، فإذا رأوا ذلك تذكروا الله ﷻ، فإذا هم مبصرون لما يلقيه الشيطان،كارهون له رافضون لوسوسته، راجمون لطيفه، فلا يعود إليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف-٢٠١]، ولأهمية الذكر في السلوك سنفرد له بابا مخصوصا نتناول في فصوله جوانب الذكر المختلفة.

ثالثا: الزهد في متاع الدنيا

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد-٣٦]، فالحياة الدنيا لعب ولهو، ولكن أهل الإيمان والتقوى لا ينشغلون بها، ولا يغرنهم تقلب النَّاس في متاع الدنيا، فالمتقون يحذرون الآخرة، ويرجون رحمة الله ﷻ، ويأملون فيما عنده من حسن المآب.

رابعا: الصدق والعفو والعدل

من الصفات الملازمة للمتقين، والتي تقربهم أكثر من حقيقة التقوى:

- الصدق وهو من آكد الأعمال التي تدخل صاحبها في زمرة المتقين، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْـمُتَّقُونَ﴾ [البقرة-١٧٧].
- والعفو من الصفات التي تقرب من التقوى، قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧].
- والعدل أيضا صفة تقرب من التقوى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة-٨].

خامسا: الوفاء بالعهود

إن من أهم أعمال المتقين وأزكاها عند الله: الوفاء بالعهد، والالتزام، والاستقامة على كل ما قطع الإنسان على نفسه من العهود حتى مع الكافرين، ومن لطيف الإشارة: إنك إذا بحثت في آيات القرآن الكريم عن نصوص تحدد محبة الله للمتقين، فستجد ثلاث آيات جاء فيها النص

Upload by : altawhedmag.com

الصريح: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ﴾، وهذه آيات جاءت كلها ختاما لعمل واحد وتزكية له، ألا وهو الوفاء بالعهد، وذلك في قوله تعالى:

* ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران-٧٦].
* ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ﴾ [التوبة-٤].
* ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ﴾ [التوبة-٧].

ومن أهم صفات المؤمنين الذين ينالون رضوان الله ﷻ والجنة، حفظ العهد والأمانة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج-٣٢]، [المؤمنون-٨]، والأمين لا يخون أبدا، ولذلك قيل: "ما خان أمين قط، ولكن ائتمن غير أمين فخان".

سادسا: الجهاد في سبيل الله

إن الجهاد لنشر الدين ونصرة الله ورسوله ﷺ من أفضل الأعمال، والجهاد لا يكون فقط بالسيف، ولكن الإعداد لنصرة الإسلام أمر إلهي ففي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال-٦٠]، أمر الله سبحانه المؤمنين باتخاذ أسباب القوة على الأعداء، وكل وقت له عدته، فالخيل ناسبت الدعوة وتأسيس الإمبراطورية الإسلامية، وعدة اليوم تحتاج إلى ملاحقة التقدم التقني، ووسائل الاتصالات السريعة، ومعالجة المعلومات، والتقدم في أنظمة السيطرة الآلية على أراضي المسلمين، وسمائها، وبحارها، بحيث لا يغتال المسلمون من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والحرب قديما كانت تعتمد على شجاعة الأفراد، وقوتهم الجسمانية، والتدريب العضلي، والمجهود البدني، وقوة التحمل، وفي زماننا يحتاج المقاتل إلى أجهزة حديثة يرى بها ليلا ونهارا، ويستطلع بها نوايا العدو، ولا يغيب عن ناظريه تحركاته في البر والجو والبحر، بل وفي أعماق البحار، فالطائرة المقاتلة تتفوق على مثيلتها إذا كانت الأجهزة الرادارية أدق، وتكشف طائرة العدو على مسافة أطول من الأخرى، كما أن طائرة حديثة تستطيع القتال ليلا، معتمدة على الأجهزة تحت الحمراء، كما أن طائرة تحمل صاروخا واحدا له مدى متوسط، لا تقف طويلا أمام طائرة تحمل صاروخين لهما مدى أطول، وعلى الجيوش الإسلامية أن تنهض لمتابعة الأبحاث، والدراسات العسكرية، ومدارس القتال الحديثة، وبعد اتخاذ جميع الأسباب التي أمرنا بها الحق تبارك وتعالى، لا تجد في

Upload by : altawhedmag.com

الساحة إلا المقاتل الذي لا يخاف الموت، الذي يسعى للشهادة في سبيل الله تعالى، والأمثلة التي نعرفها في الحروب الحديثة لم ينساها المؤرخون العسكريون إلى اليوم، فقد استطاع الجندي المصري الذي يقف على قدميه، وعلى كتفيه مدفعه، أن يُسقط أكثر من عشرين دبابة ومدرعة وحده، وكثير من المتحمسين للإسلام ينظرون إلى البطولات الفردية، وينسون الإعداد، وملاحقة التقدم التقني، والبعض الآخر يستغرق في التفكير في ملاحقة الإعداد حتى ييأس من تجاوز الفجوة الكبيرة بيننا وبين أعدائنا، ورغم اجتهاد كل منهما إلا أنه اجتهاد موصل للضرر المحقق، والصواب أن نسعى في الأمرين معا، ولنعلم أننا غير مطالبين بأن نكون أكثر تفوقا من عدونا في عدته وعتاده، فهذا لم يحدث في أي معركة انتصر فيها الإسلام والمسلمون، بل القاعدة أن المسلمون ينتصرون بإيمانهم رغم نقص عتادهم، والله تبارك وتعالى يوضح هذه السنة الإلهية بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْـمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ۞ الْآنَ خَفَّفَ الله عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال٦٥- ٦٦].

ويحثنا النبي ﷺ على التركيز على صناعة السلاح حين يقول: ﴿إن الله ﷻ يدخل ثلاثة نفر الجنة بالسهم الواحد: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي، ومُنَبِّله﴾[1]؛ ولذلك قال الأئمة: إن تعلم الفروسية واستعمال الأسلحة فرض كفاية، ونحن نزيد عليهم صناعة السلاح، فهم لم يذكروا ذلك لأن السلاح كان منتشرا مع كل رجل في المجتمع، فإذا نادى منادي الجهاد امتطى فرسه، وحمل قوسه ونبله، وأشهر سيفه من غمده، وسار مع رفاقه على بركة الله، واليوم نحتاج إلى تعاون المسلمين على صناعة أحدث ما أنتجته العقلية العسكرية في العالم.

إن جهاد الكفار بالمال والنفس من أكبر مهام المتقين، الذين يدخلون بجهادهم هذا في معية الله ﷻ، قال تعالى: ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِـهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالله عَلِيمٌ بِالْـمُتَّقِينَ﴾ [التوبة-٤٤]، ومن أخص صفات السلف الغلظة، رغم أنها مذمومة في كل موضع، ولا تحمد إلا في جهاد الكافرين

١ حديث عقبة بن عامر أخرجه أبو داودفي سننه والترمذي والنسائي.

Upload by : altawhedmag.com

الذين ينقضون عهدهم مع المسلمين، أو الذين غدروا لإخراج المسلمين من ديارهم، وظاهروا عليهم: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْـمُتَّقِينَ﴾ [التوبة-١٢٣].

سابعا: الدعوة إلى الله ﷻ، واتباع أحسن القول

إن أهل التقوى الذين وصلوا إلى مقامات الإحسان والفهم عن الله تبارك وتعالى، مطالبون بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر وتحمل الأذى بسعة صدر، حتى يبلغوا النَّاس رسالات الله ﷻ، وهذا المعنى نستقيه من قول الحق جل شأنه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْـمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْـمُهْتَدِينَ ۞ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل ١٢٥: ١٢٨].

والقرآن الكريم يخاطبنا في توجيه إلهي للعام والخاص، وللذاكر والغافل، وللعالم والمتعلم، أن الخلق جميعا لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وورد أن الخضر عليه السلام قال لموسى عليه السلام: لما رأى طائرا يشرب قطرة ماء من البحر، فقال: "ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا كما شرب هذا الطائر من البحر"، والنَّاس كانوا أمة واحدة ثم اختلفوا، وهذه سنة الله في خلقه، فسيستمع المؤمن إلى أقوال كثيرة، وآراء متباينة، وأهواء شتى، فما العمل؟ وكيف يتصرف السالك إلى الله ﷻ؟

الجواب: لا بد له يتبع إلا أوامر الله ﷻ، ورسوله ﷺ، ويتبع ما كان عليه ﷺ، وأصحابه من السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ۞ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ۞ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۞ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْـمِيعَادَ﴾ [الزمر ١٦: ٢٠]، وسبيله إلى ذلك هو استماع القول ثم اتباع أحسنه، وأولئك هم الذين هداهم الله، وهم أولو الألباب، وهم الذين اتقوا ربهم فوقاهم النار، وجزاهم الجنة، ولهم البشرى في الحياة الدنيا حتى يطمئنوا إلى سلوكهم مع الله ﷻ.

Upload by : altawhedmag.com

ثامنا: التقوى محصلة الخير كله

لما كانت التقوى هي أصل جامع لكل الخيرات فقد ذكر القرآن الكريم صفة التقوى مقترنة بعدد من الصفات الإيمانية الأخرى، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران-١٧٩].

- **اقتران الإيمان بالتقوى**: إن الإيمان والتقوى متلازمان، فقد قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة-٥٧]، ﴿وَاتَّقُوا الله الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة-٨٨]، ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة-٩٣]، والله ﷻ يعطي لمن جاء بهما أجرا عظيما في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف-٩٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والتقوى خير رداء وزينة للمؤمن، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف-٢٦]، ثم إن التقوى ليست لباسا فقط، وإنما هي زاد أيضا لقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة-١٩٧]، فالمؤمن حين يتقي الله، يجعل تقوى الله قبل كل فعل، ويتحرى في أفعاله منهج الله حتى يكون العمل مقبولا عنده سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْـمُتَّقِينَ﴾ [المائدة-٢٧]، ثم يتقي الله بعد كل فعل، فالتقوى تسبق العمل، وهي كذلك تصاحبه، ثم تلحق به، وهذا الترتيب نستقيه من قوله تبارك وتعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر-١٨]، فهناك أمر بمراقبة الأعمال التي سيحاسب عليها العبد يوم القيامة، وهذه المراقبة محصورة بين أمرين بالتقوى: أمر يسبقها، وأمر يلحق بها، والإنسان لا يكون من الصادقين إلا بعد الإيمان والتقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة-١١٩].
- **اقتران الصبر بالتقوى**: يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران-١٨٦]، إن التقوى مع الصبر من عزم الأمور، فالصبر على الاستقامة، والخوف من الله ﷻ، ومراقبته في السر والعلن، لا يستطيع ذلك إلا من ملك نفسه، وغلب هواها،

Upload by : altawhedmag.com

ووصل إلى مقام الإحسان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله لا يُضِيعُ أَجْرَ الْـمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف-٩٠].

- **اقتران الإحسان بالتقوى**: يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّـقُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء-١٢٨]، فمن يعلم أن الله خبير بأعمال عباده، ومطلع على دقائق نياتهم، ولا يخفى عليه شيء من إخلاصهم، أدرك مقام الإحسان والتقوى.
- **اقتران الإصلاح بالتقوى**: يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ الله كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء-١٢٩]، إن المتقين ليسوا في معزل عن الحياة، بل هم مصلحون سواء في أعمالهم بينهم وبين الله ﷻ، أو في أعمالهم مع النَّاس، فلْيَعلم المصلحون الذين هم من أهل التقوى أن الله غفور رحيم، وأنه سيجازي على النيات حتى ولو لم يأتِ الإصلاح بالثمرة المرجوة.
- **اقتران الهدى بالتقوى**: يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد-١٧]، فالذين يهتدون إلى الله ﷻ يبشرهم سبحانه بمزيد من الهدى، كما يتفضل عليهم بعطاء التقوى.

تاسعا: أهل التقوى هم أهل ولاية الحق

يحدد القرآن في آياته المباركات صفات أولياء الله ﷻ حتى نعرفهم بها، وحتى لا يختلط علينا الأمر، فيقول تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْـمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال-٣٤]، وهذه الآية تقرر حقيقة الأولياء بأنهم الأتقياء، فالله تبارك وتعالى يتولى عباده المؤمنين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، ونصروا كتابه، وسنة نبيه ﷺ، فيزيدهم نورا على نور، ويرقيهم على سلم الهداية مقاما بعد مقام.

كما تفضل عليهم أولا بالخروج من ظلمات الجهل إلى نور الفهم، ومن جهالات وشقاء الشرك إلى أنوار وسعادة التوحيد، يقول عز من قائل: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة-٢٥٧]، ﴿وَالله وَلِيُّ الْـمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية-١٩]، وكما أن الله الولي تعهد عباده المؤمنين وأيدهم وأعزهم ونصرهم وقربهم، ومن عليهم بالهدى، كذلك يفيض عليهم بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد-١٧].

فإذا اتصف العبد بالإيمان بشقيه القلبي والعملي، واتصف أيضا بالتقوى أفاض الله عليه بنعمة الولاية، حيث يقول: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا

Upload by : altawhedmag.com

وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس٦٢: ٦٤].

فأهل الإيمان والتقوى هم الأولياء، وهذا ما حدده القرآن الكريم، ولقد كانت معاني كلمة الولي واضحة عند السلف الصالح، فالولاية في اللغة هي القرب، والدنو، والمحبة، والولي هو الصديق، والنصير، فمن كان محبا لله، تقرب إليه بالنوافل، ومن كان ناصرا ونصيرا لدين الله جاهد نفسه وهواه، كما جاهد أعداء الدين، وجاهد لإحياء سنة رسول الله ﷺ، ومن كان قريبا لله ﷻ زادت خشيته، وعظم وجله، واتسع رجاؤه، وحسن ظنه بمولاه، كما أن ولاية الله للعبد أيضا هي عطاء من جنس العمل، فمن جاء الله يمشي أتاه هرولة، ومن نصر دينه وشرعه نصره الله ﷻ وأيده، ومن أحب الله أدخله في كنفه، وأحبه وأحب أحبابه، بل وأطلق محبته في الكون، والويل لمن عادى محبا لله، محبوبا من الله ﷻ، فكأنه بارز الله بالمحاربة، ولا شك أن هذه المنزلة هي الغاية في مقامات التقوى ودرجات المتقين.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الرابع

ثواب المتقين في الدنيا

يعامل الله سبحانه وتعالى المتقين معاملة خاصة في الحياة الدنيا، فهو سبحانه وتعالى يختبرهم ويبتليهم ليرفع درجاتهم، ويتم عليهم نعمه وفضله، وفي نفس الابتلاء يظهر الله لعبده علامات اليسر والفرج من حيث لا يدري، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق٢-٣]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق-٤]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق-٥]، هذا عطاء الله لكل تقي، تُرى ما ثواب جماعة المتقين؟

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف-٩٦]، إن تقوى الجماعة تحدث تغييرا في الكون كله، فبأمر الله تعالى تفتح عليهم البركات من السماء، وتفتح لهم خزائن الأرض، بل إنهم يسودون الأمم، ويرثون الممالك، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْـمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف-١٢٨]، إن سعادة الدنيا في تنزل بركات السماء والأرض على المتقين، ولو استقام المسلمون على التقوى لأورثهم الله الأرض، لأنه يعلم سبحانه أنه إن مكنهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وفي ذلك سعادتهم وإقامة العدل بينهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّـقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال-٢٩]، ومن عطاء الله للمتقين أن يجعل لهم نورا في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل، ويميزون به بين الطيب والخبيث، ويعصمهم من مواطن الزلل، ويهديهم إلى ساحات الرحمة والمغفرة، وهذا النور يضعف كيد الشيطان، بحيث يصبح لا وزن له عليهم، ولا تأثير لوسوسته عندهم، فهم في حضور مع الله، وهذا الفرقان يأخذ بأيديهم ويهديهم إلى مقامات الفلاح والشكر، ويجعلهم أهلا لرحمته سبحانه لقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا الله يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة-١٠٠]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران-١٢٣]، وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام-١٥٥]، ومن أطيب عطاء الله للمتقين عند وفاتهم، أن تتلقاهم الملائكة بالروح، والريحان، والأمن، والأمان، حتى يخرجوا

Upload by : altawhedmag.com

من الحياة الدنيا، وقد طابت نفوسهم لعبودية ربهم، كما طابت أرواحهم لملاقاته ﷻ في الآخرة، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْـمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْـمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل٣١-٣٢].

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الخامس

ثواب المتقين في الآخرة

إذا استعرضنا آيات الله المباركات التي تصف عطاء الحق سبحانه لأهل التقوى، الذين عاشوا حياتهم الدنيا يخافون النار، ويخشون يوم يلقونه وتعرض الأعمال عليه، وكلهم آتية فردا، ثم هم يتقون الله ويشغلون أوقاتهم بعبادته ﷻ، ويتقلبون في صور العبودية المختلفة، فهم ما بين صابر وشاكر، ومسبح وذاكر، وقائم وراكع، وتالٍ لكتاب الله ﷻ وقانت، ومتدبر لآياته وساجد، فالحكمة ضالته، والعلم بالله ﷻ غايته، والتذلل إلى الله ﷻ وسيلته، والانكسار إلى الخلق ثمرة طاعته لله ورسوله، كما أن محبة رسول الله ﷺ نور طريقه، وجلاء فهمه، وهو يتلمس أقواله بشوق العاشقين، ويتتبع خطوات أقدامه بلهفة المحبين، غاية آمانيه رؤية وجهه ﷺ في المنام، فتلك بشرى من العزيز الحكيم لعباده المشتاقين، تُسري عن روحه، وتحثه على مزيد السعي، فيشمر عن ساعد الجد بمزيد من العبودية والطاعة لله ﷻ، ومثله الأعلى صحابة رسول الله ﷺ وتلامذته الأوائل، والسلف الصالح حيث أوصانا بذلك محمد ﷺ، وقد حذرنا هنا جميعا من الاختلاف وكثرة الأهواء، وخاطب الخلف وحدد لهم النجاة في قوله ﷺ: ﴿ما أنا عليه وأصحابي﴾[1]، ولهذا نرى المتقين يبحثون في أحوال الصحابة الكرام الذين ثبت لهم من الله الأمن والرضوان، وتلقوا عن رسول الله ﷺ وحي ربهم رطبا نديا، وسمعوا وعقلوا بيان الحبيب المصطفى ﷺ في الكتاب، وتلقوا عنه الحكمة، وسكنت قلوبهم ولانت لها جوارحهم، فنصروا الدين وأعز الله بهم الإسلام، أولئك حزب الله، وأولئك هم المفلحون.

وإذا نظرنا في الآيات المباركات نجد عطاء الله للمتقين عظيما، وحفاوته بهم كبيرة ترغيبا لهم وتشويقا، حتى يلقاهم يوم القيامة بصور العطاء، ما لا يعلمه إلا هو وحده، فيدخلهم جنات الرضوان، وفيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإذا عشنا لحظات يسيرات مع وصف الله ﷻ مما أعده للمتقين لوجدنا الآتي:

---

١ أخرجه الترمذي الحديث ٢٥٦٥

Upload by : altawhedmag.com

أولا: النجاة من النار: المتقون آمنون يوم الفزع الأكبر، فمن خاف ربه في الدنيا يكتب له النجاة يوم القيامة من عذاب الجحيم، ومن أمنه في الدنيا، وخالف شرعه، وابتعد عن الطاعة، وآنس المعصية، ناله من العذاب جزاء ما قدمت يداه، فالمتقون آمنون ليس لهم أن يحزنوا، ولا يمسهم السوء، بل لهم الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، وكرامة المتقين عند الله تبارك وتعالى في أن ينجيهم من كل أهوال يوم القيامة، وليس النجاة من دخول النار فقط، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر-٦١]، ويروي لنا الحديث الشريف كيف عكف رجل من الأمم السابقة على معصية الله تعالى طوال حياته، ثم أدرك قبل موته أنه ملاقٍ ربه، فخاف من عذابه، وكان من أمره ما يقصه علينا حديث حذيفة، حيث قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿إن رجلا حضره الموت لما أَيِسَ من الحياة أوصى أهله: إذا مت فاجمعوا لي حطبا كثيرا، ثم أوروا نارا، حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي، فخذوها فاطحنوها، فذروني في اليم، في يوم حارٍّ، أو راحٍ، فجمعه الله، فقال: لِمَ فعلت؟ قال: خشيتك، فغفر له﴾[1]، فالخوف من النار أورثه المغفرة، فسبحان من أفاض على خلقه برحمته ومغفرته، وقال علي بن أبي طالب ﷺ: "يا ابن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصاه فاحذره"، وقال أيضا: "الحذر الحذر، فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر"[2]، وتَروي لنا قصة الأعرابي الذي وقف على أمير المؤمنين عمر بن الحطاب ﷺ يطالبه بعطاء، ويخوفه من السؤال يوم القيامة ويحذره من النار، كيف استجاب أمير المؤمنين لخشيته من ذلك اليوم، فقد قال الأعرابي:

يا ابن الخطاب جزيت الجنة أكس بنـاتي وأُمَّهُنـه

أقسـم بالله لتفعلنه

فقال عمر: إن لم أفعل يكون ماذا؟ قال: إذا أبا حفص لأمضينه، فقال عمر: إذا مضيت يكون ماذا؟ قال الأعرابي:

---

١ حديث حذيفة بن اليمان متفق عليه أخرجه البخاري حديث رقم ٣٢٢٠، ومسلم ٢٩١٧، ٢٩١٨،٥٢٢٣، والنسائي ٢٠٥٣، وابن ماجه ٢٤١١، وأحمد ٢٢١٦٩، والدارمي ٢٤٣٤

٢ نهج البلاغة المنسوب لعلي بن أبي طالب.

Upload by : altawhedmag.com

تكون عن حالي لتسألنه يوم تكون الأعطيات جنة
والواقف المسئول يبهتنه إما إلى نار وإما إلى جنة

فبكى عمر، ثم قال لغلامه: أعطه قميصي هذا، لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك ثوبا غيره.

ثانيا: يحشرون وفدا: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْـمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم-٨٥]، فالمتقون يحشرون يوم القيامة إلى الرحمن - ولم تأتِ الآية القرآنية بأي اسم من أسماء الله يتجلى به الله تبارك وتعالى على المتقين يوم يحشرون إليه إلا الرحمن، وهو الاسم الجامع لمطلق الرحمة - فمن رحمته أن يأتيه النَّاس فردا فردا عدا المتقين، فإنه يحشرهم وفدا، وإنما قيل: وفدا لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالبشارات، وينتظرون الجوائز، فهم أهل في ذلك اليوم للعطاء والثواب.

ثالثا: وصف جنات المتقين: فإذا سيقت مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، وأشرف وفد الرحمن زمرا - أي جماعات - على الجنة، وجدوا أبوابها قد فتحت قبل وصولهم زيادة في كرامتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۞ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ۞ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [سورة ص٥٠ -٥١]، وقال بعض العلماء: "إن الجنة تبقى مفتحة الأبواب حتى بعد دخول أهلها، بعكس المجرمين، فإنهم وقفوا على النار وأبوابها مغلقة، ثم ينتظرون فتحها، وذلك زيادة في إذلالهم وترويعا لهم، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، كما أن أبواب النار مغلقة على أهلها: قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۞ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهُمَزَة ٨-٩]، وتصف الآيات في سورة الزمر موكب أصحاب الجنة، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّـهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۞ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۞ وَتَرَى الْـمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَـمِينَ﴾ [الزمر٧٣: ٧٥]، ويشير حرف الواو في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، إلى أن أبواب الجنة قد فُتحت قبل

Upload by : altawhedmag.com

أن يأتوها[1]، وكما تلقت الملائكة أرواح المؤمنين عند وفاتهم بالبشرى والكرامة، ها هو فوج آخر من الملائكة يتلقاهم على أبواب الجِنان، فيخرج خزنة الجنات إلى المتقين، مرحبين بهم زيادة في الكرامة، فيتعرفون عليهم ويصحبون كل واحد إلى قصوره وما أعده الله ﷻ له، فلا يجد المتقون قولا يناسب ذلك المقام إلا أن يقولوا: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾، وأنْعِم وأكرم بمقام فيه العبد ناظر للملائكة حافين من حول العرش، يسبحون بحمد ربهم، وفي عبودية كاملة لله ﷻ، يقولون: الحمد لله رب العالمين.

- **جنات عدن**: نصت الآيات الكريمة على أن جنات عدن هي دار المتقين، قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْـمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۞ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۞ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۞ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [سورة ص ٤٩: ٥٢]، ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۞ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۞ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم٦١: ٦٣]، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْـمُتَّقِينَ ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي الله الْـمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْـمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل٣٠: ٣٢].
- **جنات عرضها السموات والأرض**: يقول سبحانه ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران-١٣٣]، فإن كان عرضها كعرض السموات والأرض، فما بالك بطولها؟.
- **جنات النعيم**: قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْـمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم-٣٤].
- **جنة الخلد**: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْـمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان-١٥].

---

١ وذلك بخلاف الكافرين، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، أي أنها لم تفتح إلا بعد أن جاءوها.

Upload by : altawhedmag.com

- **صور نعيم الجنة**: يصور القرآن الكريم نعيم الجنة، وما أعده الله تبارك وتعالى فيها لعباده المتقين بما يحدوا بأرواحهم إلى بلاد الأفراح، حتى إذا علموا ما أعده الله لهم هانت عليهم مصائب الدنيا، وقويت عزيمتهم على الصبر وانتظار الفرج، كما ازداد شكرهم على نعمه وآلائه، وحرصهم على توجيهها فيما يرضي المنعم سبحانه، فلا المصائب حجبتهم، ولا النعم شغلتهم، بل غايتهم أن ينالوا رضوان الله والنجاة من عذابه؛ لذا نسوق هذه الصور القرآنية راجين الحق سبحانه أن يرزقنا تلاوة هذه الآيات في الدنيا، والاستمتاع بما فيها من عطاء يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْـمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر ٥٤-٥٥]، ﴿إِنَّ الْـمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۞ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر٤٥: ٤٩]، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ۞ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ٣١: ٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْـمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات٤١: ٤٣]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الْـمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ۞ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان ٥١: ٥٥]، وقال الله تعالى أصدق القائلين: ﴿إِنَّ الْـمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۞ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۞ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۞ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور١٧: ٢٨]، ولما ذهب المتقون بكل خير

Upload by : altawhedmag.com

علمنا رسول الله ﷺ من صالح دعائه أن نقول: ﴿اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى﴾[1].

١ حديث عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم ٤٨٩٨، والترمذي ٣٤١١، وابن ماجه ٣٨٢٢، وأحمد ٣٥٠٩، ٣٧٥٤، ٣٩٤٩، ٣٩٢٢

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الحادي عشر

- القلوب تصدأ تمامًا كما يصدأ الحديد، ولا بد من الإيمان والتقوى لجلائها من هذا الصدا.
- التقوى هي جماع الخيرات، وحقيقتها الوقاية بطاعة الله من عقوبته.
- تتفاوت درجات التقوى، فأصل التقوى اتقاء الشرك، ثم اتقاء المعاصي والسيئات، ثم اتقاء الشبهات، ثم اتقاء الفضول من الحلال.
- حدد الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ أن التقوى هي الأساس الوحيد للتفاضل بين النَّاس.
- أول أعمال المتقين التمسك بكتاب الله ﷻ، واتباع ما جاء به، وأخذ الوقاية في متابعة أحكامه ومراعاة حدوده، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار.
- الفلاح مرتبط باستمرار أعمال الطاعات والصبر عليها، والمرابطة على التقوى، وأخذ الوقاية مما يخاف ضرره يوم القيامة.
- كثير من المتحمسين للإسلام ينظرون إلى البطولات الفردية، وينسون الإعداد، وملاحقة التقدم التقني، والبعض الآخر يستغرق في التفكير في ملاحقة الإعداد حتى ييأس من تجاوز الفجوة الكبيرة بيننا وبين أعدائنا.
- ثواب التقوى وأثرها غير مقتصر على الآخرة فقط، بل هو يتعدى أثرها إلى الدنيا أيضًا، فالمتقين لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الثاني عشر

الإخلاص والمتابعة

جناحا السلوك

١. من معاني التوحيد

٢. الإخلاص في العبودية

٣. متابعة النبي الخاتم

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

من معاني التوحيد

بني الإسلام على خمس، وقامت عقيدته على الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ومن أقر بها فقد عصم نفسه وماله، وأصبح من المسلمين، وكثير من النَّاس يظن الأمر نطق كلمات فقط، وربما استشهد على نجاة من تلفظ بها -ولو لم يقم بحقها- بأحاديث، منها: قال النبي ﷺ: ﴿يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن بُرَّة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن ذرة من خير﴾[1]، وروى أنس بن مالك، أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل، قال: يا معاذ بن جبل، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا، قال ﷺ: ﴿ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، صدقا من قلبه، إلا حرمه الله على النار، قال: يا رسول الله أفلا أُخبر به النَّاس فيستبشروا؟ قال: إذًا يتكلوا، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما﴾[2].

وفاتهم أن الأمر أعمق من هذا بكثير، فشهادة التوحيد هي مفتاح الجنة، كما ذكر البخاري في صحيحه، أنه قيل لوهب بن منبه: "أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟

قال: بلى، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح"[3].

والمسلم الذي ينطق بالشهادة من قلبه شهادة صادقة حقا مطالب باستكمال العمل بأركان الإسلام، واستيفاء شعب الإيمان، ثم السلوك في مراتب الإحسان -وذلك لمن أراد المنازل العالية

---

١ حديث أنس بن مالك متفق عليه أخرجه البخاري ٤٢، ومسلم ٢٨٤، والترمذي ٢٥١٨، وابن ماجه ٤٣٠٣، وأحمد ١١٧١٠، ١٢٠١٣

٢ حديث أنس بن مالك أخرجه مسلم حديث رقم ١٢٥، وتأثما: خوفا من الوقوع في الإثم.

٣ رواه البخاري في الجنائز، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه "لا إله إلا الله"، ٣: ١٣١، رغم أن وهب بن منبه يروى عنه الكثير من الإسرائيليات إلا أن البخاري روى عنه هذا الأثر، الذي تؤيده الكثير من الشواهد.

Upload by : altawhedmag.com

في الجنة-، مع مداومته لتصحيح النية والإخلاص في القول والعمل، ومن لم يسلك ذلك بعد شهادته يشكك في صدق شهادته هذه، فالله ﷻ يحذرنا بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف-١٠٦]، فكثير من النَّاس يعتقد أنه مؤمن، وهو في حقيقة الأمر مصاب - إلا ما رحم ربي - بالرياء، أو النفاق، أو بالشرك سواء الأصغر أو الأكبر، أو الشرك الظاهر أو الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وقد تحاول أن توضح لبعض النَّاس حقائق التوحيد، إلا أن الخطر شديد، ولا ينجو منه إلا من رحم ربي، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف-١٠٣].

فشهادة التوحيد ليست ألفاظا تقال فقط، وإنما هي في حقيقتها منهاج حياة مرتبط ارتباطا كليا بفهم روح هذا الدين كما جاءت به الرسل، وليس كما نراه اليوم، وقد تأولت به الفرق وتاهت حقائق الدين في أذهانهم مع أهواء الناس، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راض﴾، ويعلق أنس بن مالك ﷺ على هذا الحديث تعليقا مهما يوضح ما نرمي إليه، قال أنس: "وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل، يقول الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾، قال: خلع الأوثان وترك عبادتها، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [وقال في آية أخرى:] ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة-١١]"[1].

وتعليق أنس ﷺ يضعنا أمام حقيقة أننا يجب أن نفهم التوحيد والإخلاص كما تعلمه الصحابة عن رسول الله ﷺ، ويقول أبو الدرداء ﷺ: "استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع".

ولبيان حقيقة التوحيد نقول وبالله تعالى التوفيق: إن الإقرار بنفي جميع الآلهة وإثبات الألوهية لله الواحد القهار معناه طاعة هذا الإله وحده، والالتزام بمنهجه وحده، فلا طاعة لعادات الآباء وتقاليد الأجداد وشطط المشايخ والكبراء، فقد عرَّفنا رسول الله ﷺ أن طاعة اليهود والنصارى للأحبار والرهبان عبادة لهم من دون الله، فالعبودية الحقيقية تقتضي ذلك، فليس من

١ حديث أنس بن مالك أخرجه ابن ماجه في سننه رقم ٦٩

Upload by : altawhedmag.com

المعقول أن تعبد إلهك وتطيع سواه، ومن يفعل ذلك كاذب في دعواه، وقد صدق من قال هذه الأبيات التي تنسب إلى رابعة العدوية:

تعصى الإله وأنت تظهـــر حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعـته إن المحب لمن يحب مطيـــع

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

الإخلاص في العبودية

وليس الأمر طاعة فقط، وإنما الإخلاص في الطاعة، ونستعرض معاني الإخلاص في اللغة ليساعدنا على فهم دلالات الإخلاص، يقول علماء اللغة: إن أصل كلمة إخلاص: من "خَلَصَ الشيء إذا كان قد نَشِب ثم نجا وسلم، وأخلص الشيء أي اختاره، والمُخْلَص الذي أخلصه الله أي جعله مختارا خالصا من الدنس، والمُخْلِص: هو الذي وَحَّد الله تعالى خالصا"[١]، والخِلاص ما أخلصته النار من الذهب وغيره وكذلك الخُلاصة، والخالص: هو الأبيض من الألوان، والزبد: خلاص اللبن أي منه يستخلص، أي يستخرج.

ويستخلص من معاني الإخلاص نفي الاختلاط في النية، وإفراد الحق تبارك وتعالى بالعبودية، والوصول إلى حقيقة التوحيد بنفي الشركاء والأغيار، ففي الحديث القدسي عن رب العزة، أنه ﷻ قال: ﴿أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء وهو للذي أشرك﴾[٢]، فالإخلاص هو تصفية التوحيد من كل شرك، وتصفية العمل من إرادات النفس، وتصفية النية من كل رياء، حتى يصير التوحيد كالزبد المستخلص من اللبن، وكالذهب الذي تستخلصه النار من المعدن الخام، حتى يصل عمل العبد إلى ربه خالصا صافيا زاهيا كاللون الأبيض من بين الألوان، وفي الحديث الشريف: "لا يقبل الله عملا فيه مثقال حبة من خردل من رياء"[٣]، ويقول عقبة بن عامر ﷺ: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَعْجَب ربك من راعي غنم في رأس شظية الجبل، يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله ﷻ انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة﴾[٤]، فصلاة هذا الراعي بعيدة عن الرياء، فهو لا يبتغي شهرة ولا محمدة بين النَّاس، لذلك كان ثوابه الجنة.

---

١ لسان العرب لابن منظور.

٢ سنن ابن ماجه ٤١٩٢، وأخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد.

٣ رواه ابن جرير الطبري عن القاسم بن مخيمرة مرسلا.

٤ حديث عقبة بن عامر أخرجه النسائي ٦٦٠، وأبو داود ١٠١٧، وأحمد ١٦٦٧٤، ١٦٨٠١

Upload by : altawhedmag.com

ولذلك قارن العلماء بين عمل السر وعمل العلانية اختبارا للإخلاص: يقول سفيان بن عيينة: "إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الفجور"، ويقول الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل النَّاس رياء، والعمل من أجل النَّاس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

ولما كان الإخلاص هو: قصد وجه الله تبارك وتعالى بالعبودية، بعيدا عن الرياء والهوى، فيمكننا أن نفهم أبا مدين حيث يقول:" الإخلاص: ما خفي على النفس درايته، وعلى الملك كتابته، وعلى الشيطان غوايته، وعلى الهوى إمالته"، ويجب ألا يكون الإخلاص شيئا طارئا على العبد إذا مرت به لحظات اضطرار إلى الله ﷻ فقط، فالإخلاص الوقتي لا يرفع الأعمال إلى الله ﷻ، فالذي يركب سفينة تجري به في يسر ورخاء وهو في غفلة عن ربه، فإذا غشيها من الموج ما غشيها، وعصفت بها الرياح من كل مكان، وأدرك أنه مدرك، وأن حياته في خطر، تراه يسارع في الدعاء، معاهدا ربه على التوبة والإقلاع عن الذنوب إذا نجاه الله بل سيعمل صالحا، وسيكون من الشاكرين، وهذا ما يصوره القرآن الكريم حيث يصور حال الاضطرار الوقتي بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس٢٢-٢٣]، فهذا الاضطرار الوقتي لا يؤتي ثماره المرجوة في النفس، فهي لا تعود إلى السلوك القويم بعد أن تنكشف الغمة، ويأتي الفرج من الله ﷻ، لأن هذا الإخلاص لم يمر على المراحل التي تحددها الآية الكريمة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِالله وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ الله الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء-١٤٦].

فأولى مراحل الإخلاص هي تحقيق التوبة النصوح والإقلاع عما يغضب الله تعالى، والندم على ما سلف وكان، وعقد النية على عدم العودة، وتعويض ما فاته من الطاعات، ثم إصلاح الأعمال والمسارعة في الخيرات، والاستباق في عمل الصالحات ثم المداومة عليها، والاعتصام بالله وحده، والاستعانة به جل شأنه، فمن قام بهذه الأمور، فقد وصل إلى درجة تمكنه من إخلاص العمل لله، وكل هذه المعاني مندرجة تحت قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة٥-٦].

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

متابعة النبي الخاتم

والإخلاص أحد جناحي السلوك إلى رضوان الله تعالى وفيه تحقيق معنى "لا إله إلا الله"، فكذلك صدق متابعة النبي ﷺ هو تحقيق معنى "محمد رسول الله"، فكيف يقر المسلم بشهادة التوحيد، ثم يتبع هديا غير هدي نبيه، لا شك أن هذا الفعل يكذب منطوق اللسان بشهادة التوحيد، وهنا ينبغي الالتفات إلى أن دين الله ليس كلمات يقولها لسان النَّاس، وقلوبهم لاهية عن معانيها، وأفعالهم تهدم ما تنطق به ألسنتهم، ولهذا كان اتباع النبي ﷺ دليلا على محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران-٣١]، وفي نفس الوقت هو السبيل الموصل لمحبة الله للعبد، يقول سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر-٧]، وقد أوضحنا في الأبواب السابقة الفرق بين التقليد والاتباع، فلا حاجة لنا أن نعيد الكلام هنا، وما يخصنا بيانه هو الاتباع من حيث أنه الجناح الثاني بعد الإخلاص، فالعبد يسير على الصراط المستقيم سيرا متوازنا لا ميل فيه ولا حيود، أما من بذل في الإخلاص كل جهد وفاته اتباع النبي ﷺ فلا ينفعه عمل طالما اتبع غير نبيه، وسار على درب أي ناعق، ومن اتبع رسول الله ﷺ في أفعاله، وغاب عن قلبه معاني الإخلاص، أو عمل طاعته رياء، أو أشرك بقصده معبودا مع الله ﷻ، أو كانت أفعاله طلبا للمكانة والمنزلة عند النَّاس، فليطلب ثواب أفعاله من النَّاس يوم القيامة، فالله ﷻ أغنى الأغنياء عن الشرك.

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الثاني عشر

- إن المسلم الذي ينطق بالشهادة من قلبه شهادة صادقة حقا مطالب باستكمال العمل بأركان الإسلام، واستيفاء شعب الإيمان، ثم السلوك في مراتب الإحسان -وذلك لمن أراد المنازل العالية في الجنة-، مع مداومة تصحيح النية والإخلاص في القول والعمل.

- شهادة التوحيد ليست ألفاظا تقال فقط، وإنما هي في حقيقتها منهاج حياة مرتبط ارتباطا كليا بفهم روح هذا الدين كما جاءت به الرسل.

- الإخلاص أحد جناحي السلوك إلى رضوان الله تعالى، وفيه تحقيق معنى "لا إله إلا الله".

- لا يستقيم الإخلاص لله تعالى إلا بمتابعة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وهو تحقيق معنى محمد رسول الله.

Upload by : altawhedmag.com

الباب الثالث عشر

الرفيق

قبل الطريق

١. مراحل الأخوة عموما

٢. مراحل الأخوة الإيمانية

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

لا بد للسالك إلى الله تبارك وتعالى أن يدرك أنه طالما جاهد نفسه، وحارب هواها، وزهد في متاع الغرور، وأحكم السفينة، وأكثر من الزاد الذي يوصل إلى بر النجاة، فقد استوحش من النَّاس وأصبح في غربة، وإن كان في وطنه وبين أهله، كما ورد في الأثر "طلب الحق غربة"، فأكثر النَّاس يرغبون في الدنيا، زاهدون فيما عند الله، وأغلب الخلق شغلتهم العاجلة فغفلوا عن الآجلة، ويرون الآخرة شيئا بعيدا، وهم يعتقدون أنهم في بحبوحة من الوقت وطول من العمر، فيسوفون التوبة، ويرجئون الندم على ما قدمت أيديهم، وتراهم يبحثون عن المتع، وينقبون عن الشهوات، ويتعاونون على الإثم، ولا يستحون من العدوان، وتحكمت الغرائز في علاقاتهم، وأصبح النفع العاجل، والمكسب والخسارة، هو المعيار والميزان الذي يزنون به تصرفاتهم، وافتقد النَّاس القدوة، وطال بحثهم عن التطبيق العملي للمثل العليا والمبادئ السامية، فلا عجب أن يقرر القرآن العزيز ذلك: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف-١٠٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام-١١٦]، والمرء في حيرة: كيف يعامل الناس؟ أيقبل عليهم؟ أم ينأى عن طريقهم؟ وجزى الله الشافعي حيث يدلنا على الطريقة المثلى لمعاملتهم في قوله: "الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط"، ولا بد للسالك إلى الله تعالى من تقديم الود وحسن الخلق في تعامله مع الناس، وقد قيل: "عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حنوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم".

فطالب الهداية الذي عقد نيته على تقوى الله وحسن الخلق، يسلك طريق القلة، ويبتعد عن طريق الكثرة والأغلبية، قال سفيان بن عيينة: "اسلكوا سُبل الحق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها"، وعلى السالك أن يدرك - في نفس الوقت - معركته مع الشيطان وعداوته القديمة، ومن أسباب نجاته مجاهدة النفس، والزهد في الدنيا، ومخالفة الهوى واتباع الظن والفتوى بغير علم، والتحقق من الدليل، والسؤال عن البرهان، أي أنه يقاتل أعداءه، بعد أن تبين له خطورة مهادنتهم، أو السير في ركابهم، وما كان الله تبارك وتعالى ليترك عبده هكذا وحيدا، وقد جاءه يسعى وهو يخشى فلا بد أن يجعل الله له أنيسا في سلوكه، ومشاركا له في أحواله وأمره، يشد به

Upload by : altawhedmag.com

أزره، ويعينه على ذكر ربه: ذلكم هو الأخ في الله والرفيق على الدرب والطريق، وسُئل الحسن البصري، فقيل له: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يحدثوننا حتى تكاد قلوبنا أن تطير، فقال: لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تدرك أمنا، خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يلحقك المخاوف"، وقد ورد في الأثر: "أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام، فقال: ما لي أراك منتبذا وحدانيا؟ قال: إلهي قليت الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظانا وارْتَدْ لنفسك إخوانا، وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه، فإنه عدو يقسي قلبك ويباعدك مني".

فالأخ في الله مهم جدا في سلوك العبد إلى مولاه، ولهذا بين الحديث الشريف درجة الأخوة في الله وثمراتها يوم القيامة، حيث قال رسول الله ﷺ: ﴿سبعة يُظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال [وفي رواية: إلى نفسها]، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه﴾[1].

وإذا استعرضنا أحوال هؤلاء السبعة تبين أن كلا منهم لم يصل إلى مقام ظل الله يوم القيامة إلا بمجاهدات شديدة: فعدل الإمام بين رعيته ليس أمرا هينا، ونشأة الشاب في عبادة الله تحتاج إلى كفاح كبير خاصة وقد أطلت الفتن اليوم على الشباب من كل حَدَب وصوب، وهكذا باقي أحوال السبعة، وقد يتوهم البعض أن الأخوة في الله أمر بسيط، وهذا ظن كثير من السالكين إلى الله، وليس معنى أنك تلتقي بأخ مسلم في مجلس علم، أو في ساحة مسجد، أنكما قد سرتما إخوان في الله، فالأمر أَجَلُّ من ذلك وأعمق، والله تبارك وتعالى نسأل أن يوفقنا لبيان حقيقة الأخوة في الله، والمراحل التي تمر على السالكين إلى الله حتى يصلوا إلى مقام الأخوة في الله.

١ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٦٢٠، ١٣٣٤، ٦٣٠٨، ومسلم ١٧١٢، والترمذي ٢٣١٣، وقال: حسن صحيح، والنسائي ٥٢٨٥، وأحمد ٩٢٨٨، ومالك في الموطإ ١٥٠١

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

مراحل الأخوة عموما

أولا: الأخوة العامة

هي أخوة الأصل الإنساني، فالنَّاس جميعا خلقوا من نفس واحدة، فالنَّاس لآدم، وآدم من تراب، ونحن جميعا مخاطبون بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء-١]، فالنَّاس مهما اختلفت ألوانهم، وأوطانهم، وعقائدهم، يجمعهم نشأة واحدة في الأصل، ثم جاء الاختلاف كما ينص على ذلك كتاب الله العزيز: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس-١٩]، هذا الاختلاف فرق الأمة الواحدة، وقطع معاني الأخوة العامة إلى مجموعات صغيرة حسب موقف كل فرد من هذا الاختلاف، وصدق الرسول الكريم ﷺ، حيث يقول: ﴿الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف﴾[1].

والمرء حر في اختيار أصدقائه، ولا حرج أن يكونوا من أمم أخرى، أو على عقيدة مخالفة، وقد نصحنا الحكماء بقولهم: "إياك ومصادقة الأحمق: فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا تصاحب البخيل؛ فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، ولا تصادق الفاجر؛ فإنه يبيعك بالتافه، وإياك أن تصاحب الكاذب؛ فإنه كالسراب يقرب لك البعيد، ويبعد عنك القريب"، وإياك وصحبة الجبان الذي قيل في وصفه:

وإذا خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

ويقول أبو الطيب المتنبي:

ومن العداوة ما ينالك نفعه ... ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

---

١ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري في مواضع كثيرة منها ٣١٠٤، ومسلم ٤٧٧٣، والترمذي ١٩٤٨، وأبو داود ٤١٩٤، وأحمد ٧١٨٣، ومالك في الموطإ ١٥٧٣، والدارمي في سننه ٢٢٥

Upload by : altawhedmag.com

ثانيا: الأخوة الخاصة

هي تلك العلاقات التي تجمع بين مجموعة من البشر نتيجة لظرف معين، كأخوة الوطن والاجتماع فوق أرض مخصوصة وبحدود معينة، أو أخوة التخاطب بنفس اللغة بين مجموعة من البشر، وهذه الأخوة عامة من حيث أنها تشمل كل ما ينطبق عليه هذه الخاصية، وهي خاصة من ناحية أن كل المجتمع الإنساني لا ينطبق عليه هذه الخاصية.

وإذا نظرنا في القرآن الكريم نبحث عن الخاصية التي اختارها الله تبارك وتعالى لتقسيم النَّاس نجد الإجابة في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة-٢١٣].

فأصل الاختلاف كما بينه القرآن الكريم في تلقي المنهج عن الله تبارك وتعالى، فمن النَّاس من استقبل المنهج بالإيمان واليقين، وأغلب النَّاس لهم موقف العناد مع الشرائع السماوية؟ ويوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء-٨٩]، ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس-١٧]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود-١٧]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف-١٠٣]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس-٩٢]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة-٤٩]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم-٣٠]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة-٢٤٣]، ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس-٤٤]، فأكثر النَّاس كافرون وجاحدون وغافلون، جاهلون وفاسقون وظالمون، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات-٦].

فالنَّاس إذًا من أصل واحد جمعتهم أخوة النشأة ووحدة الأصل، وهذا يفرض عليهم تعاملا بآداب محددة، ثم ها هم يختلفون حول المنهج؛ فمنهم مصدق، وأكثرهم له يكذبون، أما الأخوة الإيمانية فإنها تنشأ بغض النظر عن اللغة، والوطن، وأي عناصر أخرى تفرق بين النَّاس، ويحكم هذه الأخوة الإيمانية نهج التعامل الإسلامي الذي جاء به رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ في قوله تعالى:

Upload by : altawhedmag.com

﴿إِنَّمَا الْـمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات-١٠]، وهذه الآية تقرر حقيقة هي أخوة المؤمنين، ثم تكلفهم بصورة للتعامل فيما بينهم تجعل الإصلاح هو صورة المجتمع الإيماني، فطالما حافظوا على المنهج، وأصلحوا فيما بينهم فهم المؤمنون حقا، فإذا خالفوا نهج الله حادوا عن دعم أُخُوتهم، حتى يعودوا إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وهذه الآية القرآنية تقرر هذا المعنى بوضوح: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة-١١].

فهذه الآية تقرر صفات من يندرج تحت لواء الأخ في الدين، فالتوبة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، هي مظاهر المتابعة وإقامة الدين، وهذه الأخوة الإيمانية يمكن تقسيمها إلى درجات ومراحل.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

مراحل الأخوة الإيمانية

أولا: الزمالة

بعد أن جمع الإيمان بين فريق من النَّاس، تبدأ مراحل ترقي أخوة الإيمان من مراحلها الأولى عند قاعدتها الأساسية وهي الإسلام، إلى ذروتها عند القمة، وهي الأخوة في الله حيث مقام: "ظل الله، يوم لا ظل إلا ظله"، وأولى هذه المراحل أن يجمع بين المؤمنين عنصر آخر يقرب بينهم ويزيد من احتكاكهم وتعاملهم بعضهم مع بعض، فمن خلال هذا العنصر يتحقق نوع من الزمالة بين المؤمنين، سواء أكان عملا يجمعهم: مصنع، مزرعة، تجارة، مصلحة حكومية، جوار في إقامة، صحبة سفر، أو طاعة من الطاعات تجمعهم: [صلاة في مسجد، مجلس علم، مجلس قراءة قرآن، مجلس ذكر لله ﷻ...]، هذا العنصر يفرض نوعا من الزمالة بين المؤمنين، وهو مجال لتطبيق الآداب الإسلامية فيما بينهم، وكأن هذا العنصر الذي يجمع بين أخوة الإيمان هو اختبار لمدى تطبيقهم العملي للمنهج الذي ارتضوه وآمنوا به نظريا.

فالإسلام يطالب أبناءه أن يكونوا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا، ويأمرهم بالتعاون على البر والتقوى، وينهى عن التعاون على الإثم والعدوان، خلال هذه المرحلة يجد المؤمن في زملائه من هو قريب إلى قلبه، ومنهم من يعتقد صلاحه، ولكنه ليس قريبا إلى قلبه ومشاعره، ومنهم من يرى فيه عيوبا خطيرة، ومنهم من يحتاج فقط إلى تقويم بسيط، ولهذا على المرء أن يحاول نصح أخيه بصورة لطيفة ليس فيها هجوم، أو تقريع، وعليه أن يختار الوقت المناسب للنصيحة، وعليه أيضا أن لا يلفت نظره وسط الناس، أو بين إخوانه، وقد قيل: "من وعظ أخاه سرا زانه، ومن وعظه جهرا شانه"، ولذلك قالوا: "الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة"، ومن أصعب الأمور على النفس المؤمنة أن تفرض الضرورات ملازمة جاهل، أو جاحد، أو عدو، أو طامع، وصدق الشاعر حيث قال:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له، ما من صداقته بد

والمتنبي يقول:

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن جهله، وخطاب من لا يفهم

Upload by : altawhedmag.com

ثانيا: الرفقة

فإذا تعامل المؤمن مع زملائه، فإنه ينتخب منهم مع الوقت من يرافقه في رحلته إلى الله ﷻ، وسلوكه إليه، ومن علامات صحة المرافقة دوام الموافقة في الحق، ولهذا قالوا: "المرافق موافق"، أي يوافقه ما أنت عليه من الحق، كما وافقك ما هو عليه من الحق، والرفيق في الطريق له آداب: فإن كنت أعقل منه فأرفقه بعقلك، وإن كنت أحلم منه فأرفقه بحلمك، وإن كنت أعلم منه فأرفقه بعلمك، وإن كنت أغنى منه فأرفقه بمالك، فالرفيق يكمل أخاه، وخيرهما عند الله أحبهما لصاحبه، وأكثرهما نفعا لأخيه، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: ﴿خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره﴾[1]، وقوله ﷺ: ﴿ إن أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذى فَلْيُمِطْه عنه﴾[2]، وقوله ﷺ: ﴿المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يَكُفُّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه﴾[3]، وهكذا تكون مرحلة المرافقة، وشعارها الرفق، وثمرتها زيادة علم كلا منهما، واستكمال النقص في إحداهما بالكمال الذي أفاض الله به على الآخر، وكُلّ حسب عطاء الله عليه، ثم إذا صحت المرافقة وعلم كلا منهما معدن الآخر، وأن الحق في قلبيهما أحب إليهما مما سواه، ارتقت محبتهما للمرحلة التالية، وهي:

ثالثا: التآلف والصداقة والصحبة

هي مرحلة من مراحل ارتقاء أخوة الإيمان، فيها صحبة بين الإخوان، وصداقة فيما بينهم، وتقارب عقلي وقلبي ووجداني، وتآلف روحي، وهذه المرحلة هي الإعداد الحقيقي لصحة الأخوة في الله، ويشرح لنا الحديث الشريف بعض الصور العملية للأخوة في الله، فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: ﴿من نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب

---

١ حديث عبد الله بن عمرو رواه الترمذي وحسنه، وابن خزيمة في صحيحه، وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وله شاهد من حديث أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: ﴿ما تحاب رجلان في الله إلا كان أحبهما إلى الله ﷻ أشدهما حبا لصاحبه﴾، رواه الطبراني، وأبو يعلى، وابن حبان في صحيحه، وشاهد آخر من حديث أبي الدرداء الذي رواه الطبراني بإسناد جيد قوي.

٢ حديث أبي هريرة رواه الترمذي ١٨٥٢، وقال: وفي الباب عن أنس.

٣ حديث أبي هريرة رواه أبو داود في سننه حديث ٤٢٧٢

Upload by : altawhedmag.com

يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما قعد قوم في مسجد يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه﴾[1]، وقال الفضيل بن عياض: "إنما سمي الصديق لتصدقه، وإنما سمي الرفيق لترفقه، ليس في السفر وحده، بل في السفر والحضر، فقيل له: يا أبا علي فسّر لنا هذا، فقال: أما الصديق فإذا رأيت منه أمرا تكرهه، فعظه ولا تدعه يتهور، وأما الرفيق، فإن كنت أعقل منه فأرفقه بعقلك، وإن كنت أحلم منه فأرفقه بحلمك، إن كنت أعلم منه فأرفقه بعلمك، إن كنت أغنى منه فأرفقه بمالك"، فمتى صحت الرفقة وجدت أخاك يصدقك النصح، ويظهر لك ما خفي عليك، ويعينك على إظهار عيوب نفسك، ويوجهك إلى ما يرضى الله ﷻ، ووجدت في قلبك القبول لما يقول، ولم يتحرك هوى في نفسك، فقد بدأت بينكما مرحلة الألفة والتي من مظاهرها: أن تأنس به، والعرب تقول: ألفت فلان إذا آنست به، وألَّفت بينهم تأليفا إذا وصلت بعضهم ببعض، وجمعت بينهم بعد تفرق، ومنه تأليف الكتب، وقيل شعرا:

قد يمكث الناس حسنا ليس بينهم ... ود فيزرعه التسليم واللطف

يُسلِي الشقيقين طول النأي بينهما ... وتلتقي شعب شتى فتأتلف

وقالوا في وصف مراحل الأخوة في الله، أن: "المرافق موافق"، "والصاحب مناسب"، وخلال هذه المرحلة يتهيأ الأخوان، ويتجهزون للمحبة والأخوة في الله، ويأنس كل منهم بالآخر، وتتقارب صفاتهم وأخلاقهم حتى يناسب كل منهم الآخر فيصير أليفه، ويحدثنا أبو عثمان الدينوري عن معاني الصحبة بشكلها الأشمل الذي يغطي صحبة العبد لربه ﷻ، ولرسوله ﷺ، ولعباد الله الصالحين، والأهل، والإخوان، وعامة الناس، حيث يقول:

- **الصحبة مع الله ﷻ**: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة.
- **والصحبة مع رسول الله ﷺ**: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العمل.

---

١ حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أخرجه مسلم: ٤٨٦٧، ٤٨٦٨، والترمذي ١٣٤٥، ١٨٥٣، ٢٨٦٩، ٢٥٧٠، وأبو داود ١٢٤٣، ٤٢٩٥، وماجه ٢٢١، وأحمد ٧١١٨، ٧٦٠١، ١٠٠٩١، والدارمي ٣٤٨

Upload by : altawhedmag.com

- **والصحبة مع أولياء الله**: بالاحترام والخدمة.
- **ومع الأهل**: بحسن الخلق.
- **ومع الإخوان**: بدوام البشر إن لم يكن إثما.
- **ومع الجهال**: بالدعاء لهم والرحمة".

هذا من ناحية جهاد الإخوان لأنفسهم، ولكن الله تبارك وتعالى هو الهادي الكريم الوهاب يتجلى على خلقه، ولا يتركهم لأنفسهم، فكما أنه جل شأنه يفيض بحب الإيمان ويزينه في قلب العبد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات-٧]، فذلك عطاء الله ومدده الذي يمد به عباده المؤمنين، فهو كذلك يمن على الإخوان بنعمة لا توازيها نعمة، وهي تآلف القلوب، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال-٦٣]، فالذين اهتدوا إلى الإيمان زادهم هدى، وألف بين قلوبهم، وآتاهم تقواهم.

فمرحلة التآلف هي مرحلة المجاهدة من السالكين إلى الله، ومرحلة تلقي العطاء من الله ﷻ الذي يوصل إلى حقيقة الأخوة في الله لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران-١٠٣]، فلولا نعمة الله ما وصل النَّاس إلى درجة الأخوة في الله، وهي نعمة لا تدركها ولو أنفقت ما في الأرض جميعا، وهذا التآلف يوجه قلب كلا من الأخوين إلى نهج الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، فتآلفهم على الحق ثابت لا يتزعزع رغم قلة عددهم، ويظل إيمانهم راسخ يبقى ولا يزول، أما إجماع أكثر الخلق فعلى الباطل، وبالتالي يفنى ويزول وتكشفه المحن والشدائد، ولهذا يقولون: ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، ومن وصلت محبتهم لمرحلة التآلف، ثم لم ترتقِ همتهم إلى مقام الأخوة في الله، ولم يجاهدوا أنفسهم حق المجاهدة، ولم ينالوا من الله نعمة التأليف بين القلوب، أولئك يبقى في قلوبهم شيء من الاختلاف وعدم الإتلاف، وهذا يرجع إما إلى ضعف الهمة، أو الشحناء، أو وجود غش في القلوب وعدم الإخلاص لله تبارك وتعالى، ولهذا ينصح أبو الدرداء الإخوة في الله بقوله: "معاتبة الأخ خير لك من فقده، ومن لك بأخيك كله؟ أعطِ أخاك ولِنْ له، ولا تطع به

Upload by : altawhedmag.com

حاسدا فتكون مثله، غدا يأتيك الموت فيكفيك قتله، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركت وصله"، وقيل شعرا:

إذا كنت في كل الأمـور معاتبا صديقك، لم تلقَ الذي لا تعاتبه

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى بالمـرء نبلا أن تعد معايبه

ولهذا جاء في الحديث الشريف، أن النبي ﷺ قال: ﴿ثلاث لا يغل عليهم قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون مِن ورائهم﴾[1]، وقيل في معنى قوله ﷺ: ﴿لا يغل عليهم قلب المؤمن﴾، أي لا يكون معها في قلبه غش أو دغل أو نفاق، ولكن يكون معها الإخلاص في حب الله ﷻ وطاعته، فمن وقفت به همته دون الوصول إلى مقام الأخوة في الله في الحياة الدنيا، وكان قصده حسنا ونيته سليمة، يمن الله تبارك وتعالى عليه يوم القيامة بنزع ذلك الغلِّ من صدره، ويؤاخي بينه وبين إخوانه في جنات النعيم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر-٤٧]، ويحاول الحسن البصري أن يعلم أصحابه عدم إضمار العداوة لأحد، فيقول: "إذا أردت عداوة رجل، فإن كان مطيعا فإياك وإياه، فإن الله لا يسلمه إليك، ولا يخلي بينك وبينه، وإن كان عاصيا فقد كُفيت مئونته، فلا تتعب نفسك بعداوته"، أما من أفاض الله عليهم بسلامة الصدر، وصحت بينهم الصحبة في الله بلا غل ولا عداوة، فقد تأهلوا إلى مقام أرفع ومنزلة أعلى، وإليك يا أخي بيان هذه المرتبة.

رابعا: الأخوة في الله

الأخوة في الله، وهي ذروة العلاقات بين النَّاس، وصفوة التقارب بين المؤمنين، يجدون لهذه الأخوة حلاوة في قلوبهم، تلك القلوب التي ذاقت نعم الله، وتلقت أنوار طاعته فتآلفت قلوبهم على الحق، والأخوة في الله هي ثمرة محبة الله للعبد لقول رسول الله ﷺ: ﴿إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا

١ حديث جبير بن مطعم رواه ابن حبان في صحيحه وابن ماجه ٣٠٤٧، وأحمد ١٦١٣٨، ١٦١٥٣، والدارمي في سننه ٢٢٩

Upload by : altawhedmag.com

فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض﴾[1] والطيور على أشكالها تقع، فمن وضع لهم القبول في الأرض، إذا التقوا سرت أنوار المحبة في قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخوانا في الله ﷻ.

ويروى: ﴿أن رجلا كان عند النبي ﷺ، فمر رجل به، فقال يا رسول الله: إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: أعلمته؟ قال: لا، قال: أَعْلِمْه، فلحقه فقال: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له﴾، فالمتحابون في الله يجمعهم حب طاعة الله، والخوف والرجاء فيه سبحانه، ودوام التقوى، والمراقبة لأوامر الله ونواهيه، ولا يشغلهم إلا متابعة الرسول ﷺ، والاقتداء بما كان عليه أصحابه الأبرار وآل بيته الأطهار، وهم يستبشرون غاية البشرى بحديث رسول الله ﷺ: ﴿المرء [وفي رواية: العبد] مع من أحب﴾[2]، ولهذا ذهبوا يتعرفون على أخلاق أصحاب رسول الله ﷺ وآدابهم وتصرفاتهم في المواقف المختلفة، وشغلوا أنفسهم بسيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه، ومناقب أحبابه، والمحبة لا تكون إلا بالاتباع، والاتباع لا يكون إلا بالمعرفة والعلم، يقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران-٣١]، وينسب لعلي بن أبي طالب، أنه وصف ما يجب أن يكون عليه الأخ في الله من حسن الخلق، وذلك حين يحدثنا عن أخلاق أخ له في الله، فيقول: "كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجا عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتا، فإن قال بَذَّ [غلب] القائلين، ونقع غليل السائلين، وكان ضعيفا مستضعفا، فإن جد الجد فهو ليث غاب، وصل وادٍ، لا يدلي بحجة حتى يأتي قاضيا، وكان لا يلوم أحدا على ما يجد العذر في مثله، حتى يسمع اعتذاره، وكان لا يشكو وجعا إلا عند برئه، وكان يفعل ما يقول، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غلب على الكلام، يغلب على السكوت، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا بدهه أمران، ينظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه، فعليكم بهذه الأخلاق فالزموها،

---

١ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٥٥٨٠، ٦٩٣١، ومسلم ٤٧٧٢، والترمذي ٣٠٨٥، وقال: حسن صحيح، وأحمد بن حنبل في مسنده ٧٣٠٦، ومالك في الموطإ ١٥٠٢، ورواه الطبراني.

٢ حديث متواتر روي عن أنس بن مالك، وابن مسعود، وأبي هريرة، وصفوان بن عسال، وجابر بن عبد الله.

Upload by : altawhedmag.com

وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير"، وينصح سلمة بن دينار الإخوان نصيحة طيبة، حيث يقول: "إذا أحببت أخا في الله، فأقل مخالطته في دنياه"، ونصح علقمة بن ليث ولده قائلا: "يا بني إن نازعتك نفسك إلى الرجال يوما لحاجتك إليهم، فاصحب من إن صحبته زانك، وإن تخففت له صانك، وإن نزلت بك مئونة مانك [أي أعطاك المئونة]، وإن قلت صدَّق قولك، وإن صُلت شدد صولك، اصحب من إذا مددت إليه يدك لفضل مدَّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن بدت منك ثُلمة [المقصود عيب] سدَّها، واصحب من لا تأتيك منه البوائق [المصائب]، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق".

وقد علمنا القرآن الكريم أن ندعو لمن سبقنا بالإيمان حثا على محبتهم، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر-١٠].

وبالتالي يصبح أهل الأخوة في الله وحدة واحدة، وإن فرق بينهم الزمان فهم يلتقون يوم القيامة صحبة آمنة في ظل الله لا يحزنهم الفزع الأكبر، ثم إن لهم المقام الأسمى من العطاء، يوم تغلق النار على من فيها، وأزلفت الجنة غير بعيد، يومئذ ترى المتحابين في الله على منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء، لقول الحق تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين في الحديث القدسي: ﴿المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء﴾[1].

خامسا: الخـــلة

هي أشرف درجات الأخوة وأسمى حالات المحبة بين النَّاس، وهي ذروة العلاقات الإنسانية ولا يعلوها شيء، والخلة: هي الصداقة المختصة التي ليس فيها خلل، وتكون في عفاف الحب وطهارته، وقيل: الخلة هي الصداقة والمحبة التي تخللت القلب، فصارت خلاله [أي في باطنه]، ويقول ابن الإعرابي: الخليل هو الحبي الصادق، والناصح، والرفيق، وقيل للصداقة درجات، درجة من درجات الخلة؛ لأن كل واحد منهم يسد خلل صاحبه في المودة والحاجة إليه، وخليل الرجل قلبه، وقيل: إن خليل الرجل هو الذي يدخل في خلاله أموره وأسراره الذي دخل

١ حديث معاذ بن جبل رواه الترمذي ٢٣١٢، وقال حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أبي الدرداء، وابن مسعود، وعبادة بن الصامت، وأبي هريرة وأبي مالك الأشعري، ورواه أحمد: ٢١٠٢١، ٢١٠٥٢، ٢١٠٦٦

Upload by : altawhedmag.com

حبه في خلال أجزاء قلبه، وهو الذي يسد خلل كلا منهما خلل الآخر، وهو الذي يوافقك في خلالك، ويسايرك في طريقك، وهو أيضا الأصفى مودة وأصحها، ولا شك أن ذلك كله هو الغاية في المحبة، وإذا نظرنا في هذه الصفات السابق بيانها، لأدركنا أن جميع مراحل الأخوة في الله مندرجة وموصوفة من خلال مقام الخلة.

ويروي الترمذي أن رسولنا ﷺ قال: ﴿لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا﴾، فبرغم أن هذا الحديث يبين درجة أبي بكر ﷺ عند رسول الله ﷺ، فإنه أيضا يوضح مقام رسول الله ﷺ عند ربه، لأن خُلَّته مقصورة على حب الله تعالى، فليس فيها لغيره متسع، ولا شركة من محاب الدنيا والآخرة، وهذه حالة شريفة لا ينالها أحد بكسب ولا باجتهاد، وإنما يخص الله بها من يشاء من عباده، وقد أفاض الله على خليله إبراهيم عليه السلام بأشرف مقام وصل إليه بشر، أو ارتقى إليه رسول، إلا ما كان من مقام أشرف الخلق وسيد الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، فالخلة مقام لم يوصف به إلا إبراهيم عليه السلام دون سائر الأنبياء، فقد أطلعه الله تبارك وتعالى على ملكوت السموات والأرض، وبعثه إلى قومه مرة بعد أخرى يدلهم على توحيده سبحانه وتعالى، وينهاهم عن عبادة الكواكب، ويمنعهم عن عبادة الأصنام، ويحذرهم من السجود للطاغوت، كما أن الخليل سلم نفسه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفين، ولما تم إسلامه لكل ما أمره به ربه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة-١٣١]، سماه الله خليلا، وأي خلة تكون بين النَّاس على غير طاعة الله، فإنها تكون وبالا على أصحابها يوم القيامة، يقول سبحانه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف-٦٧]، مما سبق يتبين أن الأخوة في الله أصل أساسي من أصول تهذيب النفس ومعراجها على سلم الطهر والنقاء، بل هي علامة من علامات توفيق الله تعالى للعبد، فالعرب تقول: "ثلاثة لا وجود لها: الغول والعنقاء والخل الوفي"، فإذا رأيت السالك إلى الله له أخ صالح تقي نقي، فاعلم أنه قد هدي إلى كنز عظيم؛ لذا قالوا: "من علامة الإقبال اصطناع الرجال"، ويروى عن الشافعي أنه قال:

إذا لم أجد خلا تقيا فوحدتي ... ألذ وأشهى من غوي أعاشره

وأجلس وحدي للعبادة آمنا ... أقر لعيني من جليس أحاذره

وينسب لعلي بن أبي طالب، أنه قال: "أعجز النَّاس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم"، وإياك وأن تحب صاحب بدعة فقد حذر الفضيل بن عياض من

Upload by : altawhedmag.com

مغبة ذلك، حيث قال: "من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه"، وكلما ازداد إيمان العبد سمت علاقاته مع زملائه إلى رفقة، فتآلف وصداقة، فصحبة، فأخوة في الله، فخلة، ولا تسمو هذه العلاقات إلا بأمرين هما: زيادة الإيمان في القلب، وزيادة الأدب ظاهرا وباطنا.

ولا يزداد أدب العبد إلا بمجاهدة النفس، وتغلبه على هواه، فلا بد لك أن ترى نفسك أرضا [بالتواضع] تكن لله تبارك وتعالى أرضى، وتأمل أمر الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر-٨٨]، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء-٢١٥]، فخفض الجناح هو صورة من صور أدب المؤمن مع إخوانه، وإذا كان هذا هو توجيه الله لرسوله ﷺ مع أتباعه، فكيف يكون أدبنا نحن، الذي يجب أن نكون عليه مع رسول الله ﷺ؟

وما الأدب المطلوب بين الأخوان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة-٥٤]، فالأدب بين القوم الذين اصطفاهم الله بحبه وهم يحبونه يصل لدرجة الذل فيما بينهم، وليس هذا من خضوع وضعف، وإنما هم أعزة على الكافرين، فما ذلّهم إلا أخوتهم في الله ومحبتهم فيه، يقول الشاعر واصفا خليله في الله:

خل إذا جئته يوما لتسألـــه أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنائعـه والله يظهـرهـا إن الجميل إذا أخفيته ظهـرا

وهم كذلك يجاهدون في سبيل الله، والحق أحب إليهم مما سواه، فلا يخافون فيه لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ويروى في الحديث الشريف: ﴿من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان﴾، ولا شك أن من ثمرات هذا الفضل دوام التأليف بين القلوب، ودوام رقيهم في المحبة، وابتغاء مرضاة الله طمعا في جنة عرضها السموات والأرض، ورجاء في وجه الله الكريم، وخوفا من ناره التي أعدها للكافرين.

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الثالث عشر

- الإسلام يطالب أبناءه أن يكونوا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا، ويأمرهم بالتعاون على البر والتقوى، وينهى عن التعاون على الإثم والعدوان.

- الأخوة العامة: هي أخوة الأصل الإنساني، فالنَّاس جميعا خلقوا من نفس واحدة، فالنَّاس لآدم.

- الأخ في الله مهم جدا في سلوك العبد إلى مولاه.

- إن الأخوة في الله، وهي ذروة العلاقات بين النَّاس، وصفوة التقارب بين المؤمنين، يجدون لهذه الأخوة حلاوة في قلوبهم.

- الخلة هي أشرف درجات الأخوة وأسمى حالات المحبة بين النَّاس، وهي ذروة العلاقات الإنسانية ولا يعلوها شيء.

- إذا تعامل المؤمن مع زملائه، فإنه ينتخب منهم مع الوقت من يرافقه في رحلته إلى الله ﷻ، وسلوكه إليه، ومن علامات صحة المرافقة دوام الموافقة في الحق، ولهذا قالوا: "المرافق موافق".

Upload by : altawhedmag.com

الباب الرابع عشر

ذكر الله

على كل حال

١. معاني الذكر

٢. أنواع الذكر

٣. طلب العلم من أشرف صور الذكر

٤. درجات الذاكرين

Upload by : altawhedmag.com

Upload by : altawhedmag.com

تهيئة

الذكر في اللغة ضد النسيان، وهو الحفظ للشيء تذكره، فهو جري الشيء على لسانك، فالذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذكر أيضا يكون بالقلب أي جريان الشيء في خاطرك وفي قلبك ووجدانك قبل أن تذكره بلسانك، واستذكر الشيء بمعنى درسه للحفظ، والذكر أيضا هو الشرف لقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف-٤٤]، والصيت والثناء لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح-٤]، وروى البخاري في الحديث الشريف: ﴿والرجل يقاتل ليذكر﴾، أي ليحمد، أي ليذكره الناس ويذيع صيته موصوفا بالشجاعة، وقد تكرر ورود الذكر في أحاديث النبي ﷺ، حيث يراد به تمجيد الله ﷻ، وتقديسه، وتسبيحه، وتهليله، والثناء عليه بجميع المحامد، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن معاني الذكر تتسع كثيرا إذا بحثنا في القرآن الكريم عن معاني الذكر، والتي منها:

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الأول

معاني الذكر

لما كان الجزاء من جنس العمل، فقد استحق الذاكرون أن يذكرهم الله، يقول سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة-١٥٢]، ويروي النبي ﷺ عن ربه ﷻ قوله: ﴿أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر، تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة﴾[1]، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات لهم عند الله أفضل المنازل وأعلى الدرجات، وبهذا بشرنا النبي ﷺ، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ﴿سبعة يُظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه﴾[2]، والحق تبارك وتعالى يدعونا إلى كثرة الذكر، وألا تشغلنا الدنيا وما فيها عن ذكره، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون-٩]، ويقول سبحانه: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور-٣٧]، والمؤمن مطالب بكثرة الذكر أسوة بالنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ [الأحزاب-٢١]، وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب-٤١]، وإياك أن يغيب ربك عن بالك وقلبك، فإذا كنت غافلا فتذكر قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف-٢٤]، ومن دواعي توفيق الله تعالى للمجاهدين في سبيله أن

١ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٦٨٥٦، ومسلم: ٤٨٣٢، والترمذي ٢٣١٠، وابن ماجه ٣٨١٢، وأحمد ٧١١٥

٢ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٦٢٠، ١٣٣٤، ٦٣٠٨، ومسلم ١٧١٢، والترمذي ٢٣١٣، وقال: حسن صحيح، والنسائي ٥٢٨٥، وأحمد ٩٢٨٨، ومالك في الموطإ ١٥٠١

Upload by : altawhedmag.com

ثبتهم على ذكر الله، فكان عطاء الله لهم الثبات والنصر والتأييد في الدنيا، ثم الفلاح في الآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال-٤٥]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد-٢٨]، وبعد أن حددت الآية [٣٥] في سورة الأحزاب صنوف أهل الطاعة والقائمين على حدود الله وأوامره ختمت بقوله سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب-٣٥]، فالذكر يحيي القلوب، وتهرب الشياطين منه، وتتنزل الملائكة عليه، فيصبح عامر بذكر الله، وكذلك البيت الذي يذكر فيه الحق تبارك وتعالى كما شبهه لنا النبي ﷺ حين قال: ﴿مثل البيت الذي يُذْكَر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت﴾[1].

١ حديث أبي موسى الأشعري متفق عليه أخرجه البخاري ٥٩٢٨، ومسلم ١٢٩٩

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثاني

أنواع الذكر

يحدد لنا رسول الله ﷺ صور الذكر، وأنواعه، وفضل كل صورة منه في حديثه الجامع حيث يقول ﷺ: ﴿الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها﴾[1].

ونتناول بالتفصيل هذه الصور ودورها في سلوك العبد إلى مولاه.

أولا: القرآن الكريم أشرف الذكر

﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ [الكهف-١]، والقرآن هو أحسن الكتب التي أنزلها سبحانه على رسله، حيث يقول: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر-٥٥]، والقرآن يقص علينا أخبار من كانوا قبلنا وفي ذلك العبرة والعظة، كما أن ما جاء فيه تصديق ما يصح عن الرسل السابقين، كما يفصل لنا أحكام كل شيء يقع بيننا، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف-١١١]، أولى معاني الذكر وأشرفها هو القرآن الكريم، وقد وردت آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى منها:

* ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر-٩].
* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر-١٧].
* ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت-٤١].

والقرآن محفوظ بقدرة الله تعالى وبعهده الذي قطعه على نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة-١٧]، ومن آداب ذكرنا للقرآن الكريم أن نستمع له ليس بأسماعنا فقط، وإنما

١ حديث أبي مالك الأشعري أخرجه مسلم ٣٢٨، والترمذي ٣٤٣٩ ، وابن ماجه ٢٧٦، وأحمد ٢١٨٢٨، ٢١٨٣٤، والدارمي ٦٥١

Upload by : altawhedmag.com

بأفئدتنا، وجوارحنا، ووجداننا، ففي الإنصات والإذعان له ننال رحمة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف-٢٠٤]، وأفضل مجلس على ظهر الأرض هو مجلس يدرس فيه القرآن، يقول رسول الله ﷺ : ﴿وما قعد قوم في مسجد يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه﴾[1]، ومجلس القرآن سواء كان لتعلم أحكام تلاوته حتى يتلو حروفه حق تلاوتها، وبالتالي ينتقل بعد ذلك إلى تلاوته مع فهم أحكامه وتدبر تفسيره ومعانيه حتى يتحقق فيه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة-١٢١]، ويلزمه حينئذ أن يخصص وقتا من ليله يقوم فيه ليتدارس ما تعلمه من القرآن، قال تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل-٤]، فمن تلا كتاب الله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فقد فاز بالحظ الأوفى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر-٢٩]، وهو كتاب مبارك وذكرنا له يكون باتباع ما جاء فيه، والالتزام التام بأحكامه، ففي ذلك ننال رحمة الله ورضوانه، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام-١٥٥]، والناس مع القرآن على أربعة درجات يقررها لنا حديث النبي ﷺ، حيث يقول: ﴿مثل الذي يقرأ القرآن كالأُتْرُجّة: طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة: طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: طعمها مر ولا ريح لها﴾[2].

ومن المعلوم أن ثواب قراءة كل حرف من القرآن حسنة، أما من استمع فله ضعف الأجر، يقول رسول الله ﷺ: ﴿من استمع إلى آية من كتاب الله تعالى كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها

---

١ حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أخرجه مسلم: ٤٨٦٧، والترمذي ١٣٤٥، وأبو داود ١٢٤٣، ٤٢٩٥، وماجه ٢٢١، وأحمد ٧١١٨، والدارمي ٣٤٨

٢ حديث أبي موسى الأشعري متفق عليه أخرجه البخاري ٤٦٣٢، ومسلم ١٣٢٨، والترمذي ٢٧٩١، والنسائي ٤٩٥٢، وأبو داود ٤١٩١، وابن ماجه ٢١٠، وأحمد: ١٨٧٢٨، ١٨٧٢٩، ١٨٧٣٣، والدارمي ٣٢٢٩

Upload by : altawhedmag.com

كانت له نورا يوم القيامة﴾[١]، وقال ابن عباس: ﴿من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا﴾[٢]، ويقول خالد بن معدان: ﴿إن الذي يقرأ القرآن له أجر، وإن الذي يستمع له أجران﴾[٣]، وكذلك من كان في بداية تعلمه لأحكام التلاوة، أما من أتقن القرآن وأحكم تلاوته، فقد فاز فوزا كبيرا، فقد صح أن النبي ﷺ قال: ﴿الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو شديد عليه فله أجران﴾[٤].

١. الخشوع والتدبر لآيات القرآن:

ويشرح لنا القرآن الكريم تأثير تلاوة آياته واستماعها في النفس المؤمنة، فيقول سبحانه: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر-٢٣]، وهؤلاء نفر من النصارى استمعوا القرآن بقلوبهم، ففاضت أعينهم من الدمع، فذكرهم الله في محكم التنزيل، ورفع ذكرهم إلى يوم القيامة، كلما قُرئ القرآن: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة-٨٣]، وكذلك المؤمنون الذين يقرءون القرآن فترى قلوبهم وجلة مشفقة راغبة راهبة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال-٢]، والقرآن يدعو من لم يصل إلى هذا المستوى الإيماني مع تلاوة القرآن أن يبذل الجهد حتى ينال ما فاز به أهل الخشوع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد-١٦].

---

١ انفرد به أحمد: ٨١٣٨

٢ انفرد به الدارمي: ٣٢٣٣

٣ انفرد به الدارمي ٣٢٣٢

٤ حديث عائشة متفق عليه أخرجه البخاري ٤٥٥٦، ومسلم ١٣٢٩، وأبو داود:١٢٤٢، والترمذي ٢٨٢٩، وابن ماجه ٣٧٦٩، وأحمد ٢٣٠٨٠، ٢٣٤٩٣، ٢٣٥٢٦، ٢٣٦٤٤، والدارمي.

Upload by : altawhedmag.com

وينبغي لقارئ القرآن أن يُعمل عقله وقلبه في تدبر آياته، فهي ليست نصا كأي نص يتمسك به أتباعه دون أن يعرفوا أحكامه ويعملوا بها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان-٧٣]، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد-٢٤]، فالأمر ليس تمسك جامد بالنص دون فهم مراميه ومقاصده ومناسبة نزول الآيات، ومحكمه ومتشابهه، وعامه وخاصه، وناسخه ومنسوخه، واستخدام اللفظ في اللسان العربي، والمطلوب هو التفاعل مع الآيات نصا وروحا، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة-١٥]، وما خر أهل الإيمان سجدا إلا خشية لله تعالى، ألا ترى كيف يكون حال الجبال إذا نزل القرآن عليها، يقول تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر-٢١]، وعلى المسلم الاقتداء بسيد الأنام الذي خاطبه ربه قائلا: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف-٤٣].

٢. التلاوة وحفظ سور من القرآن:

وعلى المسلم الذاكر أن يجعل له ورد يومي من تلاوة القرآن، وأفضل أسلوب لذلك أن يقرأ جزء من القرآن كل يوم، على أن يبدأ من الفاتحة، فسورة البقرة، ثم آل عمران إلى سورة الناس، وبالتالي يختم القرآن كل شهر عربي، وله من الله تبارك وتعالى جائزة ينالها حينما يدعو الله عند ختم المصحف، فله أن يدعو لنفسه، ولأهله، ولأحبابه، وللمسلمين جميعا، وهو بهذا الأسلوب يدوام على تلاوة السور والآيات ومع الوقت يجد نفسه حاضر الذهن مع كتاب الله تعالى، وحين يمر على آية لا يفهم معناها، أو يريد أن يستزيد عنها فهما فليراجع تفسيرها من كتب المكتبة المختارة، أو ما تيسر له من مراجع، وسيمر قارئ القرآن بمراحل عديدة، فتارة سيحب عددا من الآيات فيحرص على حفظها، ويساعده على ذلك أن يصلي بهذه الآيات عدة أيام متتالية حتى يتقن حفظها، كما سيتعرض لبعض أحداث يقصها القرآن الكريم كقصة أحد الأنبياء، أو حدث وقع في حياة النبي ﷺ، فيكون ذلك دافعا له للمزيد من الاطلاع والمعرفة عن الثقافة الإسلامية، وعظمة هذا الدين الخاتم.

Upload by : altawhedmag.com

ويستحب أن يشرع المسلم في حفظ الجزء الثلاثين من المصحف، يقرأ منه في صلاته مع ما تيسر له حفظه من المختارات القرآنية، فإذا أحكم المسلم تلاوته حسب الأصول المعروفة لتلاوة القرآن الكريم، فإن أجرة يتضاعف كما أسلفنا ويكفيه أن يحشر مع الكرام البررة يوم القيامة، نسأل الله الكريم رب العرش العظيم بكل اسم هو له أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا، وجلاء همنا وذهاب غمنا، وأن يشرح به صدورنا، وأن يغفر به ذنوبنا، وأن يستر به عوراتنا، وأن يتجاوز به عن سيئاتنا، وأن يضاعف به حسناتنا، وأن يرضى به عنا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن يذكرنا منه ما نسينا، وأن يفتح علينا من بركاته وعلومه وأسراره ما تقر به عيوننا، وأن يرفع به ذكرنا ودرجاتنا، أن يطيل به آجالنا، وأن يقبل به أعمالنا، وأن يسدد به خطانا، وأن يقضي به ديوننا، وأن يشفي به مرضانا، وأن يرحم به موتانا، وأن يعز به أوطاننا، وأن يوسع به أرزاقنا، وأن يولي به خيارنا، وأن يرد به غائبنا، وأن تسمو به أخلاقنا، وأن يجعله حجة لنا يوم القيامة، وأن يجعلنا ممن يقيمون حروفه وحدوده وأحكامه، وأن يباعدنا به عن النار، وأن يجعله أنيسنا في القبور، وشفيعنا عند البعث والنشور، وقائدنا على الصراط وعند الملمات، وهادينا إلى الرضوان والجنات، وأن يفرق به شمل أعدائنا، وأن ينصرنا على من بغى علينا، وأن يجعل كيدهم في نحورهم، ومكرهم بينهم وعليهم، وأن يعلو به ديننا ودنيانا، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

ثانيا: الصلاة هي الذكر

الصلاة عماد الدين، والهدف منها ذكر الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [سورة طه-١٤]، ويؤكد هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ الله وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة-٩]، كما ذم القرآن المنافقين الذين لا يذكرون الله في صلواتهم إلا قليلا، ولا يقومون إليها إلا وهم كسالى، يبتغون المنزلة عند الناس، وتوعدهم سبحانه بأنهم لا يخدعون إلا أنفسهم وأنه سبحانه هو خادعهم: ﴿إِنَّ الْـمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ الله إِلا قَلِيلا﴾ [النساء-١٤٢]، وقد فرض الله تبارك وتعالى الصلاة على جميع الأمم، ودعا إليها جميع الأنبياء، ومن حكمته سبحانه أن فرض علينا خمس صلوات في اليوم والليلة،

Upload by : altawhedmag.com

وجعلها كتابا وموقوتا حتى لا ينشغل العبد عن ربه يوما كاملا، وحتى يمثل بين يديه المرة بعد الأخرى، وفي كل مرة يناجيه، ويدعوه ويسبحه ويحمده ويكبره ويهلل له، ويصلي على نبيه وسائر رسله، كما يتلو قرآنه ويركع له ويسجد بين يديه لينال القرب منه، والعبد بين ذكر الله في الصلاة والسعي في الأرض عليه أيضا ألا يغفل عن مولاه الذي يعلمه سبيل الفلاح حين يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة-١٠]، قال تعالى تأكيدا على علاقة الصلاة بالذكر: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى-١٥].

وفي الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ: ﴿تحترقون تحترقون فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يُكتب عليكم حتى تستيقظوا﴾[1]، يشير هذا الحديث إلى حقيقة علمية بالغة الأهمية وهي أن كل ما في الكون مقادير من الطاقة التي تحترق، فالإنسان يبذل سعرات حرارية في كل لمحة وخلال سعيه الدءوب طوال النهار، ويتناول طعامه ويحوله إلى سعرات حرارية، حتى تعين الجسد على بذل المزيد منها تحصيلا لأسباب العيش، والمعنى صحيح أيضا على من المنظور الإيماني فالعاصي يحترق حين يقترب من النار بمعصيته، ورغم كون الصلاة بذل للسعرات أيضا، إلا أنها بذل يعقبه برد الطاعة وإطفاء للشهوات وقرب من الجنات، وتختلف الصلوات الخمس من حيث هيئاتها، وعدد ركعاتها، وسرها، وجهرها، ولا شك أن هناك حكمة كبرى وراء هذا التكليف بهذا الشكل، فلم كانت الصبح ركعتين جهرا؟ والمغرب ثلاثا، والعشاء أربعا وجهرا أيضا، وتختلف عن الظهر والعصر، وهما صلاتين سرا، فلا بد أن لكل منها أثر يختلف عن الغاية المرجوة من الصلاة الأخرى، وقد يساعدنا على تصور المراد أن نشير إلى هذا الأثر الذي يقول:

* "من لم يصل الصبح: فليس في وجهه نور.
* من لم يصل الظهر : فليس في رزقه بركة.

---

١ رواه الطبراني في المعجم الأوسط والصغير.

Upload by : altawhedmag.com

* من لم يصل العصر: فليس في جسمه قوة.
* من لم يصل المغرب: فليس في أولاده ثمرة.
* من لم يصل العشاء: فليس في نومه راحة".

فكل فرض له نوره المخصوص وله أثره المحدد، وقد شملت هذه التأثيرات قوة الجسم ونور الوجه وبركة الرزق، والثمرة في الأولاد، والراحة في النوم، أليست هذه الأشياء هي قمة السعادة في الدنيا، فما بالك بأثر النوافل والصلوات التي يقيم بها العبد ليله، وفي أوقات السحر حيث ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ويسأل عن أهل الطاعة ليمن عليهم بكرمه وجوده وإحسانه، وقد ورد أن الجنيد رؤي في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وفنيت تلك العبارات، ولم تنفعنا إلى ركعات كنا نصليها في جوف الليل".

ولا يتسع المقام للحديث عن الصلاة؛ فهذا أمر يحتاج إلى كتب عديدة، وما نود بيانه أن الصلاة تحتل مكان الصدارة في موضوع ذكر الله على كل حال، ففيها المناجاة الكاملة للمولى جل شأنه وعز سلطانه، والسالك القاصد وجه الله تعالى عليه أن يلتزم بالصلوات ونوافلها، في مواقيتها الشرعية، وأدعية ختامها التي ثبتت في السنة المطهرة، وأن يجعل له ورد من الصلاة وإن قل، وأوصي نفسي وأوصي القارئ الكريم بقيام الليل ولو ركعتين في جوف الليل، لعل الله أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

ثالثا: ذكر الله بأسمائه الحسنى

ومن أفضل صور الذكر أن يذكر العبد ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء-١١٠]، ومن أسماء الله الحسنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْـمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْـمُؤْمِنُ الْـمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْـمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْـمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر٢٢: ٢٤]، وقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل- ٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾

Upload by : altawhedmag.com

[المزمل٢٥-٢٦]، وذِكر الله يكون في النفس وعلى اللسان بصوت خفيض، وبخشوع مع التضرع، وخوفه، ورجائه، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف-٢٠٥]، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: ﴿لا يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده﴾[١].

وروي أن: ﴿رسول الله ﷺ خرج على حلقة [أي من أصحابه] فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا ندعو الله ونحمده على ما هدانا لدينه، ومَنَّ علينا بك، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنما أتاني جبريل عليه السلام، فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة﴾[٢]، وقال النبي ﷺ: ﴿مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت﴾[٣]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قلت: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: المساجد، قلت: وما الرتع يا رسول الله؟ قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر﴾[٤]، وقال رسول الله ﷺ : ﴿إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وتحميدا، وأكثر لك تسبيحا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة،

---

١ حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أخرجه مسلم: ٤٨٦٧، ٤٨٦٨، والترمذي ١٣٤٥، ١٨٥٣، ٢٨٦٩، ٢٥٧٠، وأبو داود ١٢٤٣، ٤٢٩٥، وابن ماجه ٢٢١، وأحمد ٧١١٨، ٧٦٠١، ١٠٠٩١، والدارمي ٣٤٨

٢ حديث أبي سعيد الخدري أخرجه مسلم ٤٨٦٩، والنسائي: ٥٣٣١، والترمذي ٣٣٠١، وأحمد ١٦٢٣٢

٣ حديث أبي موسى الأشعري متفق عليه أخرجه البخاري: ٥٩٢٨، ومسلم ١٢٩٩

٤ حديث أبي هريرة انفرد به الترمذي ٣٤٣١، قال: حديث حسن غريب

Upload by : altawhedmag.com

قال: فَمِمَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها؟ قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم﴾[١]، وفي الحديث: ﴿[أن الصحابة رضوان الله عليهم] أُمروا أن يسبحوا دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، ويحمدوا ثلاثا وثلاثين، ويكبروا أربعا وثلاثين، فأُتِي رجل من الأنصار في منامه، فقيل له: أمركم رسول الله ﷺ أن تسبحوا دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وتحمدوا ثلاثا وثلاثين، وتكبروا أربعا وثلاثين، قال: نعم، قال: فاجعلوها خمسا وعشرين واجعلوا فيها التهليل، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: اجعلوها كذلك﴾[٢].

رابعا: أنواع الذكر المجرد

١. التهليل:

لا شيء في الوجود يعدل شهادة التوحيد، فبها تقوم السموات والأرض، ويتميز الناس بين مؤمن وكافر، وبتعارف أهل الجنة ويفترقون عن أهل النار، بها بعث الله النبيين والمرسلين، مبشرين من آمن بها ومنذرين من أنكرها، ولو وضُعت السموات السبع والأرض ومن فيهن في كفة و"لا إله إلا الله" في كفة لرجحت كفة "لا إله إلا الله"، وبذلك قال الحديث الشريف: ﴿أفضل الذكر لا إله إلا الله﴾[٣]، وقال رسول الله ﷺ: ﴿من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك﴾[٤]، وكان النبي ﷺ يقول عند الكرب: ﴿لا إله

---

١ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري:٥٩٢٩، ومسلم ٤٨٥٤، والترمذي ٣٥٢٤، وأحمد ٧١١٧، ٨٣٥٠

٢ حديث زيد بن ثابت رواه النسائي ١٣٣٣، وأحمد ٢٠٦١٧، والدارمي ١٣٢٠، ورجاله ثقات.

٣ حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رواه الترمذي ٣٣٠٥، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه ٣٧٩٠

٤ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري: ٣٠٥٠، ٥٩٢٤، ومسلم ٤٨٥٧، والترمذي ٣٣٩٠، وابن ماجه ٣٧٨٨، وأحمد ٧٦٦٦، ١٠٢٦٦ومالك ٤٣٧

Upload by : altawhedmag.com

إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، سبحان الله رب السموات السبع، ورب العرش الكريم، قال وكيع مرةً لا إله إلا الله فيها كلها﴾[١]، ويحدد لنا رسول الله ﷺ مكانة شهادة التوحيد بين شعب الإيمان حيث يقول: ﴿الإيمان بضع وسبعون [شعبة] أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة العَظْم [الأذى] عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان﴾[٢]، ويقول أيضا: ﴿أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله﴾[٣]، ويقول علي ﷺ: قال لي رسول الله ﷺ: ﴿ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن غفر لك – مع أنه مغفور لك – لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين﴾[٤]، ويحكي لنا عبد الله بن عمرو، يقولك كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج... قال ﷺ: ﴿إن نبي الله نوحا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ"لا إله إلا الله"، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت "لا إله إلا الله" في كفة رجحت بهن "لا إله إلا الله"، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن "لا إله إلا الله" و"سبحان الله وبحمده"، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر، قيل: يا رسول الله هذا الشرك، قد عرفناه فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان، قال: لا، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: لا، قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا، قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس﴾[٥].

---

١ حديث ابن عباس أخرجه البخاري: ٥٨٦٩، ٥٨٧٠، ومسلم ٤٩٠٩ والترمذي ٣٣٥٧، وأحمد ١٩٠٨، ٢١٨٣، ٢٩٨٠، ٣١٨٣

٢ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ٨ ومسلم ٥٠، ٥١، وأبو داود ٤٠٥٦، والترمذي ٢٥٣٩، والنسائي ٤٩١٨، وابن ماجه ٥٦، وأحمد ٨٥٧٠، ٨٩٩٣، حديث ابن عباس أخرجه البخاري: ٥٨٦٩، ٥٨٧٠، ومسلم ٤٩٠٩، والترمذي ٣٣٥٧، وأحمد ١٩٠٨.

٣ حديث جابر رواه الترمذي ٣٣٠٥ وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه ٣٧٩٠

٤ حديث علي انفرد به أحمد ٦٧٤

٥ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص انفرد به أحمد ٦٢٩٥ .

Upload by : altawhedmag.com

٢. التسبيح:

"هو: التنزيه، والبراءة من كل سوء، والتسبيح من سبح الفرس إذا أسرع، ومن سبح إذا استمر السباح في ضرب الماء بذراعيه حتى ابتعد، وتسبيح الحق تبارك وتعالى معناه تنزيها لله عن الصاحبة والولد، وتباعده عن كل كمال لا يليق بذاته وأسمائه وصفاته، وعن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به"[١]، فكيف تدركه العقول والأبصار، أو تحيط بعظمته القلوب والأفكار، فهو جل شأنه العزيز الجبار، وجماع معنى التسبيح هو بُعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل، أو شريك، أو ند، أو ضد.

والتسبيح عبادة كل مخلوق بقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء-٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَالله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور-٤١]، وكل مخلوق يسبح الله تعالى، وكل أمة من الأمم لها تسبيح خاص بها، وقد أمر القرآن الكريم بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار وبعد الصلوات، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر-٥٥]، وكذا قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [سورة ق-٤٠]، ونبي الله يونس بن متى بادر إلى شهادة التوحيد وأعقبها بالتسبيح مع الإقرار بالتقصير، فنجاه الله تبارك وتعالى من الظلمات الثلاث، قال سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء-٨٧]، والتسبيح ينجي العبد في مواطن الشدة، ألا ترى قول موسى عليه السلام وهو يناجي ربه قائلا: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [سورة طه٢٩: ٣٤]، فهو يتعهد بكثرة الذكر والتسبيح لله الواحد الأحد، ويطلب من الله أن يجعل لأخيه نصيب من الرسالة حتى يشد الله به أزره، وللتسبيح دور عظيم في النجاة من الشدائد، قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم-٢٨]، وكثير من الناس لا يعرف كيف تسبح الله؟

١ لسان العرب لابن منظور مادة سبح صفحة ١٩١٤

Upload by : altawhedmag.com

فقد دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة وبين يديها نوى، أو حصى تسبح به، فقال ﷺ: ﴿أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل، فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك﴾[١]. ويعرفنا النبي ﷺ ما يحبه الحق تبارك وتعالى من صور التسبيح حين يقول: ﴿كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم﴾[٢]، وسئل رسول الله ﷺ أي الكلام أفضل؟ قال: ﴿ما اصطفى الله لملائكته، أو لعباده: سبحان الله وبحمده﴾[٣]، وأمرنا رسول الله ﷺ بتكرار هذا التسبيح مائة مرة في اليوم، فقال ﷺ: ﴿لا يدع رجل منكم أن يعمل لله ألف حسنة حين يصبح يقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة، فإنها ألف حسنة، فإنه لا يعمل إن شاء الله مثل ذلك في يومه من الذنوب ويكون ما عمل من خير سوى ذلك وافرا﴾[٤]. ويقص علينا ابن عمر كيف فتحت السماء أبوابها لتسبيح أعرابي، فيقول: ﴿بينا نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل في القوم: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، فقال رسول الله ﷺ: من القائل كذا وكذا؟ فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: عجبت لها فتحت لها أبواب السماء، قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك﴾[٥]، ويعلمنا رسول الله ﷺ أن التسبيح فهم عن الله تعالى وليس تكرار لألفاظ لمدة طويلة، فقد يسبح العبد ربه بصيغة شرعية تضم محامد لله تبارك وتعالى يكون ثوابها أكبر من تكرا التسبيح، فعن جويرية بنت الحارث قالت: ﴿أتى علي رسول الله ﷺ غدوة، وأنا أسبح ثم انطلق لحاجة، ثم رجع قريبا من نصف النهار، فقال: ما زلت قاعدة، قلت: نعم، فقال: ألا

---

١ حديث سعد بن أبي وقاص رواه أبو داود ١٢٨٢ والترمذي ٣٤٩١

٢ حديث أبي هريرة متفق عليه ختم به البخاري صحيحه رقم ٧٠٠٨، ومسلم ٤٨٦٠، والترمذي ٣٣٨٩، وابن ماجه ٣٧٩٦، وأحمد ٦٨٧٠

٣ حديث أبي ذر أخرجه مسلم ٤٩١٠، والترمذي ٣٥١٧، وأحمد ٢٠٣٥٧

٤ حديث أبي الدرداء رواه أحمد ٢٦٢٠٦، وابن ماجه ٣٨٠٣

٥ حديث عبد الله بن عمر رواه أحمد ٤٣٩٩، ومسلم ٩٤٣، والترمذي ٣٥١٦، والنسائي ٨٧٥، ٨٧٦

Upload by : altawhedmag.com

أعلمك كلمات لو عدلن بهن عدلتهن، أو لو وزن بهن وزنتهن [يعني جميع ما سبحت] سبحان الله عدد خلقه ثلاث مرات، سبحان الله زنة عرشه ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات﴾[١]، وهذا خليل الرحمن ﷺ يهدي أمة النبي ﷺ نصيحة غالية، ويدلنا على باب عظيم من أبواب الخير، قال رسول الله ﷺ : ﴿لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر﴾[٢]، وللحديث شاهد آخر يرويه جابر عن النبي ﷺ قال: ﴿من قال: "سبحان الله العظيم وبحمده"، غرست له نخلة في الجنة﴾[٣]، وفي قول رسول الله ﷺ: ﴿من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر﴾[٤]، عن يسيرة وكانت من المهاجرات قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: ﴿عليكن بالتسبيح، والتهليل، والتقديس، واعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات مستنطقات ولا تغفلن فتنسين الرحمة﴾[٥].

٣. الحمد:

"الحمد أعم من الشكر، فالحمد لله معناه أن الحمد والثناء حق لله وملكه، فإنه تعالى مستحق للحمد بسبب كثرة أفضاله وإنعامه، وأنواع آلائه على عباده، وبسبب كل إنعام صدر منه ووصل إلى غيره، سواء وصل الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك، كأن الحامد لله تبارك وتعالى يقول: سواء أعطيتني أو لم تعطني فإنعامك واصل إلى كل العالمين، وأنت مستحق للحمد العظيم، وقيل: الحمد على ما دفع من البلاء، والشكر على ما أعطى من النعماء"[٦]، ومن أعظم نعمه سبحانه أنه خلق السموات والأرض وله ما فيهن، قال تعالى:

---

١ حديث جويرية رواه أحمد ٢٥٥٣٣، ومسلم ٤٩٠٥، والترمذي ٣٤٧٨، والنسائي ١٣٣٥، وابن ماجه ٣٧٩٨

٢ حديث عبد الله بن مسعود انفرد به الترمذي ٣٣٨٤، قال: حديث حسن غريب، وفي الباب عن أبي أيوب.

٣ حديث جابر بن عبد الله انفرد به الترمذي٣٣٨٦ قال: حديث حسن غريب صحيح

٤ حديث أبي هريرة انفرد به الترمذي ٣٣٨٨ قال: حديث حسن صحيح

٥ حديث يسيرة رواه الترمذي ٣٥٠٧ وأبو داود ١٢٨٣، وأحمد ٢٥٨٤١

٦ التفسير الكبير للفخر الرازي ١: ٢١٩ -٢٢٠

Upload by : altawhedmag.com

﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ-١]، وله سبحانه الحمد في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الله لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص-٧٠]، وقد بشرنا الحق تبارك وتعالى أن أصحاب الجنة يسبحون ربهم وآخر دعواهم الحمد لله، يقول جل من قائل: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس-١٠]، ومن كان هذا عطاؤه وجب التوكل عليه وتفويض الأمر إليه تصديقا لقوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان-٥٨]، ويقرر رسول الله ﷺ مكانة الحمد وصوره في الأحاديث التالية: ﴿أفضل الدعاء الحمد لله﴾[١]، وقد جاء رجل عند رسول الله ﷺ، فدخل الصف، فقال: الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: ﴿أيكم المتكلم بالكلمات﴾، فأَرَمَّ القوم، فقال: ﴿أيكم المتكلم بها فإنه لم يقل بأسا﴾، فقال رجل: جئت وقد حفزني النفس فقلتها، فقال: ﴿لقد رأيت اثني عشر ملكا يبتدرونها أيهم يرفعها﴾[٢]، وعن أنس بن مالك، قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالسا ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهد دعا، فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك، فقال النبي ﷺ لأصحابه: ﴿تدرون بما دعا﴾، قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال﴿والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى﴾[٣]، وكان رسول الله ﷺ إذا سَلَّم يقول: ﴿لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، لا نعبد إلا إياه، أهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا إله إلا

١ حديث جابر رواه الترمذي ٣٣٠٥، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه ٣٧٩٠

٢ حديث أنس أخرجه مسلم ٩٤٢، والنسائي ٦٥٠، وأحمد ١١٥٩٣، وابن حبان في صحيحه، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢: ٤٤٢

٣ حديث أنس بن مالك رواه النسائي ١٢٨٣، وأبو داود ١٢٧٧، وأحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

Upload by : altawhedmag.com

الله،مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾[١]، وكان رسول الله ﷺ إذا قضى الصلاة قال: ﴿لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد﴾[٢]، ومن اللطائف "أن الحمد لله ثمانية أحرف، وأبواب الجنة ثمانية، فمن قال هذه الثمانية عن صفاء قلبه، استحق ثمانية أبواب الجنة"[٣].

٤. الحوقلة:

قال أهل اللغة: الحول: الحركة والحيلة، ومعنى "لا حول ولا قوة إلا بالله" أي لا حول في دفع شر، أو جلب نفع، ولا قوة في تحصيل خير، أو رزق إلا بالله العلي العظيم، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، وهي كلمة استسلام وتفويض إلى الله، وخروج من حول العبد وقوته واختياره إلى حول الله وتدبيره في سابق علمه، وهي في نفس الوقت اعتراف بالعجز، وأن العبد لا يملك من أمر نفسه شيئا، وأنه لا خالق، ولا رازق، ولا مغني، ولا معز إلا الواحد الأحد، ويعرفنا رسول الله ﷺ فضل الحوقلة في حديثه لأبي موسى الأشعري، عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال له: ﴿ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: وما هو؟، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله﴾[٤]، وفي رواية: ﴿باب من أبواب الجنة﴾[٥]، ومن ثمرات الحوقلة أنها تقي الإنسان من شرور الشيطان، قال رسول الله ﷺ: ﴿إذا خرج الرجل من بيته، فقال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال حينئذ: هُديت، وكُفيت، ووُقيت، فتتنحى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي)[٦]، والإكثار منها يبقي النعم، قال رسول الله ﷺ:"من أنعم الله عليه فأراد بقاءها فليكثر من قول: لا

---

١ حديث عبد الله بن الزبير أخرجه مسلم ٩٣٥، والنسائي ١٣٢٢، ١٣٢٣، وأبو داود ١٢٨٨، وأحمد ١٥٥٢٣

٢ حديث المغيرة بن شعبة رواه النسائي ١٣٢٤

٣ التفسير الكبير للفخر الرازي ١: ٢٢٠

٤ حديث أبي موسى الأشعري متفق عليه أخرجه البخاري ٢٧٧٠، ٣٨٨٣، ٥٩٠٥، ومسلم ٤٨٧٥، والترمذي ٣٢٩٦، ٣٣٨٣، وأبو داود ١٣٠٥، وابن ماجه ٣٨١٤، وأحمد ١٨٦٩٩، ١٨٩٢٠

٥ حديث سعد بن عبادة رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخان، والمنذري في الترغيب ٢: ٤٤٥

٦ حديث أنس بن مالك، رواه أبو داود: ٤٤٣١، والترمذي: ٣٣٤٨ وقال: حديث حسن صحيح غريب.

Upload by : altawhedmag.com

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[١]، ولا يقف فضلها عند هذا الحد بل يتجاوزه بكثير، ففي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: "من قال لا حول ولا قوة إلا بالله، كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم" [٢]، وفي رواية: "أدناها الموت".

٥. الاستغفار:

والاستغفار هو العلاج الناجع للغفلة والذنوب والإعراض عن الله تعالى، فكلمة غفر معناها في اللغة الستر، فكأن المغفرة تستر الذنب، والفرق بين الستر والغفر هو أن الشيء المستور ما زال تحت الستر، فإن رفعنا الستر وجدنا ما سترناه، أما الغفر، والمغفرة فهي ستر للذنب مع محوه وإزالته فلا يبقى له وجود، ومن أسماء الحق تبارك وتعالى الغافر والغفور والغفار: فالغافر يغفر الذنب، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾، والغفور يغفر الذنوب السابقة جميعا، والغفار يغفر ذنب المسيء المداوم على طلب المغفرة، وفي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ: ﴿والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم﴾[٣].

ولما كان الإنسان كثير الغفلة فهو محتاج إلى المسارعة بالاستغفار، ولهذا علمنا النبي ﷺ الاستغفار فهو حين يقول: قال النبي ﷺ: ﴿إني لأستغفر الله [وفي رواية لأتوب] في اليوم سبعين مرة﴾[٤] [وفي رواية مائة مرة]، فهذا توجيه عظيم لنا، وكل منا سيقول: إذا كان المعصوم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر ربه في اليوم والليلة مائة مرة، فكم نحتاج نحن حتى نتطهر من معاصينا في اليوم والليلة، وينبغي قبل أن نترك هذه النقطة أن نوضح أن استغفار النبي ﷺ كان نتيجة منطقية لدوام ترقيه في معراج القرب من ربه، فهو إذا ارتقى درجة عِلْم، زاد معرفة بربه، فعلم أن عبادته ومعرفته قبل الترقي كانت ناقصة، فيستغفر الله على هذا، أي أن استغفار

---

١ حديث عقبة بن عامر رواه الطبراني والمنذري في الترغيب والترهيب ٢:٤٤٥

٢ حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢:٤٤٤، وقال الحافظ وفي إسناده بشر بن رافع أبو الأسباط.

٣ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ٤٩٣٦، والترمذي ٢٤٤٩، وأحمد ٤٩٤٢، ٧٧٠٠، ٧٧٣٦

٤ حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ٥٨٣٢، وابن ماجه ٣٨٠٦، وأحمد ٧٤٦١، ٨١٣٧، وابن حبان ٩٢١، والترمذي ٣١٨٢ وقال: حديث حسن صحيح، حديث أنس رواه ابن حبان ٩٢٠، حديث ابن عمر رواه ابن حبان ٩٢٥

Upload by : altawhedmag.com

النبي ﷺ كان من الأنوار أما استغفارنا من ظلمات الغفلة والمعصية، وقد سمعه عبد الله بن عمر يستغفر الله كما روى في الحديث: ﴿كنت جالسا عند النبي ﷺ، فسمعته استغفر مائة مرة، ثم يقول: اللهم اغفر لي، وارحمني وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم، أو إنك تواب غفور﴾[١]، وإذا داوم العبد على الاستغفار لا يعد مصرا على المعصية، وبهذا قال رسول الله ﷺ في حديثه: ﴿ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة﴾[٢]، ولهذا يقول العلماء "لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار"، والقاعدة الإلهية واضحة لا لبس فيها ولا غموض، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء-١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، وأفضل أوقات الاستغفار بالأسحار في جوف الليل، حيث ينام الناس، ويناجي العبد السالك مولاه، وتشير الآية الكريمة إلى طلب المغفرة بالأسحار في قوله سبحانه: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران-١٧]، وقد كان للأمة أمانان من النار في عهد النبوة، وهما: حياة النبي ﷺ، والاستغفار، أما نحن فلم يبقَ لنا إلا مغفرة الحق تبارك وتعالى، وعلينا أن نستلّهما بكثرة الاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال-٣٣]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران-١٣٥]، والحق سبحانه يحب عبده التائب النادم على خطيئته، وفي الحديث القدسي: ﴿ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له﴾[٣]، ويفرح بعودة عبده إلى طاعته، بل إنه سبحانه وتعالى يناديه أن يسارع إلى رياض الرحمة والمغفرة، ففي الحديث القدسي يقول الحق تبارك وتعالى:

---

١ حديث ابن عمر انفرد به أحمد ٥١٠٠، ورواته ثقات.

٢ حديث أبي بكر الصديق رواه أبو داود ١٢٩٣، والترمذي ٣٤٨٢، وقال: إسناده ليس بالقوي.

٣ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ١٠٧٧، ومسلم ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، وأبو داود ١١٢٠، وابن ماجه ١٣٥٦، وأحمد ٧١٩٦، ومالك في الموطإ ٤٤٧، والدارمي ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٧، وابن حبان ٩١٦،

Upload by : altawhedmag.com

﴿يا ابن آدم: إنك ما دعوتني، ورجوتني، غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي.

يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي.

يا ابن آدم: إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة﴾[1].

٦. سيد الاستغفار:

يدلنا النبي ﷺ على أفضل صيغ الاستغفار، والتي سماها سيد الاستغفار، حيث يقول: ﴿سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل، وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة﴾[2]، والسعيد من داوم على هذه الصيغة وكررها في كل صباح ومساء.

٧. الاستغفار دعوة جميع الأنبياء:

ما من نبي إلا وأمر أهله بالاستغفار، ومنهم: نوح، وهود، وصالح، وشعيب - عليهم جميعا الصلاة وأتم التسليم - لم يأمروا أقوامهم بأكثر من الاستغفار، يقول نوح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود-٥٢]، ويوضح نوح عليه السلام لقومه فضل الاستغفار وثوابه عند الله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح ١٠: ١٢]، كما يبادر نوح عليه السلام إلى طلب المغفرة له وللمؤمنين بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح-٢٨]، وعيسى عليه السلام لا يجد شفاعة لقومه يوم القيامة إلا الدعاء لله

والترمذي: ٣٤٢٠، وقال: حديث حسن صحيح وفي الباب عن علي وعبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري، وجبير بن مطعم، ورفاعة الجهني، وأبي الدرداء، وعثمان بن أبي العاص.

١ حديث أنس بن مالك رواه الترمذي ٣٤٦٣ وقال: حديث حسن غريب، وأحمد ٢٠٤٩٩، ٢٠٥٢٩، والدارمي ٢٦٦٩

٢ حديث شداد بن أوس أخرجه البخاري ٥٨٣١، ٥٨٤٨، والترمذي ٣٣١٥، والنسائي ٥٤٢٧، وأحمد ١٦٤٨٨، ١٦٥٠٨

Upload by : altawhedmag.com

بأنه الغفور، فإن يعذب قومه فهو ربهم، وإن يغفر لهم فإنه هو العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة-١١٨]، وهذا نبي الله نوح عليه السلام، يسارع بطلب المغفرة حين دعا ربه لولده الذي لم يؤمن بالله تعالى، وظن النجاة في أعلى الجبل، يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود-٤٧]، ونصح نبي الله صالح قومه ودعاهم للتمسك بالاستغفار، فقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل-٤٦].

٨. الصلاة على النبي ﷺ:

لما نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب-٥٦]، قال الصحابة رضوان الله عليهم: يا رسول الله هذا السلام عليك عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال رسول الله ﷺ: ﴿قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد﴾[1]، والله تبارك وتعالى لا يصلي فقط على النبي ﷺ، بل ويصلي أيضا على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب-٤٣]، وهذه الآية تفسر لنا الهدف من صلاة الحق تبارك وتعالى على عباده، وذلك ليخرجهم من الظلمات إلى النور، يقول ابن القيم: "والصلاة في اللغة ترجع إلى معنيين: أحدهما الدعاء والتبريك، والثاني العبادة، أما صلاة الله على عباده فهي رحمة وبركة منه سبحانه لهم، يباركهم ويعينهم حتى يخرجون من الظلمات إلى النور، ويؤكد هذا المعني عند الصحابة رضوان الله عليهم، ما ورد في الحديث الشريف الذي يرويه جابر بن عبد الله حيث يقول: أتانا رسول الله ﷺ فنادته امرأتي، فقالت: يا رسول الله صلِّ عليَّ وعلى زوجي، فقال: ﴿صَلَّى

---

١ حديث أبي حميد الساعدي متفق عليه أخرجه البخاري ٣١١٨، ومسلم ٦١٥، والنسائي ١٢٧٧، وأبو داود ٨٣١، وابن ماجه ٨٩٥، وأحمد ٢٢٤٩٤، ومالك ٣٥٧، حديث أبي مسعود الأنصاري رواه الترمذي ٣١٤٤، وقال: حديث حسن صحيح، وفي الباب عن علي، وأبي حميد، وكعب بن عجرة، وطلحة بن عبيد الله، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن خارجة، ويقال: ابن جارية، وبريدة بن الحصيب، وأبي هريرة، وغيرهم.

Upload by : altawhedmag.com

الله عليكِ وعلى زوجك﴾[١]، ويقول أيضا ابن أبي أوفى: ﴿كان إذا أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ بصدقته، قال: اللهم صلِّ عليه،فأتاه أبي بصدقته، فقال: اللهم صلِّ على آل أبي أوفى﴾[٢]، أما صلاة الله وملائكته على نبيه ﷺ فهم يباركون عليه، وتفسر كذلك بالثناء، وإرادة التكريم، والتعظيم، فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليما، ونصحا، وإرادة، واجتهادا، ولهذا يكون العبد مباركا، لأن الله بارك فيه وجعله كذلك، وصلاة الله وملائكته علي نبيه إخراج له من نور إلى نور، وارتقاء من مقام إلى مقام أسمى حتى يبلغ الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة، تلك التي لا تنبغي لأحد سواه ﷺ".

وتحدد الأحاديث التالية ثواب الصلاة على رسول الله ﷺ، يقول رسول الله ﷺ : ﴿من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا﴾[٣]، ويزيدنا إيضاحا قوله ﷺ: ﴿من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات﴾[٤]، وفي تفصيل أكثر يقول سهل بن سعد: "خرج علينا رسول الله ﷺ، فقام إليه أبو طلحة فتلقاه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني لأرى السرور في وجهك، قال: أجل إنه أتاني جبريل آنفا، فقال: يا محمد من صلى عليك واحدة كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له بها عشر درجات، وصلت عليه الملائكة عشر مرات"[٥]، ويبشرنا رسول الله ﷺ بمنزلة من يكثر الصلاة عليه بقوله: ﴿أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة﴾[٦]، ولا يوجد حد أقصى للصلاة على النبي ﷺ، فقد سأل أبي بن كعب رسول الله ﷺ، فقال: ﴿يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قال: قلت: الربع؟ قال: ما شئت فإن زدت فهو خير لك،

---

١ حديث جابر بن عبد الله أخرجه ابن حبان ٩١٢

٢ حديث ابن أبي أوفى أخرجه ابن حبان ٩١٣

٣ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ٦١٦، والترمذي ٤٤٧ وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي ١٢٧٩، وأبو داود ١٣٠٧، وأحمد ٨٤٩٩، ٨٥٢٧، وابن حبان ٩٠٣

٤ حديث أنس بن مالك أخرجه النسائي ١٢٨٠، وابن حبان ٩٠١، وحديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه فيه: ﴿كُتب له بها عشر حسنات﴾.

٥ حديث سهل بن سعد رواه ابن القيم في جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام صفحة ٢٠

٦ حديث عبد الله بن مسعود أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب ورواه ابن حبان في صحيحه ٩٠٨

Upload by : altawhedmag.com

قلت: النصف؟ قال: ما شئت فإن زدت فهو خير لك، قال: قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذًا تُكْفَى همك، ويغفر لك ذنبك﴾[١].

ويحذر رسول الله ﷺ من غفل عن هذه الطاعة بقوله: ﴿ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة[٢]، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم﴾[٣]، ويقول ﷺ: ﴿البخيل الذي من ذكرت عنده فلَمْ يُصَلِّ عليّ﴾[٤]، وصلاتنا عليه ﷺ تبلغ رسول الله ﷺ كما أخبرنا بقوله: ﴿إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام﴾[٥]، كما يدعونا رسول الله ﷺ أن نصلي على جميع الأنبياء بقول: "صلوا على أنبياء الله، ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني، صلوات الله عليهم"[٦].

١ حديث أبي بن كعب رواه الترمذي ٢٣٨١ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد ٢٠٢٨٩، وابن حبان حديث ٥٢ ص ٣١، والحاكم في المستدرك ٢:٤٢١

٢ ترة: يعني حسرة وندامة، أو النقص، وقال بعض أهل المعرفة: بالعربية الترة هو الثأر.

٣ حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي ٣٣٠٢، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد ٩٢١٣، ٩٣٨٨، ٩٤٦٦

٤ حديث علي بن أبي طالب أخرجه الترمذي ٣٤٦٩ وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأحمد ١٦٤٥

٥ حديث عبد الله بن مسعود أخرجه النسائي: ١٢٦٥، وأحمد ٣٤٨٤، ٣٩٩٣، ٩٣٨٨، ٩٤٦٦، والدارمي ٢٦٥٥، وابن حبان ٩١٠، والحاكم في المستدرك ٢:٤٢١

٦ حديث أبي هريرة رواه ابن القيم في جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام صفحة ١٦، وقال: والحديث له شواهد ومثله يصلح للاستشهاد.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الثالث

طلب العلم من أشرف صور الذكر

يحث الإسلام على طلب العلم، وأولها العلم الشرعي، وكذلك العلم المادي التجريبي الذي عليه قوام الدنيا وسيادة المسلمين لها، والسالك إلى الله تبارك وتعالى عليه أن يدرك أن العلم مقدم على العمل، فلا يصح من العمل إلا ما وافق عليه العلم الشرعي، ولا يقبل عمل صحيح إلا بإخلاص النية فيه لله جل شأنه، ولهذا رفع الله منزلة العلماء في الدنيا، واختصهم بالفضل كله يوم القيامة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْـمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْـمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران-١٨]، والقرآن ليس حروفا تتلى على ألسنة أهل العلم وإنما هو في صدورهم آيات بينات ودلالات قاطعة، وحجج ساطعة، ويقين ثابت، يقول سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْـمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِـمُونَ﴾ [العنكبوت-٤٩]، فالأنبياء ثم ورثتهم من العلماء هم قبلة السائلين، ومقصد الصادقين، فبنور علمهم يزول الجهل، وتتفتح الأفئدة والقلوب، ويتجه العاصي والطائع لرب العالمين، فهم الهداة المهتدون، وأهل الذكر الذين أمرنا الحق سبحانه بسؤالهم، والتلقي عنهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۞ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّـهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل٤٣-٤٤]، ومن شرف العلم عند الله تبارك وتعالى أنه يزيد من إيمان العبد بربه، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْـمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ-٦]، ولا يستوي من شرفه الله بالعلم مع من هو في الظلمات ليس بخارج منها، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر-٩].

إن تدارس العلم وتحصيله من أشرف صور الذكر، والعلم لا يكون إلا بين عالم ومتعلم، سواء بالتلقي المباشر في مجلس علم، أو من خلال كتاب تركه العالم بعد أن وضع فيه صفوة علمه وخلاصة إيمانه، فهو له صدقة جارية لدوام ثوابه مع كل قارئ له إلى يوم القيامة، ولنا علم ينتفع به، واعلم أن العلوم تتفاضل فيما بينها، وأشرفها وأعلاها ما جمع العبد على مولاه، وأخذ بيده على

Upload by : altawhedmag.com

صراط الله المستقيم، وعرَّف الذاكر بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وأحوال الصحابة الأقمار، وآل البيت الأطهار، والتابعين والمصطفين والأخيار، فمن عرف أحوالهم اشتاق لمسعاهم، لعل الله أن يرزقه لقياهم، فيتحول العلم في قلبه إلى همة تدفعه لسلوك طريقهم، والسير على دربهم، فالعلم يصبح السراج الذي ينير له الطريق، وهو الميزان الذي توزن به الأحوال، وتقبل به الأفعال والأقوال، فما وافق نهج الحبيب ﷺ فهو حالة مَرْضية، يرضى عنها الله ورسوله، وما خالف الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح فهو حالة غير مرضية، وصاحبها مستدرج، والفرار من فعله وحاله أولى وأنجى.

لا شك أن في مذاكرة العلم جهاد وأي جهاد، وفيه طاعة للملك العلام، فالعالم أصعب على الشيطان من ألف عابد، والعلماء هم أكثر الناس خشية لله ﷻ، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْـمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْـمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران-١٨]، ولما صح توحيد أهل العلم ألحق الله تبارك وتعالى شهادتهم بشهادة الملائكة، وأشرف من ذلك أن أضاف شهادتهم إلى شهادته بأنه لا إله إلا هو، فأكرم وأنعم بها من منزلة.

Upload by : altawhedmag.com

الفصل الرابع

درجات الذاكرين

اعلم أن الخلق ينقسمون من حيث ذكر الله تبارك وتعالى إلى ثلاثة أقسام:

أولا: الغافلون عن ذكر الله

قال رسول الله ﷺ: ﴿إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين-١٤]﴾[١]، فالغفلة أوقعت العبد في الذنب، إذ لو كان العبد ذاكرا مستحضرا عظمة الله في قلبه، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: ﴿يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد إذا نام بكل عقدة يضرب عليك ليلا طويلا، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، وإذا توضأ انحلت عنه عقدتان، فإذا صلى انحلت العقد فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان﴾[٢].

إن الفرق بين البيت الذي يذكر فيه الحق تبارك وتعالى والبيت الذي لا يذكر فيه كالفرق بين الحي والميت، ويصفه أيضا رسول الله ﷺ أنه كالقبر حيث يقول: ﴿لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة﴾[٣]، فأهل الغفلة كالأموات وبيوتهم كالقبور، وأنفسهم خبيثة، وقلوبهم يعلوها الران ويعشش فيها الظلام.

ويا ليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، فيكفيه أن يكون الشيطان له قرينا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف-٣٦]، ومن استحوذ عليه الشيطان وصار صديقه وأليفه فلن يكون له عمل سوى إبعاده عن ذكر الله قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله﴾ [المجادلة-١٩]، بل إن المعرض عن ذكر الله له معيشة ضنكا،

---

١ حديث أبي هريرة رواه الترمذي حديث ٣٢٥٧، وابن ماجه ٤٢٣٤، وأحمد: ٧٦١١، وابن حبان ٩٢٦

٢ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري ١٠٧٤، ٣٠٢٩، ومسلم ١٢٩٥، والنسائي ١٥٨٩، وأبو داود ١١١١، وابن ماجه ١٣١٩، وأحمد ٧٠٠٧، ومالك ٣٨٣

٣ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ١٣٠٠، والترمذي ٢٨٠٢، وأبو داود ١٧٤٦، وأحمد:٧٤٨٧

Upload by : altawhedmag.com

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه-١٢٤]، وليس مصيره إلى العمى يوم القيامة فقط، بل هم في عذاب أليم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن-١٧].

ثانيا: الذاكرين الله باللسان فقط

وهؤلاء قوم ارتقوا من درجة الغافلين المعرضين عن ذكر الله، ودخلوا مراحل مجاهدة الهوى وزكاة النفس، وطهارة القلب، يقول النبي ﷺ: "إن لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله"[1].

فالذكر يبدأ هنا كعلاج لمرضى القلوب، وجلاء للرين الذي حاق بها، وبالتالي يتبدل ظلام القلوب ويدخله النور، فينفسح القلب وينشرح الصدر للطاعة فيقبل العبد عليها أكثر، فينصهر الرين من القلب ويبدأ في الذوبان، ويصعب على الشيطان أن يوسوس في الصدر، بل إن القرين أصبح يخاف على وجوده، فلم يعد له مأوى بعد استنارة القلب، رغم أن النور الذي ينير القلب ما زال ضعيفا، إلا أن النور والظلام لا يجتمعان أبدا، والظلام يبدده أقل قدر من الإضاءة، فيتحرر المرء من أسر الشيطان، فإذا التزم السالك بالصلوات في مواقيتها، وحرص على الجماعة، والصلاة في المسجد، واجتهد في خشوعها، وأقام بأركانها وسننها، وتنفل بالسنن الواردة مع كل فرض، وشرع في تعلم أحكام التلاوة وحفظ ما تيسر له من القرآن، وأحب العلم وأهله وراح يطالع كتب الحديث والفقه، فإنه يدخل في زمرة المتقين، الذين يقول الحق تبارك وتعالى فيهم:﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف-٢٠١]، وتبشر هذه الآية المباركة السالكين إلى الله تعالى، فاحتناك الشيطان للغافلين وصحبته لهم كالقرين، قد تحول أثره مع المتقين إلى مس طائف فقط، أي خاطر يمر من بعيد، والمس لا يصاحبه تملك أو سيطرة، ثم هو من طائف، وليس من مقيم مشارك لصاحب الدار، وتكون النتيجة الفورية أن يتذكر المتقون فإذا هم مبصرون، أي أنهم يبادرون إلى حصن الذكر الحصين، فيعلمون أنهم إنما اعتراهم الشيطان لحظة، هاجمهم فيها لغفلة طارئة فإذا عادوا إلى الذكر، فر منهم الشيطان وأصبح طائفه لا

١ حديث عبد الله بن عمر أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب.

Upload by : altawhedmag.com

أثر له، ومن السنن الإلهية الثابتة أن قدوم الحق معناه زهق الباطل، فلا رسم ولا عين لباطل مع مجيء الحق، ويحدثنا سفيان بن عيينة ﷺ عن التحالف الاستراتيجي بين الشيطان والدنيا حين يقول: "إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى، اعتزل الشيطان والدنيا، فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون، فتقول الدنيا: دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك"، فكأن دور الشيطان إذا ضعف، فإن دور الدنيا يشتد على الفور في محاولة منها أن تستعيد زمام المبادرة وتسلمه للشيطان، والذاكرون في هذه المرحلة والتي تتسم بذكر اللسان دون خشوع القلب بعد، في حال جهاد متصل مع الشيطان والدنيا والنفس الأمارة بالسوء، وسلاح الدنيا كما سبق أن أوضحنا هو المتاع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون-٩]، وورد في الإحياء أثرا يصور جهاد الذاكر المتردد بين الغفلة والذكر يقول: "ذاكر الله في الغافلين، كالمقاتل بين الفارين"، فهو تارة يقاتل وتارة يفر، إذن فالأمر قتال حقيقي، والله يتولى عباده الصالحين بولايته ونصره وتأييده، ولو استمر العبد على جرعات الطاعة ولم يقصر فيها فإنه ينتقل رويدا رويدا إلى المقام التالي.

ثالثا: الذاكرين الله بالقلب واللسان

هذه المرحلة هي ثمرة المراحل وغايتها، فالعبد ينتقل من الغفلة إلى مرحلة مكابدة الذكر بلسانه، وقلبه لم يخشع بعد، ويظل في جهاده للشيطان والدنيا والنفس والهوى، فهو يبادر إلى الطاعات لعله ينال ثمرتها من التقوى، ويقول الجنيد: "فتح كل باب وكل علم نفيس: بذل المجهود، فمن لزم الخدمة ورث منازل القربة، ومنازل القربة تورث حلاوة الأنس"، فمن داوم على بذل المجهود، ولزم الخدمة فقد أطاع أمر الحق تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب-٤١]، ومن أكثر من ذكر الله سبحانه فقد فاز بالخير كله، فعن معاذ عن رسول الله ﷺ أن رجلا سأله فقال: أي الجهاد أعظم أجرا؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا، قال فأي الصائمين أعظم أجرا؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا، ثم ذكر لنا الصلاة

Upload by : altawhedmag.com

والزكاة والحج والصدقة كل ذلك رسول الله ﷺ يقول أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا. فقال أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول ﷺ أجل)[1].

فمن كان مؤمنا وأكثر ذكره سبحانه، فقد رزقه الله تعالى طمأنينة في قلبه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد-٢٨]، وبالتالي لا يشغله متاع الدنيا حتى يصل إلى مرتبة الرجال قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاةِ﴾ [النور-٣٧]، ورغم هذا المقام إلا أن الوجل وخشية الحق تبارك وتعالى لا يفارق المؤمنين أبدا، فهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، فالوجل من عدم قبول الطاعة، والخوف من سوء الخاتمة، وخشية الموت وسكراته، والقبر وفتنته، والبعث وأهواله، والكتب التي يخرجها الله لعباده، وهل سيتلقاها بيمينه وينال سعده وسروره، أم ينالها بشماله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا ينتهي الوجل إلا في مستقر رحمة الله ودخول الجنة، عندئذ يفرح المؤمن فرحا ما بعده إلا فرح رؤية وجه الله الكريم، يقول سبحانه:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال-٢].

وسئل الجنيد عن ذكر القلوب وما سبب زيادة أجره فقيل له: ما تقول في الذكر الخفي؟ وما هو الذي لا تعلمه الحفظة؟ ومن أين زاد عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفا؟ فأجاب قائلا: أما الذكر الذي يستأثر الله بعلمه دون غيره فهو ما تعتقده القلوب، وطويت عليه الضمائر، مما لا تتحرك به الألسنة والجوارح به، وهو مثل الهيبة لله، والتعظيم لله، والإجلال لله، واعتقاد الخوف من الله، وذلك كله فيما بين العبد وربه، لا يعلمه إلا من يعلم الغيب، والدليل على ذلك قوله ﷻ :﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص-٦٩]، وأشباه ذلك، وهذه أشياء امتدحها الله فهي له وحده جل ثناؤه، وأما ما تعلمه الحفظة فما وكلت به وهو قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق-١٨]، وقوله ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار ١١-١٢]، فهذا الذي وكل به الملائكة الحافظ من ما لفظ به، وبدا من لسانه، وما يعلنون ويفعلون هو ما ظهر به السعي، أما ما أضمرته القلوب، مما لم يظهر على الجوارح، وما تعتقده القلوب فذلك يعلمه جل ثناؤه. أما ما روي في الخبر من فضل عمل السر على عمل

١ حديث معاذ بن جبل انفرد به أحمد ١٥٠٦١

Upload by : altawhedmag.com

العلانية، وأن عمل السر يزيد على عمل العلانية سبعين ضعفا، فذلك والله أعلم، لأن من عمل لله عملا فأسره فقد أحب أن ينفرد الله ﷻ بعلم ذلك العمل منه ومعناه أن يستغني بعلم الله في عمله من علم غيره، وإذا استغنى القلب بعلم الله أخلص العمل فيه، ولم يعرض على من دونه، فإذا علم جل ذكره صدق قصد العبد إليه وحده، وسقط عن ذكر من دونه، جازاه الله بعلمه بصدقه من الثواب سبعين ضعفا". وما أحسن ما نظم الشاعر:

كتبت بأدمعي في صحن خــدي كتابا بالتذلل والخضوع
فقالوا: قد عفونا عنك لما محوت قبيح فعلك بالدمــوع

Upload by : altawhedmag.com

ملخص الباب الرابع عشر

- الذاكرون والذاكرات لهم منزلة عظمى عند الله تعالى، وكفاهم منزلة أن الله تعالى يذكر من ذكره في الملإ الأعلى.
- على المسلم الذاكر أن يجعل له ورد يومي من تلاوة القرآن الكريم.
- تلاوة القرآن يلزم أن تكون بخشوع وتدبر، حتى تعود التلاوة بالفائدة المرجوة منها.
- كذلك يلزم أن يواظب الإنسان على ورد يومي يحفظه من كتاب الله تعالى.
- إقام الصلاة من أهم صور ذكر الله تعالى، فالسبب الرئيس لإقامة الصلاة هو ذكره تعالى.
- من أفضل صور الذكر أن يذكر العبد ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.
- ذكر الله تعالى له طرق وأنواع عديدة منها: الذكر بالتهليل (شهادة التوحيد)، والذكر بالتسبيح، وبالحمد، وبالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.
- يحث الإسلام على طلب العلم: العلم الشرعي، والعلم المادي التجريبي الذي عليه قوام الدنيا وسيادة المسلمين لها.
- العلم لا يكون إلا بين عالم ومتعلم، سواء بالتلقي المباشر في مجلس علم، أو من خلال كتاب تركه العالم بعد أن وضع فيه صفوة علمه وخلاصة إيمانه.
- يحث الإسلام على طلب العلم، وأولها العلم الشرعي، وكذلك العلم المادي التجريبي الذي عليه قوام الدنيا وسيادة المسلمين لها.
- إن تدارس العلم وتحصيله من أشرف صور الذكر، والعلم لا يكون إلا بين عالم ومتعلم، سواء بالتلقي المباشر في مجلس علم، أو من خلال كتاب تركه العالم بعد أن وضع فيه صفوة علمه وخلاصة إيمانه.
- ينقسم الناس نحو ذكر الله تعالى عدة أقسام، فمنهم: الغافلون، والذاكرون باللسان فقط، وأعلاهم درجة، وأفضلهم الذاكرون باللسان والقلب

Upload by : altawhedmag.com

الخاتمة

الحمد للَّـه الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له وحده على توفيقه في تحقيق الغايات، سبحانه جلت قدرته، وسبقت إرادته ومشيئته، فيسر وهدى، ثم أكرم أحبابه وأعانهم، وسهل لهم وأمدهم، ولما أنجزوا ما وفقهم إليه، جاءت الأعطيات في الدنيا والآخرة، فكتبت لهم الحسنات، وغفرت لهم السيئات، ودونت أسماؤهم مع الأبرار، ونالوا شرف الجهاد بالعلم والعمل، وثواب الانتصار للَّـه ورسوله، فكانت جائزتهم رضوانه، ومسكنهم جناته، ووقاهم في الدنيا من كيد الكائدين، وزيغ المبطلين، أعوان المردة والشياطين.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّـه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، من أظلته حماية مولاه، فلتقر عيناه في دنياه وأخراه، وأُصلي وأسلم على سيد ولد آدم، النبي الخاتم محمد بن عبد اللَّـه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، قدوتنا إلى اللَّـه، وشفيعنا يوم الفزع الأكبر بين يديه، ومن حوضه نسقى يوم العطش الأعظم، يوم تدنو الشمس من الرءوس، ويغرق العاصي في عرقه، والمذنب في معصيته، ويسعد الطائع بتوفيق اللَّـه تعالى له؛ فله وحده الحمد والمنة، أما بعد؛

فقد فرغنا بتوفيق اللَّـه تعالى من كتب هذه السلسلة، وقد بذلنا فيها وسع الطاقة في البحث والتنقيب، والتمحيص والتدقيق، والجمع والتوفيق، وكلما وصلنا إلى نقطة مهمة في مسار البحث، نجدها بتوفيق اللَّـه تعالى تقودنا لما ورائها من حقائق وبراهين، وكنا نشعر في كثير من الأحيان أن القلم يدون ما يصل إلى الفهم من معاني بسرعة فائقة، ودقة بالغة، ومع هذا فإني أشعر أن هذه السلسلة ربما سجلت رءوس موضوعات، قد يحتاج بعضها إلى كتاب مستقل، بل إن هناك عدد من الكتب يمكن أن يصدر عن بعض كتب هذه السلسلة، وأود أن أعتذر للقارئ الكريم أن معلومات هذه السلسلة مركزة غاية التركيز، وتحتاج من القارئ التروي في القراءة، وإعادة قراءة بعض الفقرات والفصول في بعض الأحيان، للوصول إلى ما ترمي إليه تلك العبارات، فهذه السلسلة لا يتحقق منها فائدة لمن قرأها بأسلوب تصفح الصحف اليومية، ولا حتى الكتب السطحية التي لا تصل إلى معنى جديد، أو توصلك إلى مفهوم بعد عدة فصول، ولكنك ستجد المعاني متواترة، ومتلاحقة، وكثير منها ستتعرف عليه للمرة الأولى، ولا يظن القارئ الكريم أنني

Upload by : altawhedmag.com

أبالغ حين أقول: أنني كنت في كثير من الأحيان أول من يقرأ هذه المعاني، فلم أجدها من قبل في كتاب، ولم أطلع على من سبقني في الوصول إليها، وإنما أتحدث بهذا عرفانا بنعم اللَّـه تعالى.

كما نأمل أن نطبع قريبا مجموعة كتب أخرى ضمن سلسلة أعلام الإسلام، وسيكون باكورة هذه السلسلة كتاب أعتز به غاية الاعتزاز، ألا وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب العدل، نموذج القائد للدولة والمدعم لأسس الحضارة، وسيجد فيه القارئ الكريم نظرة جديدة في تناول تلك الشخصية الفذة التي أسست الدولة على دعائم العدل، ثم بنت الحضارة الإسلامية التي سمت فوق كل الحضارات، وارتفعت هامتها قرب السحاب، والكتاب التالي سيكون عن الكريم بن الكرام يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

كما سنشرع في طباعة سلسلة ثالثة من الكتب عنوانها: تهذيب روائع التراث، وسيكون أولى مطبوعات هذه السلسلة كتاب: تهذيب الداء والدواء لابن قيم الجوزية، وهو كتاب رائع كتبه مصنفه لمعالجة قضية مهمة ومستمرة إلى أن يرث اللَّـه الأرض ومن عليها، فقضية الداء الذي يعتري النفوس، والقلوب، والأرواح ستظل دائما في حاجة إلى دواء، ومن مآثر ابن القيم في كتاباته أنك تشعر رغم مرور العديد من القرون على تدوينها أنه يكتبها بلغة معاصرة، ولولا بعض المآخذ في ترتيب الكتاب وتبويبه وتخريج آياته وأحاديثه، ما احتاج منا إلى تدخل، أما الكتاب الثاني فهو: تهذيب صفة الصفوة، لأبي الفرج بن الجوزي، وقد هذب فيه كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، وهو كتاب طيب فيه خير كثير، وقد بذل ابن الجوزي جهدا عظيما في صفة الصفوة حتى أصبح هذا الكتاب من أطيب كتب المكتبة الإسلامية، إلا أن طريقة ترتيبه تحتاج إلى متخصص على دراية بعلم الرجال، وطبقاتهم، ومدن إقامتهم، حتى يصل إلى من يريد أن يقرأ عنه، ولهذا فقد أعدت ترتيب الكتاب كاملا، بحيث تم ترتيب أعلام الأمة، أو صفوتها على الترتيب الهجائي بحيث تصل مباشرة إلى من تريد أن تتعرف عليه من أعلام الأمة، كما تم حذف بعض الأقوال التي لا أهمية لها، كالحديث عن بعض العباد من الجن، أو من يسمون بالدراويش أو المجاذيب، الذين أطلق عليهم أبو نعيم اسم المجانين من العقلاء، فانتظروا هذه الكتب، وسلوا اللَّـه لنا التوفيق في إخراجها على الوجه اللائق بها، وصَلِّ اللَّـهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمود المراكبي
٠١٠٦٣٥٧٩٠٠

Upload by : altawhedmag.com